

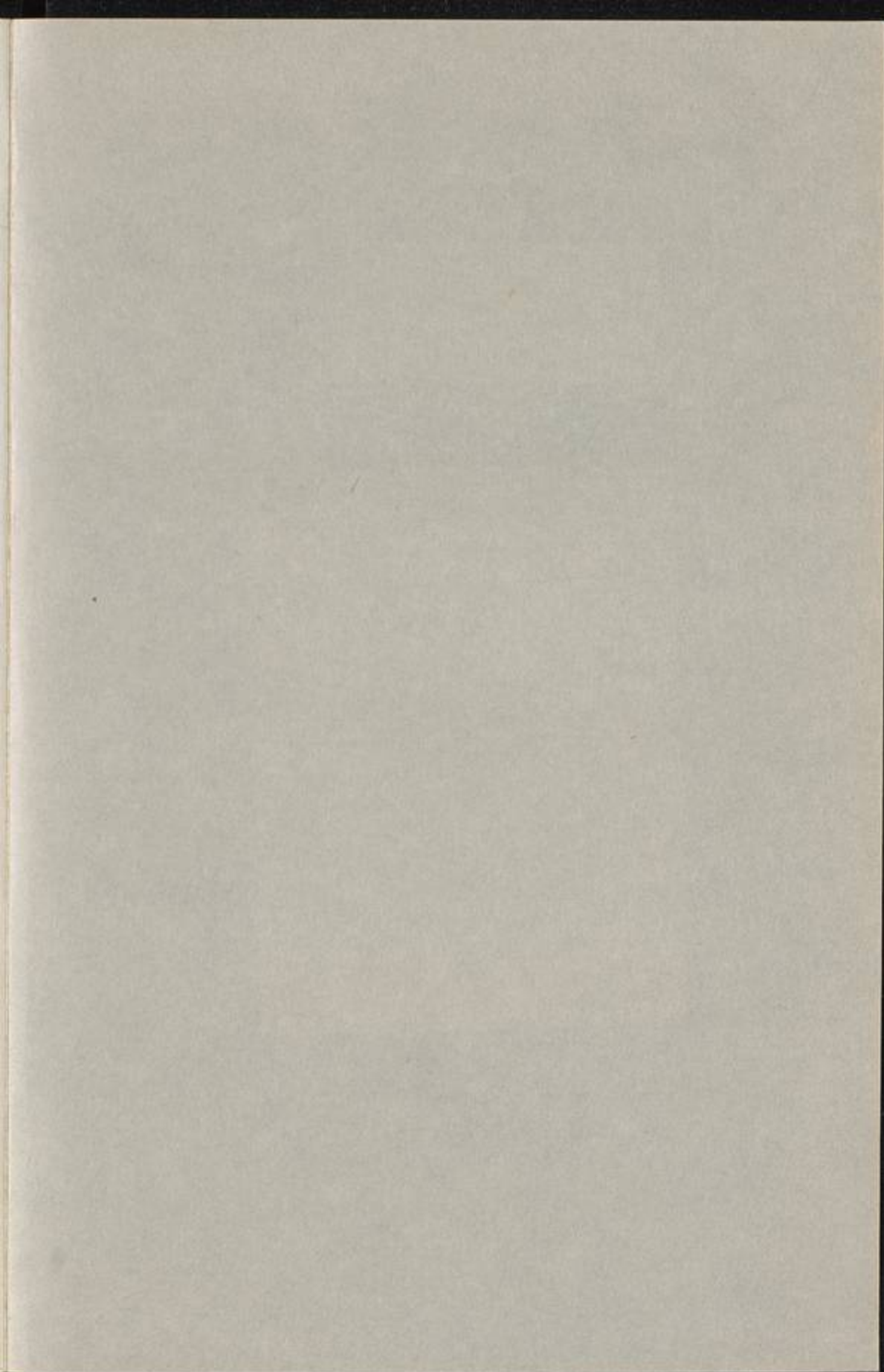
Cornell University Library
PJ 7515.T12
v.2

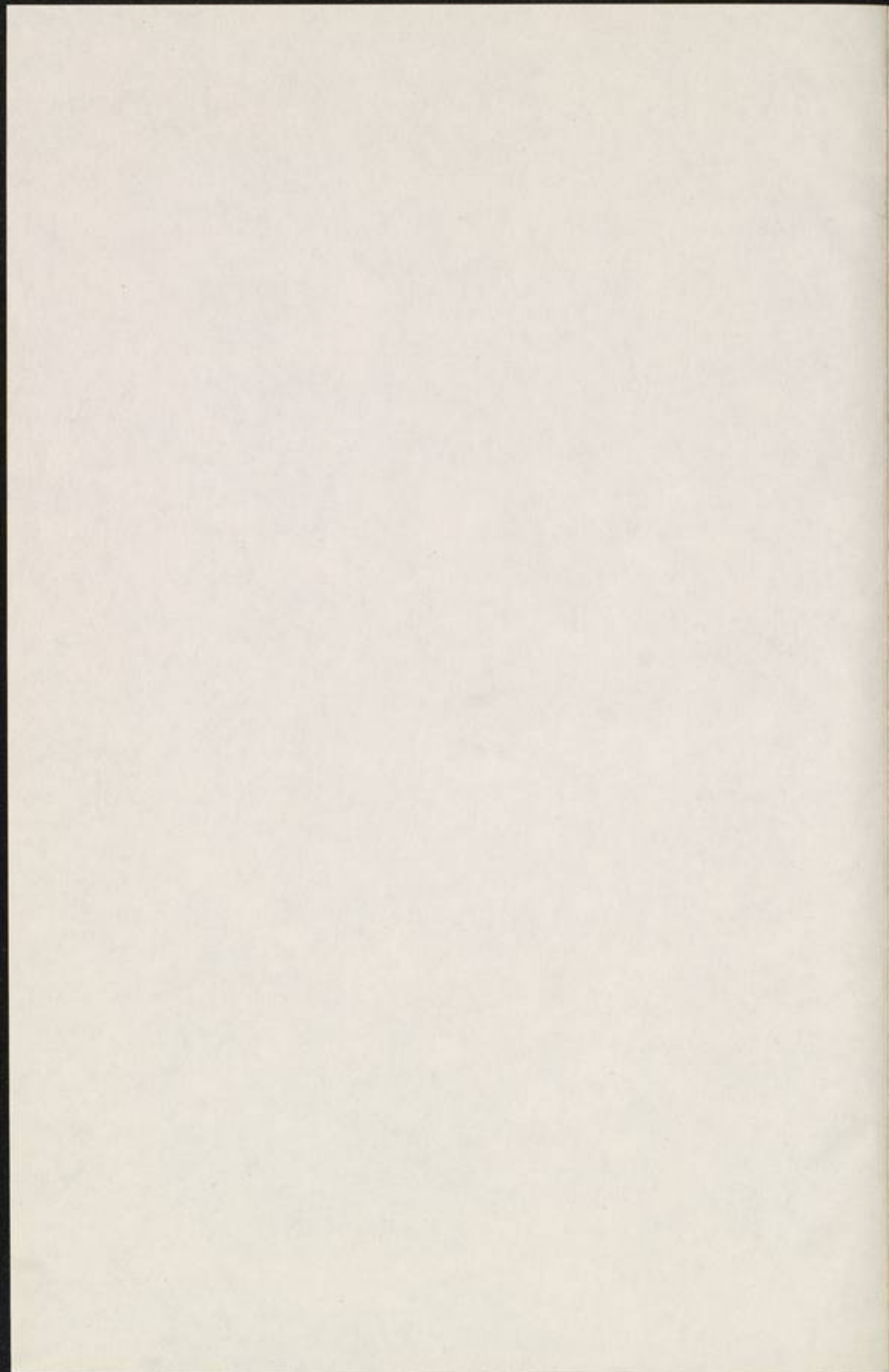
Hadith al-Arba.

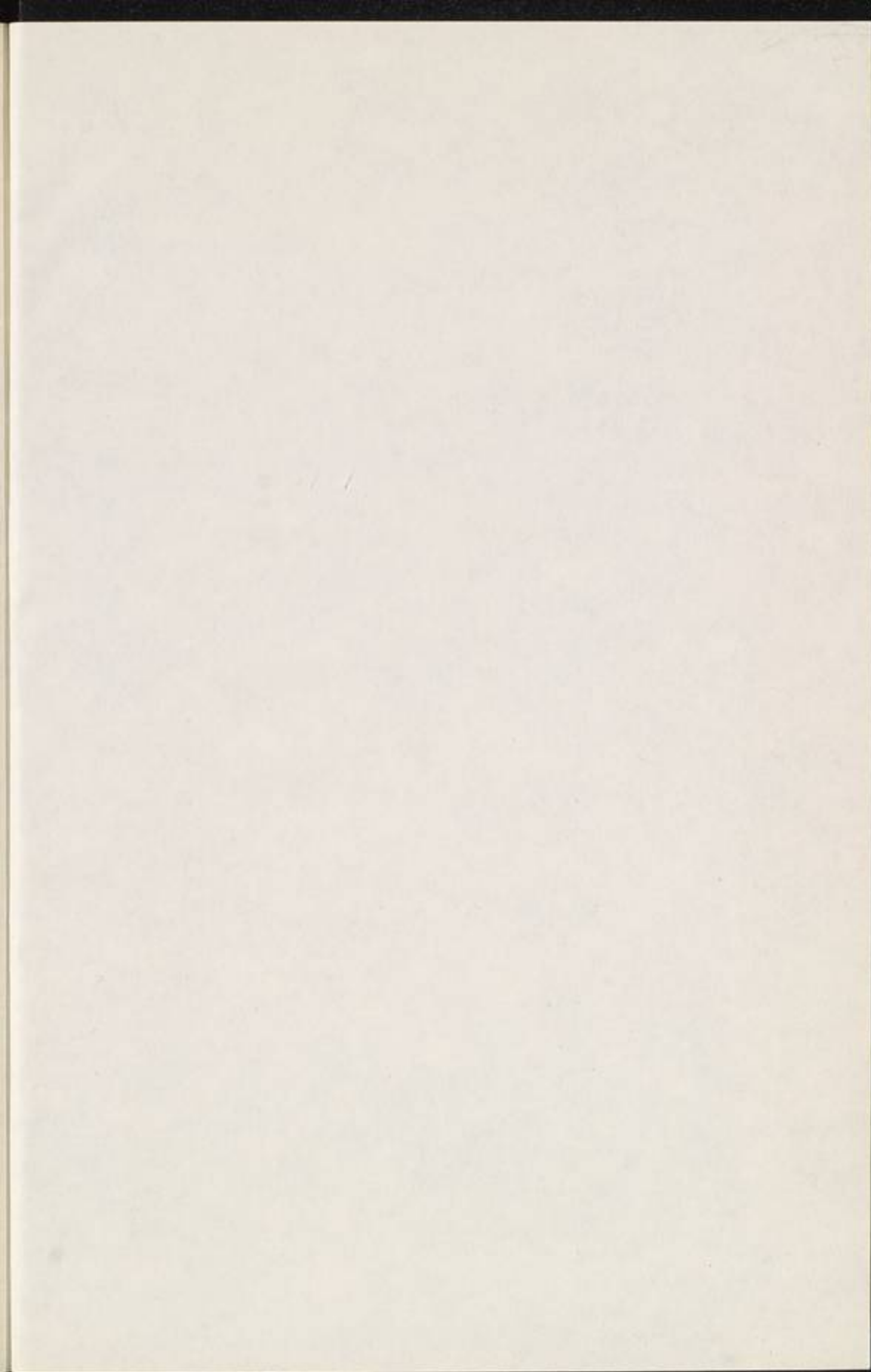


3 1924 026 987 721

~~Nov 1 28 11 15~~
DATE DUE







طه حسين

حديث الأربعاء

٢



دارالمعارف بمصر

PJ
7515
T12

v.2

دليل المصنفين

13719815
55
5
5.7

القدماء والمحدثون (١)

الجهاد بين القديم والجديد - مصدره ونتائجه في فروع
الحياة المختلفة - مظهره في الحياة الأدبية - آثاره العظيمة
في الأدب اليوناني ، وآثاره الضئيلة في الأدب العربي .

لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم ، التي كان لها نصيب من الأدب وحظ
في إتقان القول وإجادته ، من هذه المسألة « مسألة القدماء والمحدثين » ولم
تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم ، إلا أحدثت
خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية
أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين
مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ
الصلة بين القديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ،
ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثمرها تغير
الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي
نعيش فيه . وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على
الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شيء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول
الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية ، والسياسية والاجتماعية ؛
وذلك معقول ، لأن الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصلين
لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية
أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم
والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى أن نشعر
بأن حياتنا الآن هي إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من
آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

(١) نشرت بجريدة السياسة في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ - ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

ونحن نحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغير
أمسنا ، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجهه أو وجهين فهي
تغير من وجوه .

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور
والحاجة إليه ، مترددون في ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمنا من يؤثر هذا الشعور
بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقة ألا يكون
إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا تعرف لها
أولا ولا آخراً ، وهي سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ،
فيكآف بالحديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر
إلا في شيء واحد : هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام ،
دون أن يقف فيفكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار
القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الحديد الغلاة في التشيع له : يشتد هذا
الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع
للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا بقاء ، وإنما هي محققة لهذين
الأصلين تحقيقاً طبيعياً غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى
بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتتوسط
بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة ، والذي
هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد للصلة
الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية في كل ضرب من ضروب الحياة العامة ، عقلية كانت
أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، وهي منتجة نتائج تختلف قوة
وضعفاً باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها في الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة
لا تتجاوز الخصومات اللفظية لإفليلا ، وكذلك الحال في الحياة العقلية
الفلسفية . فأما في العلم فانتصار الحديد يسير محقق ، لا خوف عليه ولا شك فيه ؛
لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعداداً للخلاف والمناقضات .
ولكن هذه النظرية إذا ظهرت في الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت
في أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها ؛ لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما

أشدّ ضروب الحياة ميسياً بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها ، والإنسان بطبيعته عبد لمنفعته ، يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافاً أدبيّاً في أسلوب الشعر والنثر ، أو أن خلافاً في نظرية من نظريات الفلسفة ، أو أصل من أصول العلم ، أحدث ثورة سفكت فيها الدماء ، وأزهقت فيها النفوس ، واختل لها نظام الأمن ، في حين كان الاختلاف في تقسيم الثروة ، أو في نظام الحكم - وسيظل دائماً - مصدر هذه الثورات التي أشرنا إليها .

وما لنا نذهب بعيداً ، ونحن لا نعلم أن شاعراً قتل شاعراً آخر لأنه يخالفه في الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفاً قتل فيلسوفاً آخر لأنه يخالفه في أصل من أصول الفلسفة ، لا نعلم شيئاً من هذا ، ولكننا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد ، وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة ، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال . لا تذكر لي الخلافات الدينية التي أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد ، فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات في الحياة العقلية أو الأدبية أو الفنية الخالصة ، وإنما أحدثتها من حيث إنها اختلافات في ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها .

ستقول لي : ولكن الاختلاف في السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة ، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية . وليس في هذا شك ؛ فإن سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص ، وإنما نزعم أن هذه الحياة أشدّ ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر ، لأنها تكاد تنحصر في الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال .

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، يشتدّ الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الحديد فيصبح هذا الحديد قديماً ويظهر جديد آخر يحاربه .

ولعل من ألد أنواع الجهاد بين القديم والحديد ، وأحبها إلى النفس ، هذا الجهاد الذي يقع بين الشعراء والكتّاب في عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيد

لأنه برىء ، ولذيد لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحي ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا في أول هذا الفصل إن الأمم التي لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ولكننا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتاً عظيماً باختلاف الأمم والأجيال ، فهو منتج جداً في أمة من الأمم ، عقيم جداً في أمة أخرى ، معتدل الإنتاج في أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال ، فقد يختلف القدماء والمحدثون في الألفاظ ، وقد يختلفون في المعاني ، وقد يختلفون في الألفاظ والمعاني ، وقد يختلفون في الأنواع الفنية نفسها ، فتظهر الحياة الأدبية في هذا العصر في صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئاً .

انظر إلى الأمة اليونانية مثلاً وإلى الشعر ، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر في لفظه ومعناه فحسب ، وإنما استتبع تطوره في نوعه أيضاً . فكان الشعر القصصي مظهر الشعور اليوناني أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها ، فلما عظم حظها من الحضارة المادية ، وأخذ عقلها في التفكير ، وذوقت لذة الترف والثروة ، كان الشعر الغنائي مظهر شعورها ، فلما قوى نصيبها من الحضارة ، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها ، كان الشعر التمثيلي مظهر شعورها .

فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيماً معقداً مختلف المناحي ، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع ، في حين كان عند الأمة العربية ضيقاً محصوراً لا يكاد ينتج شيئاً ، لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعاني في عصر من العصور ، هو أول العصر العباسي ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل في أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهاً شعر جرير ، لأن هذا « المولد » كان مجيداً . ثم ظهر الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين

وأنصار المحدثين ، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء ، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر . ثم ظهر الخلاف فى القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحترى وأبى تمام ، والذين كانوا ينتصرون لأبى نواس ومسلم . ثم ظهر الخلاف فى القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبى ، والذين كانوا ينتصرون لأبى تمام .

فأنت ترى أن كل هذا العصر الأدبى الذهبى عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وليس عليك إلا أن تنظر فى كتب الأدب على اختلافها ، لترى هذا المقدار الموفور من الكلام الكثير الذى قيل وقيل فى الانتصار للشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض ، سواء منهم أبناء الجليل الواحد والذين اختلفوا جيلاً وعصراً . ولكن أريد أن أعلم فىم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ؛ وما نتائجه الكبرى ؟ .

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شىء فى اللفظ ، ثم فى المعنى ، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين .

كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون فى اللفظ اختلافاً ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصيناً يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أى إن جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية فى العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه .

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه فى أول العصر العباسى ؛ فاختلف الشعراء العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون فى أى الشعرين أجمل وأرقى وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام فى متانة اللفظ ورضانته وبدأوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها الناس عامة ، لا علماء اللغة خاصة ؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر فى المعنى فاختلف الشعراء فى معانى الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعرابية ، أم تتحضر كما تتحضر الناس ؟ أنصف الأطلال والخيام والصحراء والإبل والخيول والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتتناول الشعور الإنسانى فتصفه

لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التي لم يعهدها الأعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد ؟

ظهر هذا الخلاف ، وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجاً وأكثرها خصباً ، لأن أنصار الحديد - وعلى رأسهم أبو نواس - أقدموا غير خائفين ولا وجلين ، فوصفوا لنا الحياة الحديدية دقيقها وجليلها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والمحدثين :

اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والتميمي وأمثالهما من أصحاب البديع ، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أنى نواس التي أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعاً ولا استعارة ولا جناساً .

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشئ الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلاً جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقي موضوع الشعر كما كان ملحقاً وهجاء ورتاء ووصفاً وغزلاً ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجدها جوهرياً ولا مطرداً ، وإنما هو التجدد الذي يكفي ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد ، وقد مضت القرون وتعاقت ، والشعر العربي في لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديماً ، لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذي أشرنا إليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة ، وأن نتبين الأسباب القوية التي أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتطور قليلاً ، ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك في الأسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون^(١)

رأينا في الأسبوع الماضي أن الآداب العربية ، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التي تشترك فيها الآداب الحية جميعاً : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه ، لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً في الشعر على أقل تقدير ، وسنعرض للنثر في غير هذا الفصل .

لم ينتج شيئاً كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان ، لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والثناء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات ، وظل شكل الشعر كما كان ، لم يخترع فيه شكل جديد ، ولم تضاف إليه صورة طريفة ، وإنما بقيت القصيدة مظهراً للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها .

وإذن فلم يحدث تطور الأمة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر في موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئاً جديداً في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا في الفصل الماضي ، وربما اضطربنا إلى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشيء الجديد كان أقل جدّاً مما كنا ننتظر ؛ فإن الحياة العربية تطورت في القرن الأول والثاني للهجرة تطوراً يوشك أن يكون كاملاً ، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت في هذين القرنين تبديلاً تاماً ؛ فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فبينما كانت الحياة في بغداد أبعد ما تكون عن الحياة في صحراء جزيرة العرب من كل وجه ، كان الشعر الذي ينشد في بغداد شديد القرب جدّاً من الشعر الذي كان ينشد في تلك الصحراء .
وإذن فنحن بإزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرهما : الأولى أن الحياة العربية

(١) نشرت بالسياسة في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ - ١٣ ديسبر سنة ١٩٢٢ .

قد تطورت تطوراً كاملاً ، وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما . والأخرى أن تطور الشعر لم يكن مناسباً لتطور الحياة في جميع فروعها .

وربما لم يكن من العسير جداً تفسير هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خصوصاً تماماً لمؤثرين مختلفين اختلافاً تاماً ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعاً قوياً إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذباً قوياً إلى الوراء فتتنجذب . كانت تندفع إلى الأمام اندفاعاً قوياً في الحضارة المادية ، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحداثتها ورياضها ، وما تشتمل عليه هذه القصور والحداثق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوى من مظاهر العيش الحشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية ، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة ، واجب ديني لا سبيل إلى جحوده أو التقصير فيه .

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام ، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطن في حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذاك .

ومن هنا كان التناقض ظاهراً بين حياة العرب المادية في تفصيلها وبين حياتهم الأدبية في إجمالها ، فكانوا أحراراً في الحياة المادية ، محافظين في الحياة الأدبية .

وكان الشعراء الذين يجرون على أن ينكروا هذه المحافظة ، ويحاولون تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ، ولا ضئيلة الأثر في الحياة العامة ؛ كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراس على القديم ، أعداء لكل جديد ، وكان هؤلاء الشعراء

يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية ، مضطرون إلى أن يحتفظوا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً ، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل ، وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها ، فتستمع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهي الفقهاء والوعاظ ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة ؛ أضف إلى هذا كله ، أن الأمة العربية بفتورها حريصة على سنتها القديمة ، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وأن الآداب العربية القديمة في نفسها جذابة خلابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ؛ فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين ، كموقف الفلاسفة المجددين ، ثقيلًا شديد الحرج ، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب .

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون في العصر العباسي ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفاً باختلاف الخلفاء والوزراء ، كانوا محبين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء ، فكثير من هؤلاء الخلفاء ، والوزراء كان يحب شعر بشار ويلد لشعر أبي نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار ، حتى مات ، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ، مع أن إعجاب المأمون بأبي نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيرهم كانوا يحبون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون ؛ وحياة لأنفسهم ، ولخلصاتهم في القصور ومن وراء الحجب ، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقتربون ضروباً من الآثام .

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة ، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب ، وإنما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس ؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يُفْتَنُ لأنه شاعر أو مفكر فحسب ، بل قد يفْتَنُ أيضاً لأنه يرى رأياً سياسياً لا يراه السلطان ، لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع ، أو لأنه يرى رأى العلويين ، لأنه يؤثر الفرس على العرب ، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من الحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين .

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة - والشعر خاصة - بطيئاً قليل الإنتاج ؛ ولكن هناك سبباً نعتقد أنه هو السبب الأساسى الذى حال بين الشعر العربى وبين ما كان ينتظر له من التجدد ، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر ، ولم تخلط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا بمخالطة ضيقة جداً ، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة ، ونتاجاً من الحكم والأمثال ، فجهلت الأمة العربية جهلاً تاماً ، أو جهلاً يوشك أن يكون تاماً ، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور ، ولم تك تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية ، وروايات مشوهة فى الحكم والأمثال ، وسياسة الملوك ، ولم تك تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم ، وقليلاً من المواعظ والوصايا .

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبى جديد يحتذونه ويسعون فى تقليده ومحاكاته ، فظلوا على ما كانوا عليه ، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه ، لا يجدون من هذا كله إلا ما يضطرونهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه ، وهم فى هذا التجديد القليل نفسه ، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية . وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم ، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج ، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة

المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة الأدبية للشعوب الأجنبية ، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الأمم المعاصرة ، لما تطور شعرهم هذه الأنواع من التطور . وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم ، وقل إن الأمم الأوربية مدينة بتطور آدابها لهذه الحركة التي حدثت في عصر النهضة ، فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان .

ويطول القول إذ أردنا أن نذكر أثر الاختلاط بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوربية الحديثة ، وقد حرم العرب هذا الاختلاط ، فحرم الأدب العربي نتيجته ، وهي التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية ، فجهلوا الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنوناً كثيرة وضروباً مختلفة ، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربي ، وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوي بين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم ، وموعداً بهذا الفصل الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

تجدد الشعر في العصر الأموي - الغزل الإباحي -
الغزل العفيف - الشعراء المتوسطون بين هذين الفئتين .

نظّم العصر الأموي ، ونظّم معه تاريخ الأدب العربي ، إن زعمنا أن التجديد الذي تناول لفظ الشعر ومعناه ، إنما حدث في العصر العباسي خاصة ، فإن العصر الأموي قد كان عصر تجديد أيضاً ، بل قد كان عصر تجديد قوي ظاهر في اللفظ والمعنى .

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب ، بل فيهما وفي الموضوع أيضاً ، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تاماً ، لأن عصر الأمويين لم يطل ، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان ، وإنما كان عصر تحول وانتقال ، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسي ما بدأه العصر الأموي من تجديد موضوع الشعر ، ولكننا سنرى في غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربي ؛ لأن العصر العباسي سلك بالأمة العربية طريقاً جديدة ، مغايرة شديدة للطريق التي سلكها العصر الأموي .

لم يكدهم المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة ، والروم من جهة أخرى ، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الأمة العربية ، وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادي ، وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين ، في هذا الفتح والتغلب ، من المال والغنائم الوفيرة ، التي بدلت حياة هؤلاء الناس ، فجعلتها يسيرة بعد عسر ، سهلة بعد صعوبة ، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والآخر معنوي ؛ فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظاماً للحكم والسياسة لم يألفوها ، وطرقاً للإدارة وتدبير الأمور

(١) نشرت بالسياسة في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

العامّة لم يعهدوها من قبل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسيّة أيضاً ، ونتج عن هذا التأثير المزدوج ، أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التي كانت بدويّة في كل شيء ملكاً حضريّاً في كل شيء ، وما لبثوا أن وفقوا إلى الأمرين جميعاً .

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قويّة في حياة العقل والشعور ، فإن الحضري يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي في شعوره وتفكيره . وكذلك يشعر الرجل الغني المنعم الذي لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طمعه في اللذة والنعم ، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذي أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة .

ثم إن الأمة العربيّة كانت أمة ذات عصبيّة شديدة ، فلم تكن تنفاد بطبيعتها لزعيم ، أو تدعن لسلطان ثابت الملك ، وإنما كانت قبائل وشعوباً ، ترى كل قبيلة من نفسها السيادة والسلطان ، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبيّة أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تمحو هذه العصبيّة أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة .

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة ، فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما: الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو « الغزل » وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنّاً جديداً قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذي يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، فحياته المادية مسيرة ولذاته موفورة عليه ، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يفنيها في شعره ، لا أكثر ولا أقل .

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، أو بعبارة أصح : كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدعون قصائدهم — مهما يختلف موضوعها — بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل . وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية ؛ فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفناً مختاراً ، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون ، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً في هذا العصر باختلاف الشعراء ، واختلاف ظروف الحياة التي كانوا يجيئونها ، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصنفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنائهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء « عمر بن أبي ربيعة » ذلك الذي أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتب بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير ، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى شيء آخر ، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها ، والتي هو بها كلف وعليها حريص ، هي لذة الألم بأنه يجب ، ويجب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء « جميل » الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب « بثينة » ، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يجب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يرضيه ويعنيه ، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل

كان يطمع في شيء آخر ، وهو أن تحس صاحبه ما يدخر لها من حب وما يلقي في سبيلها من ألم .

كان « عمر بن أبي ربيعة » زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان « جميل » زعيم المتغزلين العذريين ، وكان بين هذين الرجلين المتناقضين ، شعراء يتوسطون في الأمر فيسيحون أحياناً ويعفون أحياناً أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه ، أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقاً مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده ، وإنما تناول مع الغزل فنوناً أخرى . ومن هؤلاء الشعراء « كثير » الذي تغزل فأكثر الغزل ، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامى وهى « عزة » ، ولكنه مدح وارتزق من شعره . ولست أشك - والرواة لا ينكرون ذلك - أن كثيراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وإنما كان يتخذ الغزل صنعة ، ويقفو فيه أثر أستاذه جميل .

ولقد راج هذا الفن الجديد في عصر بني أمية رواجاً ظاهراً جداً ، نشأ عنه أن كلف به الشعب ، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يكونوا قط ، وألف لهم فصولاً من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة « قيس بن الملوح » « وليلاه » ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المسرفة التي تضاف إلى « قيس بن ذريح » و « لبناه » . ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن ، واخترعوا المواقف الحرجة المعضلة التي ليس لها حل وليس منها مخلص ، ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلي الأخيلى :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْحُ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتَ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَحْوَنَهُ وَأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَحَلِيلُ

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير ، موقف عاشقين كلفين ،
ليس إلى وصالهما سبيل ، لأن كليهما متزوج ، ولأن كليهما وفي عفيف .
لا أشك في أنك ستقول ليس في هذا الموقف شيء من الغرابة ، فقد
كانت ليلي متزوجة وكان « توبة » متزوجاً ، وليس غريباً أن يكون كلاهما وفياً
عفيفاً ، لا أشك في أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا أيضاً ، ولكني لا أدري
لماذا أميل ميلاً قوياً جداً إلى اعتقاد أن هذا الموقف موقف في اخترعته الشاعرة
لتجديد في الفن ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة .

ومهما يكن من شيء ، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند
العرب في هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه
مذهب اللذة ، وذهب الآخرون فيه مذهب العفة .

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا
الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار ، الذين ورثوا
الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسي لأمر ما .

ومن هنا كانت مكة والمدينة - في هذا العصر - أقرب إلى اللهو والمجون
والافتنان في اللذة ، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل ، من دمشق عاصمة
الملك ومستقر الخليفة ؛ وإن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا في هذا المذهب كانوا
من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا - ولم يعرفهم التاريخ - كانوا أيضاً
يخترعون في البادية ، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضاً ، ولقد يكون
من العسير تحليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة
والإباحة ، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية .

وإذن فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ في هذا العصر
يستأثر بالنفوس العربية ، وأن هذه النفوس قد خضعت في هذا العهد الجديد
لتزعة جديدة هي الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية
جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولكن هذا افتراض لم أوفق لتحقيقه
بعهد .

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنة الموروثة ، ويذهبون
مذهب الجاهلين فيمدحون ويهجون ويصفون ، قد تأثروا بهذا الفن الجديد ،
فع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل ، فإن هذا الغزل نفسه
قد رق ولطف في شعر الفرزدق وجرير والأخطل حتى أصبح الفرق بينه وبين
غزل الجاهليين ظاهراً بيناً ، فقليلاً ما تجد في شعر الجاهليين غزلاً يقارب في
عذوبة اللفظ وسحره ، وفي لطف المعنى ودقته ، قول جرير :

إِنَّ الَّذِينَ عَدَّوْا بِبَيْتِكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينًا
غَيْضَنَ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » . انظر
إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع ، وحسن موقعه من النفس ،
وانظر إلى دقة معناه ولطفه ، وإلى سعة هذا المعنى التي لا حد لها ، والتي عجز
الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز ، فعمد إلى الاستفهام
« ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ » شيء ليس إلى وصفه ولا إلى تحليده من
سبيل ، فهذا هو الفن الأول الذي استحدث في الشعر العربي أيام بني أمية .
ولنختصر

نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل ، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين
مذهب اللذة « ورافع لوائه » عمر بن أبي ربيعة « ومذهب العفة ، ورافع
لوائه » جميل بن معمر . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون ، فمنهم
من اتخذ الغزل صنعة وفناً فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك
الشعراء الجاهليين فتناول فنود الشعر كافة ، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد
فرق لفظه وسهل ، ودق معناه ولطف .

أما الفن الآخر الذي استحدث أيام بني أمية فهو « الشعر السياسي » ،
وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك ، وعمما كان من حرب بين العصبية
من جهة ، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى ، ولعل من الخير
أن نرجىء بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتي

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي - أسبابه

العامية - نموذج من نماذج هذا التطور .

رأينا أن تطور الشعر في عصر بني أمية كان قوياً منتجاً من بعض الوجوه ؛ فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسي وقلنا في آخر الفصل الماضي : إن تغير الحياة العربية أيام بني العباس أثر في حياة الشعر تأثيراً ظاهراً ، فحيا الفن السياسي محوياً ، وحوّل الغزل عن طريقته الأموية .

وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقاً تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية ، فنشأت معان جديدة ، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة في عصر بني العباس كانت جديدة من كل وجه ، فانقطعت الصلة شيئاً فشيئاً أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد وضواحيها ، وبين هذه البداوة القاسية الخشنة التي كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب ، فبينما كانت دمشق ، على حضارتها أيام الأمويين ، ملتقى للجديد والقديم ، وبينما كان الحضري الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة ، وكان البدوي المعرق في البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء ، وبينما كان الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم ، وعلى كثرة ثروتهم وغنائمهم ، وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة ، بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة ، بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال ، كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهي مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنيتها في أرض قد بعد عهدا بالبداوة ، واختلفت عليها الحضارات الكثيرة ، وأتاحت لها الطبيعة من خصب

(١) نشرت بالسياسة في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ .

الأرض وراثتها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ، ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو في وقت سريع ؛ فليس عجباً أن يأنس إليها أهل الحضرة وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقاهم الحضارة ، ولم يبعد عهدهم بالنعيم . كان الحضري يأنس إلى بغداد ؛ وكان البدوي ينفر منها وينكر نفسه فيها ، ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون إليها ولا يتكلفون في قصورهم عيشة أهلها ، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة ، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مثلاً يحنونها في ضروب الحياة ، ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بني أمية ، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة ؛ فليس غريباً أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام ، وليس غريباً أن ينشد في بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد في دمشق والشام .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت في هذا العصر تغيراً شديداً مختلفاً ؛ فكان السلطان الفعلي للفرس كما قدمنا ، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممدته في الأمصار والأقاليم ، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة ، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فأنمحنى هذا الفن الذي أزهى أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد .

وهناك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية ، فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقتها إلى الحضارة ، فلم يقف هذا الاختلاط عند الحياورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثراً في الحياة المادية والمعنوية : تجاوزه إلى الإصهار والتوالد من جهة ، وإلى الاختلاط العقلي الخالص من جهة أخرى فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي ، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة ، وفي الفلك والنجوم ، وفي السياسة والأخلاق ، وفي العلم والفلسفة .

فلا جرم ، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد في حياة النفس العربية ، أنتج أدباً لم تنتج تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية وصدر الإسلام ، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بني أمية أنتج أدباً حضرياً خالصاً يعبر عن شعور حضري خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الأمم ، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى - نقول : لولا هذان الشيطان لاستحال الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها في هذه الفصول : ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة ، تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل .

ادرس هذا العصر درساً جيداً ، وأقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث ، تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم ، ديناً كان هذا القديم أم خلقاً أم سياسة أو أدباً .

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً ، اضطرت الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب ، لأنهم آثموا بهذه الزندقة ، وظهر ازدياد الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة ، بل ظهر ازدياد الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهرها لهذا كله .

وليس يعيننا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية ، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذي يعيننا أن هذا التغير قد كان وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً ؛ فيكفي أن تقرأ شعر أبي نواس ، وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه من معارضة ومناقضة ، لتعرف مقدار هذا التغير ، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجة الطبيعية ، فهض القديم للدفاع عن نفسه ، واشتد الجهاد

بينه وبين الحديد ، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى : بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسي للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة .

ولعل من ألد ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدثين ، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث ، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة في الحياة العربية ، فقد كان أبو نواس محدثاً روى عنه الشافعي ، وكان مع ذلك فاجراً ماجناً يذيق المحدثين ألواناً من الأذى ؛ كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ، ويشهرون به في دروسهم مرة ثالثة ، فكان أبو نواس يجمد لكل شيء من هذا جواباً ، فيرد الواعظ رداً حسناً فيه شيء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير ، ويكذب على من يشهر به ، حتى لقد نظم مرة شعراً اختلق فيه حديثاً رفعه إلى النبي ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين ، ثم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقياً ورعاً . وروى ابن عساكر أن صاحباً من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكي ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية : هات الرقعة ، ودفع الرقعة إلى صاحبه ، وهو يقول : انظر إلى الفاسق ! لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، والله ما حدثته بهذا قط .

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون وقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ولعلمهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوماً ، وأمهم أحد الندماء ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة من خشوع لله ، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس :

أَكْثَرَ يَحْيِي غَلْطًا فِي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

وقال العباس بن الأحنف :

قَامَ طَوِيلًا سَاهِيًا حَتَّى إِذَا أَعْيَا سَجَدُ

وقال الحسين الخليع :

يَزْحَرُ فِي مِحْرَابِهِ زَحِيرَ حُبْلَى بَوْلَدٍ

وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدُّ بِحَبْلِ مِنْ مَسَدٍ

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ : أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير يتبغون الشراب واللهو ، ولأنهم لنى ذلك إذ قام أحدهم يصلى ، وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، فقالت : كم أنتم ؟ قالوا : أربعة ؛ وأهملوا صاحبهم لأنه يصلى ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله ! وعرفت الدلالة أنهم خمسة . . .

كان هذا العصر إذن عصر شك فى كل شيء ، وعصر مجنون وإباحة وتهتك فى الحياة العملية وفى القول أيضاً ؛ ومن هنا نجد فى هذا العصر شعراً كثيراً نستطيع أن نقرأه فى الكتب ، دون أن نستطيع ترديده فى الصحف ، بل فى دار الكتب المصرية كتاب فى أخبار أبى نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لأن قوانيننا لا تبيحه ، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه .

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر ، دون أن نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا روينا لك قصيدة من شعر أبى نواس ، ولم نحذف منها إلا بيتاً واحداً ليس إلى روايته من سبيل ، ولكننا نحب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى البيت فى غير إثم ولا فحش ، لولا أنه تعمد الإثم ، لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد فى ذلك العصر :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاهُ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاهُ
صَفْرَاهُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَاهُ

.....

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُمْتَكِرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاهُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاهُ

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُبْلَاغُنِيهَا لَطَافَةً وَجَفَاً عَنِ شَكْلِهَا الْمَاءِ
فَلَوْ مَرَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارُ وَأَضْوَاءِ
دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
لِتِلْكَ أَبْيَكِي وَلَا أَبْيَكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا (لِدِرَّةٍ) أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
فَقُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَقَةٌ حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَخْطُرُ الْعَفْوُ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلاً صادقاً ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفاً تجري على ألسنة الناس جميعاً في أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بدوي ، وإنما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا في المدن وامتلات رعوهم بما يملأ رعوس أهل المدن من جد ولعب ، بل في هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية ، فهو يريد أن يبكي على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لِتِلْكَ أَبْيَكِي وَلَا أَبْيَكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درساً مفصلاً ، رأيت هذه الإباحة في البيت الذي لم نروه ، ورأيت في آخر القصيدة بيتاً يعتز بالدين نفسه في نصر هذه الإباحة وتأييدها ؛ فهو يريد أن يكون ماجناً فاسقاً ، وأن يستمتع بالذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه « النظام » وأصحابه من المعتزلة تشدهم في أمر العفو والخطيئة والتوبة ، ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين ، ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة ، وأن يلهوا في مقتبل الشباب حتى إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلغلون على الناس هذا الباب ، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل الحجون .

ويقال إن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه ، فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره في طاعة الشيطان . وغلا بعضهم حتى أيأسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ؛ وتكلف النهوض ، وروى حديثاً يضمن له عفو الله .

وقد تحدثت الرواة بعد موته أنه دخل الجنة ، لأن أحدهم رآه في المنام فسأله عما فعل الله به ، فقال : غفر لي بأبيات قلتها ، وهذه الأبيات في الزهد والندم قالها في مرض موته ، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته ، وستعرض لها حين نعرض لزهد أبي نواس .

إلى جانب هذا كله في هذه القصيدة معاني لا يمكن أن توجد ، إلا في نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين ، فانظر إلى قوله :

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَايِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فهذا أسلوب « النظام » وغير النظام حين كانوا يتكلمون في الجزء الذي لا يتجزأ ، وفي كثافة الأجسام ولطافتها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة ، وكذلك قوله « حتى تولد أنوار وأضواء » فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص ، والبيت الأخير من هذه القصيدة :
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ
ليس إلا وضعاً لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة .

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس ، ولكنها تمثلها تمثيلاً مجملاً ، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة ، وجب أن تدرس حياة الجماعات الأدبية في بغداد والبصرة وهي شيء يشبه « الصالونات الأدبية » (Les Salons Littéraires) في فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، وسنحدثك عن هذا في الأسبوع الآتي . . .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندلسية
الأدبية - الشك والمجون .

كان أمر العرب مع الفرس ، كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ؛ ففسد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ، وأخذوا منهما بنصيب موفور ، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية ، فلما جاء الإسلام ، وكان الفتح ، ومكّن الله للعرب في بلاد الفرس ، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبدواة العربية ، بين اللين والحشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة ، والحياة الساذجة الهينة .

لم يكن هذا الجهاد عنيفاً حين كانت الحياة المادية موضوعة ؛ فكل الناس يؤثر اللين على الحشونة ، ويفضل النعمة على البؤس ، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم ، وإنما كان الجهاد عنيفاً بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعاً له ، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة ، والسّنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسّنن الفارسية . وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضي ، حتى ظهر انتصار الحديد ، وأخذ القديم ينهزم أمامه ، وينحصر في البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع ، في العراق والشام وغيرهما من البلاد التي خضعت للعرب ، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها . وكذلك كانت الرومان بعد أن أخضعوا اليونان ، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحاً سياسياً ، ولكن اليونان فتحوا روما فتحاً أدبياً ، كما قال الشاعر الروماني هوراس .

انتصرت الحضارة ، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف

(١) نشرت بالسياسة في يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ١٠ يناير ١٩٢٣ .

طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وكان هذا الانتصار عاماً ، تناول الحياة المادية والعقلية ، وتناول معهما حياة الشعور . ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ، وعاشوا كذلك في دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آباؤهم ، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور ، وهو الأدب ، نثراً كان أو شعراً .

وقد أشرنا في الفصل الماضي إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار ، أنكر العقل العربي فيه قديمه ، ولم يشتد اطمئنانه إلى الجديد ، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في الحياة ، وإنما عاش من يوم إلى يوم ، فاحتمل الآلام كارهاً ، واستمتع باللذات راغباً فيها ، مستزيداً منها ، وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة ، وكانت هذه اللذات ميسرة له ، موفورة عليه ، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، ولم تكن هذه المرأة عربية ، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية ، ولم يكن الوصول إليها عسيراً ، وإنما كان شيئاً سهلاً ميسوراً ، فقد كانت المرأة تباع وتشترى ، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء .

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية ، وإنما كانت أعجمية متحضرة ، قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة ، فرقاً طبعها وصفا مزاجها ، وافتنت في تلطيف الحياة وترفيها ، وفي اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة ، وإنما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعليماً متقناً ، فقد وجدت في ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم أحسن تعليم ، ويدرب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة ، محتفظة بكرامتها الشخصية ، حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وإنما كانت مبتذلة متهنة ، تباع وتشترى ، كما يباع المتاع ويشترى .

وكان العرب مندفعين في هذا النوع من اللذة ، يستمتعون به في غير قصد ولا احتياط ، وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى ،

لذات الطعام ، ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ، ولذات اللباس ؛ ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرعون ويفهمون ، ويتأثرون في حياتهم العملية بما يقرعون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة ، أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها ، وتنفر منها ، وتملأ قلوب الناس لها بغضا ، وعليها سخطاً ، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم ، على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووُجد هؤلاء الشعراء والكتّاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ، ويحتفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حيناً ويُسرّونه حيناً آخر ، يأمنون معه دهرًا ، ويلقون في سبيله الموت من وقت إلى وقت . ووُجد « مطيع بن إبّاس » الذي كان لا يبالي أكان عفيفاً أم غير عفيف ، ولا يبالي أكان حرّاً كريماً نقيّ العرض ، أم ممتهناً مبتدلاً مردول السيرة ، ووُجد « حماد عجرد » الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا ، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها ، وينوعها ما استطاع إلى تنويعها سبيلا ، والذي أسرف في الحجون والتهتك ، حتى لأمه أبو حنيفة وشهرّ به ، فلم يجد حماد ردّاً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التي يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك ، وأنه كثيراً ما شاركه في الإثم والمعصية :

إِنْ كَانَ نُسُكَكَ لَا يَتِيْمٌ بِغَيْرِ شَتِيٍّ وَأَنْتِقَاصِي
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِي حَيْثُ شِئْتِ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَّالِمَا زَكَيْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ نَأْخُذُهَا وَنُعْطِي فِي أَبَارِيْقِ الرَّصَاصِ

ووُجد رفيقهما « يحيى بن زياد » الذي كان يقاسمهما حظهما من كل إثم في القول والعمل ، ثم أدركه الكبير ، فتاب وأناب . وظهر « بشار » الذي كان يؤثر النار على الطين ، أي كان يميل إلى دين الفرس القديم ، ويزدري الإسلام ، والذي مهر في وصف الفسق والحجون ، حتى حبسه المهدي ، وحتى شكاه منه ، إلى الخليفة ، أشرف الناس ، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووُجد

« والبة بن الحُبَابِ الأَسَدِي » الذي عرضت منادمته على الرشيد ، فأبى وأشفق ، وأعلن إباءه وإشفاقه في ألفاظ لا تسمح بنشرها القوازين ولا الأخلاق ، ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة ، أعلن فيه بغيه وفجوره ، إعلاناً خاف الرشيد عاقبته على نفسه ، فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحاً من غير شك ، ولكنه كان يجلسه عن مثل هذا الشاعر ، الذي لا يستر فسقه . وكان أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي ، بل قل : إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها .

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجنوناً ، وأكثر منها فجوراً ، وأقل منها حرصاً على الاستتار ؛ وكان « أبو نواس » من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه « الرقاشي » « والعباس ابن الأحنف » و« مسلم بن الوليد » و« الحسين الخليج » وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية ، ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقعة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تركهم ، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقاً ولا ديناً ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب بالخليفة ، فاستروا حيناً ، أو اضطروا إلى السجن ، حتى ينالهم الغفو ، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى . ومن هذا قصة متحولة — فيما أعتقد — ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة في الخلفاء .

روى عن أبي نواس أنه قال : لما حبسني الأمين رأيت بشاراً في المنام ، فقال لي : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ (يعني الأمين) ، قلت : بقولي :

أَلَا فَسَقْتَنِي خَمْرًا وَقَلَّ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمِكْنَ الْجَهْرُ

فقال : أو يحظر عليك شيئاً وهو يجاهر به ؟ هلا بدأ بنفسه ، لعن الله من

نقل إليهم الملك ؛ فقلت : فماذا حبسك جده المهدي ؟ قال بقولي :

قَاسِ الْهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجْحًا وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبْحًا

عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مِيَا سَرَةٍ وَالصَّعْبُ يَسْلُسُ بَعْدَ مَا جَمَعَ

قلت : فيم أفرج عنك ؟ قال بقولي :

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
وَمُخَضَّبٍ رَخِصِ الْبِنَا نِ بَكِيٍّ عَلَيَّ وَمَا بَكَيْتُهُ
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوَمِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبُّ سَرِيرَتِي مَا إِنْ صَبَوْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَعْرَضْتُ عَنْكَ وَرَبُّمَا عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا أَتَقَيْتُهُ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبِي وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبِيتُهُ
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَا مٌ عَنِ النَّسَاءِ فَمَا عَصَيْتُهُ
لَا بَلٌ وَفَيْتُ وَلَمْ أَضِيعْ عَهْدًا وَلَا رَأْيَا رَأَيْتُهُ

وبقولي أيضاً :

وَاللَّهِ لَوْلَا رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا احْتَمَلْتُ ضِيًّا عَلَيَّ فِي شَجَبِي
قَدَعِشْتُ بَيْنَ الرَّيْحَانِ وَالرَّاحِ وَالْمِزْ هَرٍ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ حَسَنٍ
ثُمَّ نَهَانِي الْمُهْدِيَّ فَانصَرَفْتُ نَفْسِي صَنِيعَ الْمُؤَفَّقِ الْأَمِينِ
فانتبهت وقد حفظت الأبيات ، وبشار أمامي فقلت :

أَعَادِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجْرُهَا فَأَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
وقلت أيضاً :

أَطْعِ الْخَلِيفَةَ وَأَعْصِ ذَا عَرَفٍ وَتَنَحَّ عَنْ طَرْبٍ وَعَنْ قَصْفٍ

فصارت هذه الأبيات لإحدى منجياتي ، وكان الشيخ بشار سببها .
ولا تنس أن الأمين الذي حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس
به كلفاً . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين ، وكان
أبو نواس صديقاً للكسائي ، فقال له أبو نواس يوماً : أحب أن أقبل الأمين ،

فجزع الكسائي لذلك ، وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف
بالإلحاح ، بل أذدر وصنع هذين البيتين ، وأظهر أنه سيرفعهما إلى
الرشيد ، وهما :

قُلْ لِلْإِمَامِ جَزَاهُ اللَّهُ صَالِحَةً لَا يَجْمَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ السَّخْلِ وَالذَّبِّ
السَّخْلُ غِرٌّ وَهُمْ الذَّبِّ غَفْلَةٌ وَالذَّبُّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

فاشدد جزع الكسائي ، واحتال لأبي نواس ، فقال له : أطل الغيبة ، ثم أقبل
كأنك قادم من سفر ، فأعانتك ، ويعانقك الأمين فتقبله ! ففعل أبو نواس ،
ثم خرج ، فقال في ذلك شعراً .

فهذا القليل الذي رويته لك ، والذي ليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى
ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة ، يبين لك إلى أي حد وصل
هؤلاء الناس في هذا العصر من المحون والتهتك والاندفاع في الحرية ، والاستمتاع
باللذة ، ولا يزجرهم عن ذلك حياء ولا دين .

خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وريح الأدب ، فلم يعرف العرب
عصراً كثر فيه المحون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا
العصر . . . ثم كان من كثرة المحون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق
في ذلك العصر والعصور التي تلته ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن
معروفاً في الجاهلية ، ولا في صدر الإسلام ، ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر
من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما
خالطت العرب ، أو عند ما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم في
بغداد ، وهذا الفن الجديد هو « الغزل بالغلمان » الذي سنحدثك عن خصائصه
في غير هذا الزمحل .

وإنما الذي يعيننا الآن أن نلاحظه ، أن هؤلاء الناس ، الذين وصفنا
لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء ، وعبث بكل شيء ، وإسراف في
المجون واللهو ، كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ،
وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة ، فيها اللهو ، وفيها الترف ، كانوا لا يجتمعون
إلا على لذة ، إلا على كأس تدار ، أو لثم يقترف ، وكانت اللذة والآثام حليتهم

إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإمام الطريقات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديار ، وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة . فيلذون ويتحدثون .

فأنت تستطيع أن تتكهن بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة : ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً ، فتمثل عقولهم وشعورهم ، وقوة حرصهم على اللذات ، وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل ، ولكننا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها ، فلنتنظر اليوم ، لنستمع إليهم في الأسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندية
الأدبية - الألفاظ والمعاني .

انتهى بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الأندية الأدبية ، التي كان لها أيام بني العباس أثر في الأدب لا يمحي ، ويد على الشعر لن يناها النسيان . لم تكن هذه الأندية تجتمع في أماكن معينة ، أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع ، كانت تنتقل بأدبها وعلمها ، ويجدها وهزها بين مدن العراق المختلفة ، وبين ما كان في هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الخانات وبيوت الإثم ، وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة ، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم في الأحاديث الماضية ، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء ، والعبث بكل شيء ، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبت ولا تتعاطى المحجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين ، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة ، فكانت أحاديثهم في هذه المجالس متأثرة بجده هؤلاء العلماء ، وبمهارة الأمراء والوزراء ؛ فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله ، وقلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه إذا خلوا إلى أنفسهم من الفحش الذي لا حد له ، والمحجون الذي لا يعدله مجون . كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب ، وفي اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف ، وحسن الوفاء للتاريخ يضطررنا إلى أن

(١) نشرت بالسياسة في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ١٧ يناير سنة ١٩٢٣ .

نعترف بأن الشك والحجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكّون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين ، يؤثرون الجلد ويغنون فيه .

ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة ، تحكم بها عليه حكماً صادقاً ، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب ، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ؛ لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً ، ويعبرون عن أهوائها وميولها ، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة ، أفئظن أن شاعراً كأبي نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس في بغداد ، وغيرها من مدن العراق ، بل في الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر ، فيحفظون شعره ويتناشدونه ، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل يروون عنه الروايات ، ويتحلونه القصص ، ويتحدثون عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفئظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة ، فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ، ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء ، وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجم صادقين ، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر ، وما يضطرب في نفوسها من عواطف ، في حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يلتقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد ، ولا يمثلون إلا العلم الذي يعنون به ، ويعكفون عليه .

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ، ونحتاط بعض الاحتياط ، حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى ؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً ، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحبون الحياة ويتذوقون

لذاتها ، ويظهرون للناس برا وديناً من ورائهما شيء كثير !

ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « يحيى بن أكثم » الذى كان قاضى المأمون ونديمه ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « أبى عبيدة معمر بن المثنى » ، وما كان بينه وبين الشعراء ، بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء . ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو ويسكر وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا نقية ، وخصالا طاهرة ، ربما صححت كلها ، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر .

كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامّة والجمهور ، وهو مظهر الجلد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون ، الذى يخلع فيه العذار ، وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة .

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلنون الحجون أصدق لهجة وأصح تمثيلاً للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وليس هذا مقصوداً على العرب ، ولا على العباسيين ، ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوروبيون ، وعرفته أثينا وروما وباريس ، وما لنا نطيل فى هذا ! ويكفى أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس ولويس الرابع عشر ، لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون .

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلاً صحيحاً ، فلنا أن نتخذهم مقياساً للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث الشك والحجون وحدهما ، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث أيضاً شيئاً آخر ، وغيّر الشعر من ناحية أخرى : أحدث سهولة فى التعبير عما فى النفس ؛ لأنه أطلق للعواطف والأهواء حريتها ، فانطلقت الألسنة بوصف

هذه العواطف والأهواء . ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة ، وضعف رقيب السلطان السياسى أيضاً ، ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ، تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركهم السياسة أحراراً ، واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون ، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون فى المزل ، كانت السياسة تقوى سلطانها ، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية . أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ، ونشأ من حرية العواطف تنافس فى اللذة ، واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس فى اللذة العملية ، تنافس فى وصفها ، واستباق إلى إجادة هذا الوصف ، وكان هؤلاء الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه فى الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه فى وصف الشرب وغير الشرب ، ومن هنا كثر الافتنان فى اللذات ، وكثر معه الافتنان فى القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التى أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب ، أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيد بالقديم ، وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفى من الشرطة ، فإله لا يصف الخمر كما يجب دون أن يخشى سطوة الأصمعى أو أبى عبيدة !

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل فى هذا العصر منه فى العصور الأخرى ، وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثانى من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوقفون إلى القول البديع ، والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يسقطون إلى صنيف اللفظ ومتكلفه ، وإلى ردى المعنى وفاتره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون فى هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى .

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء ، وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث ،

حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها : أين نحن العشيّة ؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً ، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاماً ، فقال داود بن رزين الواسطي :

قَوْمُوا لِمَنْزِلِ لَهْوٍ وَظِلِّ بَيْتِ كَنْينِ
فِيهِ مِنَ الْوَرْدِ وَالنَّزْرِ حِسِ وَالْيَاسَمِينِ
وَرِيحِ مِسْكِ ذِكْيِ وَقَائِحِ الْمَرْزُجُونِ
وَقَنِيَةِ ذَاتِ غُنْجِ وَذَاتِ عَقْلِ رَصِينِ
تَشَدُّوا بِكُلِّ طَرِيفٍ مِنْ مُحْكَمِ «ابْنِ رَزِينِ»

وقال أبو نواس :

لَا ، بَلْ إِلَى تِقَاتِي قَوْمُوا بِنَا إِحْيَاتِي
قَوْمُوا نَلَدَّ جَمِيعاً بِقَوْلِ هَاكَ وَهَاتِ
.
.
فَنَاوِرُوهُ مُجُوناً فِي وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ

وقال الخليل :

إِلَى «الْخَلِيلِ» قَوْمُوا إِلَى شَرَابِ الْخَلِيلِ
إِلَى شَرَابِ لَذِيذِ وَأَكْلِ جَدْيِ رَضِيعِ
وَنَيْلِ أَحْوَى رَحِيمِ بِالْخَنْدَرِيسِ صَرِيعِ
فِي رَوْضَةِ جَادَهَا صَوْ بَ غَادِيَاتِ الرَّبِيعِ
قَوْمُوا تَنَالُوا وَشَيْكَا مَنَالَ كُلِّ رَفِيعِ

وقال الرقاشي :

لِلَّهِ دَرُّ عُقَارٍ حَلَّتْ بَيْتِ «الرَّقَاشِي»
 عَذْرَاءَ ذَاتِ أَحْمِرَارٍ إِنِّي بِهَا لَا أَحَاشِي
 قَوْمُوا نَدَامَايَ رَوْوَا مُشَاشِكُمْ وَمُشَاشِي
 وَنَاطِحُونِي بِكَأْسٍ نِطَاحِ سُودِ الْكِبَاشِ
 فَإِنْ نَكَلْتُ فَجِلٌّ لَكُمْ دَمِي وَمُشَاشِي

وقال عمرو الوراق :

عُوجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرِ» إِلَى سَمَاعٍ وَخَمْرِ
 وَنَاشِجَاتِ عَلَيْنَا تَطَاعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ
 فَهَآكَ أَحَلِّي وَأَشْهِي مِنْ صَيْدِ بَازٍ وَصَقْرِ
 هَذَا، وَلاَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ أُولَى وَلَا وَقْتُ عَضْرِ

وقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنَانُ عَلَيْنَا بَانَ نَزُورِ «حُسَيْنَا»
 وَأَنْ نَقَرَ لَدَيْهِ بِاللَّهُوِ وَالْقَصْفِ عَيْنَا
 فَمَا رَأَيْنَا كَطَرْفِ «الْحُسَيْنِ» فِيمَا رَأَيْنَا
 قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ زَيْنًا مِنْهُ وَبَاعَدَ شَيْنَا

وقالت عنان :

مَهَلًا أَفْدِيكَ مَهَلًا «عِنَانُ» أَحْرَى وَأَوْلَى
 بَانَ تَنَالِ لَدَيْهَا أَشْهَى النَّعِيمِ وَأَحْلَى
 فَإِنَّ عِنْدِي حَرَامًا مِنْ الشَّرَابِ وَحِلًّا
 لَا تَطْمَعُوا فِي سَوَائِي مِنَ الْبَرِيَّةِ كَلًّا
 يَا إِخْوَتِي خَبَرُونِي أَجَارَ حُكْمِي أُمَّ لَا

ومضى كل واحد يقول كلاماً كهذا، فيه ترغيب ، وفيه حث على اللذة ، وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه في لفظ سهل رشيق غير متكلف ، بل غير معنى به ، حتى يسقط في الخطأ اللفظي ، أو في الضرورة ، فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا ، فلم يسبق أحد صاحبه ، فاقترح ألا يذهبوا إلى بيت أحد ، بل إلى حانة ، فقال :

أَلَا قَوْمُوا إِلَى الْكَرَّخِ إِلَى مَنْزِلِ خَمَارِ
إِلَى صَهْبَاءِ كَالْمِسْكِ إِلَى جُـوْنَةِ عَطَّارِ
وَبُسْتَانِ بِهِ تَحُلُّ لَهُ زَهْرٌ بِأَشْجَارِ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ لِهَوَاؤِ أَتَيْنَاكُمْ بِمِزْمَارِ

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر في حياته المعنوية والمادية ، بل في تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور والشعور ! عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث عنها صاحبها ، ولم يطل البحث ، وإنما وجدها في نفسه ، فأظهرها في لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز في حياته الأدبية بخلال أربع : الشك ، والحجون وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .
وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس ، الذي ستخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون (١)

أبو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء ، وألحوا في الإنكار ، وكتبوا في الصحف يعلنون إنكارهم ، ويطلبون إلينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ، ونعدل به عن الشر إلى الخير ، وعن الهزل إلى الجلد ، وزعموا أن ما نرويهِ في هذا الحديث من شك الشعراء حيناً ، ومجربهم حيناً آخر ، مفسد لأخلاق الشباب ، مدينس لقلوبهم الطاهرة ، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه ، فزعموا أنا متكلفون مخطئون ، حين نصف القرن الثاني للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون ، وأن الناس كانوا فيه أحراراً ، لا يكادون يأخذون أنفسهم في اللهو بخلق أو دين ، زعموا أننا مخطئون ، وأنا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن ، فجعلناهم مقياساً للعصر الذي عاشوا فيه ، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجلد وأصحاب الحديث ، قالوا وليس هذا من الإنصاف في شيء .

كتبوا هذا كله ، وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه ، ونشكره لكاتبه ، ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنيننا عن الرد على هؤلاء الكاتبين ، من بعض الوجوه ، فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد له تمثيلاً ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية ، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة ، لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة في سره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم .

فلسنا إذن في حاجة إلى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وإنما نلفت سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته ، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقاً

(١) نشرت بالسياسة في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ - ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ .

على هذا الشباب ، أن يسوء خلقه ، أو يفسد قلبه ، ولكننا لسنا نرى رأيهم في هذا التخرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتاً من الشعر ، ليس حظه من الحون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظاً ، وأنزله من الفجور نصيباً ، ولسنا نرؤى لك ما يسمع وما لا يسمع ، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال ، وإنما ننظر في هذا كله إلى الذوق والمنفعة جميعاً ، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم ، وفي ملاحظهم وملاحظهم !

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد ، الذي نخشاه على أخلاق الشبان ، لكننا أسرع الناس إلى إجماله ، ولتحدثنا إلى قرائنا في الزهد والتقوى ، وفي الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البريء ، الذي ننشره كل أسبوع . وهل يجب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس والرشيد والأمين ؟ أم هل يجبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جلد ، حين كان حظ هذا العصر من الهزل عظيماً ؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتخرجون ويعتصمون بالدين ، يضيقون على الناس ما وسع الدين ، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا .

ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين ، كان أشد منهم بالله إيماناً ، وأكثر منهم لله طاعة ، وكان في الوقت نفسه أرحب منهم صدرًا ، وأشد احتمالًا ، فكان يسمع للجد ، وكان يسمع للهزل ، بل كان يجده وكان يهزل وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس في المسجد الحرام ، وقد سئل عن الشعر « أيتقض الوضوء » ؟ وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشده عبد الله بن الزبير حين لقي الفرزدق بالمسجد الحرام أيضاً ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت زوجها ، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس

بيتاً قاله حسان ، يهجو به هنداً زوج أبي سفيان ، فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به ، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : « قل وروح القدس معك .

نعم ! تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن ، لأن العصر قد تبدل ، وقد تطورت نظم الحياة ، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجنى على الأخلاق ، أو نعرضها للخطر ، ونحن نستأذن السادة في أن نرغب في ألا تكون حياتنا خلاً ، وإنما نريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة ، ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيهاً من فقهاء هذا العصر الأول :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ ذَا الْعِلْمِ مَا الَّذِي يَحِلُّ مِنَ التَّقْيِيلِ فِي رَمَضَانَ ؟
فَقَالَ لِي الْمَكِّيُّ : أُمًّا لِزَوْجَةٍ فَسَبِّعْ ، وَأُمًّا خَلَةً فَمَانَ !

وقال شاعر آخر في مثل هذا المعنى :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَعَانُقٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَاكِ الْفُوَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقِيُّ تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بَيْنَ جِرَاحُ ؟

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به ، ويرتاحون له ،

وكان سفيان الثوري يقول ؛ إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَائِمْ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِي فَيُذْرِي الدَّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِمَنْزَابِ

• • •

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس ، وأنا أريد أن أحدثك عن أبي نواس ، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ، ومات سنة ١٩٩ هـ ؛ فأنت تعلم ذلك ، وتستطيع أن تجده في أي كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الأولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب ، وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبي نواس ؛ ففيه شيء من الإثم كثير ، قد يغضب ساداتنا المتحرجين ، وهو في الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام .

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك في هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته ؛ فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ، ولكنني قلت : إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذي عاش فيه ، وإن العصر كان يمتاز بالشك والحجون وإيثار اللذة ، وقلت في حديث آخر ، إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعدة ، هي أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا ، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ، ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة والتوبة .

قلت هذا كله ، وأريد في هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جدا ، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجئا ، مجاهرا بالحجون ، مستمتعا باللذة ، لا يخشى في ذلك سخط الأمراء ، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء واحد ، هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعا ، فلما مرض وعلم أنه ميت ، أنفق مرضه يتوب وينيب ، ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة في المنام أن الله قد غفر له ، وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد في حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه ، وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر إلى الذين روى عنهم أبو نواس ، وانظر إلى الذين رووا عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم — فيما ذكر ابن عساكر — فهم : حماد بن حماد ، وحماد ابن يزيد ، وعبد الواحد بن زياد ، ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر ابن سعد السمان ، وأما الذين رووا عنه فهم — فيما ذكر ابن عساكر أيضا — محمد بن إبراهيم ، وابن كثير الصيرفي ، وعبيد الله بن محمد العبسي ، ومحمد ابن جعفر غندر ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريني ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، ويعقوب بن زيد الفارسي ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وجماعة سواهم .

فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، فارجع إلى طبقات

الفقهاء والمحدثين ، وستتق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما ، وإنما كان رجلا يقدره أهل عصره ، ويكبرونه في كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل اللغة يقولون : إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون : إنه أرق الناس أدباً وأحسنهم شعراً ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه ، وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يتحدثوا عنه ، وأن يتحدثوا عنه ، ولو رويننا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا في الإطالة .

ولكننا ننتقل من هذا إلى ذكر شيء من دعاية أبي نواس ومجونه ، مع الفقهاء والمحدثين والخلفاء .

تحدث ابن عاتشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ، ومعنا أبو نواس ، فقال : ليسأل كل واحد منكم . ثم قال : سل يا فتى ؛ فأنشأ أبو نواس يقول :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ
عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
قَالَ : مَنْ مَاتَ مُحِبًّا فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد ، فقال اعزب عني يا خبيث ! والله لاحدثك بشيء وأنا أعرفك ، فقام أبو نواس ، وقال : والله لا أتيت مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث !

وتحدث محمد بن جعفر قال : لقي شيبه أبا نواس ، فقال له : يا حسن ، حدثنا عن ظرفك فقال :

حَدَّثْنَا أَخْفَفُ عَنْ وَائِلٍ
عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ
قَالُوا جَمِيعًا : أَيُّمَا طِفْلَةٍ
فَوَاصَلْتَهُ نُمَّ دَامَتْ لَهُ
وَخَالِدُ الْحِذَاءِ عَنْ جَابِرِ
يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرِ
عَلَّقَهَا ذُو خُلُقٍ طَاهِرِ
عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الذَّاكِرِ

كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةً تَرْتَعُ فِي مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ
وَأَيُّ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقًا بَعْدَ وَصَالٍ دَائِمٍ نَاضِرِ
فَفِي عَذَابِ اللَّهِ بُعْدًا لَهُ نَعْمَ وَسُحْقٍ دَائِمٍ دَاخِرِ

فقال له شيبه : إنك لجميل الأخلاق !

فا رأى سادتنا المتخرجين ؟ ؟ .

وتحدثت سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي - وكان
واعظاً - يبكي بكاء شديداً ، فقلت : إني لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا
البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لَمْ أَبْكِ فِي مَجْلِسِ مَنْصُورٍ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
وَلَا مِنْ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ وَلَا مِنَ النَّفْخَةِ فِي الصَّوْرِ
لَكِنْ بُكَائِي لُبْكَاشَادِنٍ تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْدُورِ

ثم قال : أما ترى الأمر الذي عن يمين أهلك ! إنما بكيت رحمة
لبكائه !

وتحدث ابن الزيات ، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدهمسم ،
قال : كان أبو نواس يزورني في الكوفة ، فيأتي بيت خمار بالحيرة ، يقال له جابر ،
وكان نظيف الثوب ، يعتق الشراب ، فيكون عنده ما يأتي عليه سنون ،
قال فرأى في يده يوماً شيئاً عجيباً ، في نهاية الحسن ، وطيب الرائحة ، فقال لي :
يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهم في صدر . قال : وكان معجباً بضرب
الطنبور ، فكان إذا جاعني جمعت له ضرباً الطنابير ، ومعدنهم الكوفة ،
فكان يسكر في الليلة سكرات ، قال : فجاعني مرة من داره ، فقال : قد
حدث أمر ، قلت ما هو ؟ قال : نهاني أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ،
وأنشدني :

أَيُّهَا الرَّاحِمَانِ بِاللَّوْمِ لَوْمًا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا سَمِيًّا

القصيدة . . .

فقلت ماتريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها ،
فأتيناه بنبيذ ، وجلسنا في منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول ،
وأذكر قوله لى :

خَفِيتَ عَلَيَّ مَحَاسِنُ الْخَمْرِ أَمْ غَيَّرَتْكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
فَصَرَفَتْ وَجْهَكَ عَنِ مَعْتَقَةٍ تَفْتَرُ عَنْ خُلُقِي مِنَ الْبَشْرِ
وَأَنْسَيْتَ قَوْلَكَ حِينَ تَمَزُّجِهَا فَتُرِيكَ مِثْلَ كَوَاكِبِ النَّسْرِ
لَا تَحْسِبَنَّ عُقَارَ خَائِبَةٍ وَالْهَمَّ يَجْتَمِعَانِ فِي صَدْرِ

فأخذ يسبّ الأمين في كلام لا نرويه . وشرب الخمر ، ثم شخص إلى
محمد ؛ فقال له : أين كنت ؟ قال : عند صديقي الكوفي ، وحدثه الحديث ،
قال فقال لى : ما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال : شربتها يا أمير المؤمنين ،
قال : أحسنت وأجملت ! ثم قال : اشخص حتى تحمل إلى صديقك هذا ،
قال : فشخص فحملني إليه فلم أزل مع محمد حتى قتل .
ولكننا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ، ونخشى أن نكون قد أثقلنا على
المتحرجين ، فلنرو لهم شعراً لأبي نواس ملؤه البر والتقوى ، وفيه الزهد
والموعظة .

نقل عن عبدوس رواية أبي نواس أنه قال : دخلت على أبي نواس
الحسن بن هانيء ، في علته التي مات فيها ، فقلت له : كيف تجلدك يا أبا
نواس ؟ فقال أجدني قاتلا :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَدَّ قَ مِنْ ضَعِيفٍ مَهِينٍ
يَسُوقُهُ مِنْ قَرَارٍ إِلَى قَرَارٍ مَكِينٍ
يَحُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا فِي الْحُجْبِ دُونَ الْعِيُونِ
حَتَّى اسْتَوَتْ حَرَكَاتٌ مَخْلُوقَةٌ مِنْ سُكُونِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان من غد دخلت عليه ،
فقلت له : كيف تجلدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلا :

وَعَظَمْتَ أَجْدَاثُ صُمْتُ وَنَعْتِكَ أَرْمِنَةٌ خُفْتُ
وَتَكَلَّمْتُ عَنْ أَوْجِهِ تَبَلَى وَعَنْ صُورٍ سُبْتُ
وَأَرْتِكَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ
وَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشَّمَاتُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمْتُ

ثم أطرق فتركته ، فلما كان في اليوم الثالث دخلت عليه ، فقلت له :
كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلا :

يَا نَوَاسِيُ تَفَكَّرْ وَتَعَزَّزْ وَتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ وَبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْ وَاللَّهُ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
أَكْثَرُ الْعِصْيَانِ فِي أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرُ

فلما كان في اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجددك يا أبا
نواس ؟ قال أجدني قائلا :

كُنْ مَعَ اللَّهِ يَكُنْ لَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ لَعَلَّكَ
لَا تَكُنْ إِلَّا مُعِدًّا لِلْمَنَآيَا فَكَأَنَّكَ
إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَمَهُمَا وَأَقِمْ دُونَكَ أَوْ بِكَ
فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ وَبِتَقْوَاهُ تَمَسَّكَ
نَحْنُ نُمْسِي بَيْنَ أَسْبَابِ سُكُونٍ وَتَحْرُكِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الخامس دخلت
عليه فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلا :

يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْسِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ
مَنْتَكَ نَفْسُكَ ضَلَّةً فَأَبْحَثَهَا طُرُقَ الْحِمَامِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُرَاصِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ

وَنَسِيتَ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ
قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم السادس دخلت
عليه فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلا :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعَلُومًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوًا
لَيْسَ تَأْتِي مِنِّي سَاعَةٌ بِي إِلَّا تَقْتَضِينِي بِمَرَّهَا بِي جُزْؤًا
ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوًا
قَدْ أَسَانَا كُلَّ الإِسَاءَةِ يَا رَبِّ فَصَفَحْنَا عَنَّا إِلَهِي وَعَفَوْنَا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت له :
كيف تجددك يا أبا نواس : قال أجدني قائلا :

إِنِّي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ صَفَدٍ وَحَوَيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمِنْ لَبَدٍ
هَمٌّ تَصَرَّفَتِ الْخُطُوبُ بِهَا فَعَدَوْتُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
لَوْ لَمْ تَسْكُنْ لِلَّهِ مَثَمًا لَمْ تُمْسِ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ

ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل ،
فلقيني الغلام في الطريق ومعه رقعة مخنومة ، فسألته عنه ، فقال : أعظم الله
أجرك في أبي نواس ! فقد توفى ، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته ؛
فقرأتها فإذا فيها :

شِعْرٌ حَىٰ أُنَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقِفَا
لَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَأَبْصَرْتَ وَجْهِي لَمْ تَجِدْ مِنْ مِثَالِ رَسْمِي حَرْفًا
نَفْسٌ خَافَتْ وَجِسْمٌ تَحِيلٌ أَرْمَضَتْهُ الأَسْقَامُ حَتَّى تَعَفَّى

فجئت معه إلى منزل أبي نواس ، فإذا به قد مات ، ونظرت فيما خلف ،
فإذا بمقدار ثلثمائة درهم ، وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر :

يَا رَبِّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
أَدْعُوكَ رَبُّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ
 مَالِي إِلَيْكَ وَسَيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا
 فَمَنْ الَّذِي يَرْجُو وَيَخْشَى الْمُجْرِمُ
 وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنَّى مُسْلِمٌ

قال : فوفقت حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت .

• • •

أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك ، ولكن هذه القصة التي رويناها متكلفة من غير شك أيضاً ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت . ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله ، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي ، وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا . فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك ، فلنترك هذا كله ، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون (١)

أبو نواس - النقد في عصره - نقد
الفقهاء - نقد الأدباء - أشعر الشعراء .

زعمت لك في الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالا لعصره ، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله ، ويقدمونه على شعراء عصره جميعاً إلا بشار بن بُرْد ، وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم ، وأن أستوفي هذا الموضوع حقته من البحث ، ويخيل لي أن بحثاً كهذا - على ما فيه من الرواية والنقد - لن يخلو من فائدة ، وإن خلا من لذة ، أو بعبارة أصح ، وإن لم يحدث في نفسك هذه اللذة التي يحدثها الشعر الماجن الظريف .

لن يخلو هذا البحث من فائدة ؛ لأنه سيظهرك على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى في هذا الشاعر ، الذي اخترت شعره موضوعاً لهذه الأحاديث ، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعاً في نقد الشعر ، وفي فهمه ، وفي تصوره والحكم عليه .

وليس هذا بالثمن القليل ، ولقد أضطرر لي أن أستأذن رجال الأدب القديم ، من المعاصرين ، في أن أكون جريئاً وحرّاً في هذا البحث ، وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ، ولا تسوءهم هذه الحرية ، وأؤكد لهم أني لم أعمد إليهما عمداً ، وإنما اضطررت إليهما اضطراراً ، اضطررت إليهما بحثاً أعتقد أنه صحيح ، وصدق في التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين .

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب ، وشيوخه المعاصرين في أن أكون حرّاً ، وفي أن أكون جريئاً ، وفي أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة ، لم يكن لهم في النقد مذهب معروف ، أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل : لأنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب

(١) نشرت بالسياسة في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ - ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ .

لا ترضينا ، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى في النقد خاصة ،
وفي الأدب عامة .

ولست أدري أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء
العصر العباسي أم لا . ولست أدري أكانت تظل حال النقد على ما كانت
عليه أيام الجاحظ والمبرد ، لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ، ولم تغلب
أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي . ولكنني أستطيع أن أقول
إن هذه المذاهب التي نجدتها منبثة في كتب الأدب على اختلافها قبل
أن يصبح البيان علماً ذا قواعد وأصول ، ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو
تقنع أديباً ، وإنما نستطيع أن نقول إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلو من النقد
الصحيح خلواً تاماً .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه
ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء :

الأول : أن تصل إلى شخصية الشاعر ، فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه
ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ،
ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره .

الثاني : أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء ،
وسيلة إلى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التي خضع لها هذا
الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر ، فأنت لا تقصد إلى فهم الشاعر
لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة
التي يعيش فيها .

ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعاً ، فأنت سواء شعرت بذلك
أم لم تشعر به ، لا تقنع بالأشخاص ، وإنما تطمع في الجماعات ،
لاترضى بالجزئي ، وإنما تسمو إلى الكلي ، كما يقول أهل المنطق ، فأبو نواس
وحده لا يعنك ، وإنما يعنك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش ، لا أقول
مع فلان وفلان ، وقل مثل ذلك في شوقي ، وقل مثله في حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وإنما هو شاعر لأن قوله
الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرونه ، يرضيهم ويقنع من
نفوسهم موقع الإعجاب ، ولم يرضك البيت من الشعر إلا لأنه يوافق

هوى في نفسك ، ويلأثم عاطفة من عواطفك ، ويرضى حاجة من حاجاتك إلى الجمال .

إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولاً ، ثم جماعته أو عصره أو بيئته ، أو هذا كله ثانياً ، وهناك شيء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة : اللذة الفنية ، اللذة التي تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة ، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ؛ لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن في هذا شيئاً من التحرج ، أو إن فيه تضيقاً ومحاولة من هذه المحاولات ، التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ، ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هذا ، فلإني لا أتخرج ، ولا أضيق ، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولاً معينة ، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد ، وما يرمى إليه الناقد ، ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم ، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Sainte Beuve) يثبتك بأنه يعني قبل كل شيء إذا قرأ قصيدة من الشعر ، أو فصلاً من النثر ، بأن يجد شخص الشاعر أو الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ، ويصل إلى دقائقه ودخائله ، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعي في معاملهم ، ولكن الشخص وحده لا يكفي ولا يعنيه ؛ وإنما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة إلى النوع ، يتخذ هذا الجزئي وسيلة إلى الكلي .

ثم سل « تين » (Taine) يثبتك بأن شخص الشاعر ، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه ، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي خضع لها ، والأمة التي نجم منها ، فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة .

ثم سل « جول لمتر » (Jules Lemaitre) يثبتك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذي يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر في النفس ، فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والإعجاب .

وفي الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين »

أو « جول متر » أو غيرهم من النقاد ، وإنما يود لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله ، ويستخلص منه غرضاً شاملاً يطلبه ويسمو إليه حين ينقد ، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب ، وعصره ، وفنه .

ولست أريد أن أتعلم في تفصيل هذا كله ، فإن فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وإنما أردت أن انتهى بك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد ، لأنقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبي نواس إلى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جداً ، نطلب نحن كثيراً ، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئاً قليلاً .

• • •

قلت في أول هذا الفصل ، إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة في النقد ، أو إن مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا ، وكلا القولين صحيح ، فإننا لانعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهباً في النقد معروفاً ، أو خطة فيه واضحة .

ومع ذلك فقد نقدوا ، وحكموا على الشعر والنثر ، فاستحسنوهما وازدروهما ، ولم تكن أحكامهم متفكرة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وإنما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافاً كثيراً ، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذي غلب عليه مقياساً لنقده ، وميزاناً لرأيه ، في جودة الأثر الأدبي أو رداءته .

فالجيد عند أبي عبيدة ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي : ما اشتمل على الألفاظ الجزلة المتينة ، والأساليب الفخمة الرصينة ، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضرة .

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو ، وعنوا بالمعاني عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، وربما تفوقها : ما اشتمل على المعنى الطريف في اللفظ المستعذب ، الذي لم يعم في الغرابة ، ولم يسفل إلى لغة السوق .

والجيد عند الفقهاء والمحدثين : ما لاءم أصلاً من أصول الدين ، أو غرضاً من أغراضه ، أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريراً على الفرزدق . ولما كَلَّم بشار في ذلك قال : ليس ذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشاعر من يضطر إلى أن يقول مثله إلخ . . . وروى مثل هذا في أمر أبي نواس ومسلم ، فقد كان الأدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلماً . وسئل البحرى عن ذلك ففضل أبا نواس ، فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاماً كالذي قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هذا المعنى تمثيلاً حسناً ما كان بين المأمون وابن الأعرابي . فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوي عن أجود ما قيل في الخمر ، فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ

فلم يحتفل المأمون بشيء من ذلك ، بل آثر قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرِّ فِي السَّقَمِ
فَعَلَّتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصُّبْحِ فِي الظُّلَمِ
فَأَهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

فانظر إلى هذين الذوقين المختلفين ، فأما المأمون فحضرى يؤثر المعنى الجيد في اللفظ السهل ، وأما ابن الأعرابي فحجب للغريب ، مؤثر للفظ الجزل .

وكان أبو عمرو الشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره . وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس ، ولا يكرهون منه إلا هذا الرفث والحجون ؛ ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ .

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجاباً لا حد له ، لا يصرفهم عنه أنه آثر السهل على الغريب ، أو الهزل على الجد ، وربما رغبتهم ذلك في شعره ، وحبب إليهم سيرته .

ولو أنى ذهب أروى لك آراء هؤلاء العلماء ، والأدباء والشعراء في أبي نواس ، لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة ، ولكنك تستطيع أن تصدقني ،

وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين ، لا يستثنون منهم إلا بشار بن برد .

ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين استحسبوا شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وإنما كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة ، فلا يأتي أن يقول إن أبا نواس أشعر الناس ، فانظر إلى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لأنه قال :

يَا قَرَأَ أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ

القصيدة . . .

وانظر إلى الأصمعي يفضل أبا نواس لأنه قال :

أَمَا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الحَمَلَاً وَقَامَ وَرَنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَاً

وانظر إلى ابن الأعرابي ، الذي كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لقوله :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَمِّي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تُسْأَلُ الأَيَّامُ مَا أَسْمِي لَمَا دَرَّتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

وانظر إلى أبي العتاهية والعتابي ، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء جميعاً لقوله :

إِذَا نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعاً لقوله :

النَّاسُ فِي عَفَلَاتِهِمْ وَرَحَا المَنِيةِ تَطْحَنُ

وفضَّل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعاً ، لأنه شبّه ومدح في أربعة أبيات ، فقال :

تَقُولُ غَدَاةَ البَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ لِي السَّكِيدُ الحَرَّى فَسِرْ وَلَكَ الصَّبْرُ
وَقَدْ خَضَبَهَا عَابِرَةٌ فَلِدَمْعِهَا عَلَى خَدَّهَا خَدٌّ وَفِي نَحْرِهَا نَحْرُ

وَقَالَتْ إِلَى الْعَبَّاسِ؟ قُلْتُ فَمَنْ إِذَنْ وَمَالِي مِنَ الْعَبَّاسِ مَعْدَى وَلَا قَصْرُ
فَهَلْ يَسْكَلْفَنُ إِلَّا بِرَاحَتِهِ النَّدَى وَهَلْ يَزْهُونَ إِلَّا بِأَوْصَانِهِ الشَّعْرُ

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس في هذه اللحظة ، كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن تعرف من شعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء ، لكان الناس جميعاً أشعر الناس !

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضاً من أشعر الناس ؟ فيجب المسئول أشعرهم من قال ، ثم يروى بيتاً أعجبه ، ولا يمنع ذلك أن يروى غداً بيتاً آخر لشاعر آخر ، على أن هذا البيت أجمل الشعر ، وعلى أن هذا الشاعر أشعر الناس ، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة ؛ لأن لكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد في نفسها ، ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها ؛ فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا يجيئون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل .

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه ويدينون له بالزعامة ، وليس هذا الاقتناع عندي أثراً من آثار هذه الأحكام التي رويت لك طرفاً منها ، وإنما هو أثر القراءة الطويلة في الكتب الكثيرة ، وأثر الموازنة بين الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا في ذلك محقين ، ولكنهم لم يقولوا ، ولعلمهم لم يعلموا ، لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس ؟ فنن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار ، أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون في البيت أو البيتين أو القصيدة ، وإنما في الديوان كله ، ومن الحق ألا يكون سبيلنا في هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما ، إنما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى ، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضاً ، وهذا هو الذي سنبدأ به في الأسبوع الآتي .

إلى الأستاذ طه حسين^(١)

سيدي الأستاذ !

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية عن أدب القدماء والمحدثين ،
أو « حديث الأربعاء » ، وما يلفت النظر ، ويستدعي التمحيص والحذر في
ذلك الحديث ، حكمكم أن أبا نواس ومن في طبقته أو على شاكلته من الشعراء
كانوا مثالا صادقا للعصر الذي عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك
والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر ، مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء
المجون ، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم ، واستنتجتم منها
ذلك الحكم الذي يحتاج إلى تمحيص كثير .

نعم ! إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة
لأول وهلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها
وقائلها ، وهم معروفون مشهورون في التاريخ ، لكن هذا وحده لا يكفي لمثل
ذلك الاستنتاج ، ولا تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع ، كتاريخ
الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء ، وأرى أن الأستاذ تعجل
في الحكم ، لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من شعره ، كأخبار صحيحة
لا غبار على نسبتها إليه ، وصدورها عنه ، وهذا لا يصح للمؤرخ الممحص
التسليم به ، والسكوت عليه .

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما في تاريخ الإسلام ، تشبه الدر الملقى بين
أشواك ، يحتاج مريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر
في وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً في مذاهب
الشك التي ذهب إليها الأستاذ ، وإنما يكفي أن ننبه بما نقول — وهو العليم —
إلى ما عاناه رواة الحديث ، ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار
وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ - ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ .

انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، كانت تعمل للسياسة باسم الدين ، وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية ، وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، وانتساب إلى صاحب الشرع ، فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس !

نقرأ شيئاً في التاريخ وشيئاً في كتب القصاصين ، عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح ، في عصور المحنة التي مرت على المسلمين ، نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية ، وأخباراً نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس ، هي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت ، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والمملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أبزهم إليها الوضعاء ، ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص ، واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق ، لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى ، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التي ينبغي أن يقال ، إن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والمملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة ، لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعتها ، شأن كل مؤرخ بحاث لا يلتقي الكلام على عواهنه ، ولا يأخذ الحوادث

بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المجونيين ، وهذا إذا صححت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء .

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر ، لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية ، أو سياسية ، أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية ، فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام ، والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ؛ إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم ، تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصلح الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضى أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة . الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه ، بلا علم ينفع ، أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات ، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد ، فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات ، كفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح اليمن ، المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له . وكتاب قصة عنزة العبسي وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكتابتها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك .

ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة ، لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس ، تنافس الرواة

والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك . . . فكان منها الغث والسمين ومنها الملقق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار الحجون والتهتك والانفاس في الشهوات ، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق ، لما فيها من العبث بالأخلاق ، والتجرد عن معنى الأدب ، الذي أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ، ينافي ما ينسب إليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظنني مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والحجون ، ويتخذة دليلاً على حكمه على أهل ذلك العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهمة العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات المملقة . على أنه لو صح شيء منه ، لما كان لنا أن نتخذة دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ؛ لأنه مجنون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم الحجون .

على أنى أعتقد كما قلت إن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبى نواس وبشار ومن في طبقتهما محل للشك ، ولا سيما إذا صح أن شعر أبى نواس لم يجمع في كتاب (ديوان) على حدة في حياته ، وإنما جمعه رواية القصص وأخبار شعراء الحجون ، وتناوله بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد ، ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها ، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذى قدمناه ، وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد في قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التى قال إن أبى نواس أنشدها له قبيل وفاته في أيام متتابعة في التوبة والاستغفار ، تردد الأستاذ في صحتها : وقال إنها قصة متكلفة من غير شك ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته .

فالذى جوز للأستاذ الشك في صحة هذه القصة يجوز الشك في صحة أكثر القصص ، والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء الحجون ، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثلاً صادقاً لذلك العصر ، وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً

للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جدّ لا هزل ،
وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات
من السنين .

ولقد أحسن الأستاذ في مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك في قوله « إنه
لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً ، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة
واللذة » . فإن في قوله هذا دليلاً على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبء
الحمل الذي ألقاه على عاتقه ، وأن يستدرجنا ، ونعم ما فعل ، إلى الشك في
صحة تلك القصص المخزية ، وأنه إنما أوردتها للفكاهة ، ولا سيما بعد أن عزز ذلك
بقوله « إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلاً لا يؤبه له ، وإنما كان
ذا مكانة عالية ، وعالية جداً » ثم سرد عن تاريخ الحافظ بن عساكر أسماء من
رووا عن أبي نواس ، وروى عنهم أبو نواس .

ولا جرم أن المجاهرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ،
نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس
وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة ،
وأنه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر ،
وفوق كل ذي علم عليم .

رفيق العظم

رد على نقد (١)

كيف تفهم التاريخ ؟ - المؤرخون في عصور
المجد - المؤرخون في عصور الانحطاط .

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذي نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه ، ثم حالت حوائل بيني وبين هذا الرد إلى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ؛ فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصلة فحسب ، وإنما يتناول أيضاً مبدأ عاماً قبل كل شيء .

وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل في هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأيي فيه ، ولست أدري أأطمع في إقناع هذا العالم الجليل أم أياأس منه ؟ لأن الخلاف بينه وبينى جوهرى جداً ، وشديد جداً ، يذهب مذهباً في التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهباً آخر في التاريخ وفهمه ، ويخيل إلى أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق ، يسبقون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى . تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب ورجال خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ، ويرفعونهم عن صفاتها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما هى المكانة

(١) نشرت بالسياسة فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ - ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ .

التي خلعتها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ولست أغض من هؤلاء العلماء ، وإنما أجلبهم وأكرمهم ؛ وحسبك أن إمامهم في هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أني أجل ابن خلدون وأكبره ، ولكني أخالفهم في الرأي ، وأرى أن مذهبهم في التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير ، وأنه سيتغير بدون شك . بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب — مذهب تقديس السلف وتزويجه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ — طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس ، لا بد من أن يمروا به ، وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب ، فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق بك العظم ، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب .

ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها ظروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها ، وتنحط عن مكانتها العالية ، فتخضع لخطوب الدهر حيناً ، وتنام عن العزة والسلطان ، ثم استفاقت من هذا النوم ، وتنبهت بعد الغفلة ، وطمحت إلى أن تسترد الجهد القديم ، وتستأنف سيرها في سبيل العلياء ، فأول شعور تجده في نفسها إنما هو الشعور بهذا الجهد القديم ، والحاجة إلى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثلاً علياً .

فأنت لا تنتظر إلى هؤلاء الناس نظراً علمياً مجرداً بريئاً ، وإنما تنتظر إليهم نظراً متهماً ، ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنك تتأثرهم ، وتحتذى على مثالهم . وإذن فأريك فيهم غير صحيح ، وحكمتك لهم أو عليهم متهم ، وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذي لا حد له ، وبين النقد العلمي الذي

لا يعرف الهوى ، ولا يتأثر بالميل والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب ، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك إلى أن تبرىء موضع إعجابك من كل عيب ، وتدفع عنه كل مكروه ، وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد ، لتوجد فناً من النقد التاريخي له قيمته وخطره .

ولكن الغاية التي يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح ، لأنه يسمو إلى التنزيه والتمجيد ، لا إلى التحقيق الذي لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم ، والذي لا يحفل بحمد أو هجاء .

انظر إلى مقدمة ابن خلدون ، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة ، انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي ، وإلى هذا النقد الذي بسطه ليبين أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من أخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ، ويجب عليك ، أو يحتم عليك ، تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين قيمة في النقد التاريخي ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون ، حتى يتورط في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل ، لأنه متأثر بمجد القدماء ، وصلاح القدماء ، وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين ، وفساد أخلاقهم وأحوالهم .

فهو إذا أراد مثلاً أن يصحح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى لم يعتمد إلى بحث تاريخي ، وإنما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف ، فيه أن الولد للفراس وللعاشر الحجر ، وهو إذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العيب والجنون ، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك ، وإنما تحدث إليك بأن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعيب ، ولا أن يلهو .

ولم يفكر ابن خلدون في أن من حق مؤرخ آخر ، أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين الصلاة وبين العيب ، ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان

يعجب بالرشيد ويكبره ، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها إلى نقد « هيرودوت » « Hérodote » وأتممه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة في العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبي التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ، لأنه أتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالخبث ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب ، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطراً ، من أن يقعوا في مثل هذه الآثام .

وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص ، فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس .

وليس هذا بغريب ، فقد عاش « أبو التاريخ » في أيام مجد اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذي اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب ، وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان ، وانحطاطهم السياسي ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغة في مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا . . . ليس لنا مجد ولا مآثرة ؛ فنحن نتحل مجد الآباء ، والأسلاف زينة لنا وافتخاراً ، ويخيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وحدهم ، وإنما يغض منهم ومنا . أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة ؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور ، نخفي به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم ، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم ، بما يتصف به الناس من نقص ، لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ، ولا يؤذي العرب في أيامهم ، وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتاباً بعينه ، وإنما أقول في أى كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوى المكانة فيهم ، يوصفون بالخير والشر ، وبالرفعة والضعفة ، بما هو مشرف وبما هو مزر ، ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناساً لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه : إن هذه الأخبار مختلفة منتحلة ، وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلف منحول ، ولكنى لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منحول ، وأن كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح .

هذا إسراف ، وإسراف كثير ، وإنما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتمحيص ، ففتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقا ، وما كان منحولا ، وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان « أغسطس » و « نيبوريوس » و « نيرون » كبار الكهنة في روما ، ولكنهم كانوا قياصرة أيضاً ، فكانوا يؤدون للدين حقه ، وكانوا يؤدون للعالم حقه .

ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهراً لقوة المسيح في فرنسا ، ولكنهما كانا في الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين ، وثروة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان ، وكانا يعبثان ، وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها ، وكان هذا الوعظ يوجه إليهما عنيفاً خفيفاً كأنه الصواعق ، فيعجبان ويفزعان من سخط الله ، ثم ينصرفان إلى القصر فما هى إلا أن يتورطا في الموبقات .

ولا تقل كان هذان مسيحيين ، وكان قياصرة الرومان وثنيين ، وكان

خلفاؤنا مسلمين ، فقد تختلف الديانات في جوهرها ، ولكن الأثر الديني في نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف ، فن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون ، كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين ، ولا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان ، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث ، فأنا أؤكد لك أن « أغسطس » لم يكن خاملا ولا عاجزاً ، وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقاً في النوم .

وما رأيك في أن عصر الثورة الفرنسية ، وهو عصر هذا الجلد المفزع الخفيف ، كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجوناً ، وكانت تجرى فيه أنهار الدماء وأنهار الخمر !

وما رأيك في هذا العصر الذي نعيش فيه ؟ وما رأيك في الحرب الكبرى ، وما جرّت على أوروبا من هول ؟ أتظن أن الأوربيين انصرفوا إلى جد هذه الحرب وأخطارها ، عما في الحياة من عبث وطو ؟ كلا ! لقد ازداد سلطان اللهو في أوروبا ، ولقد كان الجندي يقتل ويتعرض لألوان الهول ، حتى إذا ظفر باليوم أو الأيام بعيداً عن ساحة القتال ، اندفع في لذاته وشبهاته اندفاعاً لم يكن يعرفه قبل الحرب . . . ماذا أقول ؟ لقد كانت تحمل إليهم اللذات في ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجنود ، وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجنود فتروعهم ، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت الراحة ، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالجد سواء منهم الغالب والمغلوب .

فلم يكن إذن يمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح يمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات ، ولم يكن العلم ليحول بينهم وبين ذلك ، فما كان حظهم من العلم ، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا ، ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ، ونحاول فهمه وتفسيره ، خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون ، ولكن على أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون ، وهما : أن الناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمتهنهم وأمكنتهنهم ، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

يجب أن نفهم هذين القانونين ، وأن نحسن الملاءمة بينهما ، وأن نعرف فيم يختلف الناس ، وفيم يتشابهون ، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؟ ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا. أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور الحجد والحضارة ، فيه جد وهزل ، وفيه شك ويقين .

وأنا أزعم — وأعتقد أني قادر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثاني للهجرة قد كان عصر لهو ولعب ، وقد كان عصر شك ومجون ، وكل شيء يثبت صحة هذا الرأي ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بدوارة إلى حضارة ، ومن سداجة إلى تعقيد ، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة ، وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأهم مختلفة ، وشعوب متباينة ، منها البدوي والحضري ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغني والفقير .

أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان ، أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي ، وأن تبتى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الأوربيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة ، فانظر إلى أثرها القوى العميق في حياتنا العامة والخاصة ، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوربيين كان من القوة والعمق مثل الاتصال بين العرب والفرس والروم ، لست أدري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت ، المتفقة وإن افرقت .

يجب أن نفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعاً متشابهون مهما تختلف
أزمنتهم وأمكنتهم ، مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم إذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون ، وأزعم
أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأي ، وحسبي أن ألفت الأستاذ
رفيق بك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد ، وختم بخلافة الأمين
ابن الرشيد ، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفين ، ثم ألفت الأستاذ إلى
بشار ، ومطيع ، وأبي نواس ، والرقاشي ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم
ابن الوليد ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ،
وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب
الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون .

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعاً ، وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على
هذه القاعدة وهي أنهم ناس لا ملائكة . ولكنني أخشى ألا يفعل الأستاذ
لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقدم القدماء ، وإنما
أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يجدون ،
ويزحون ، يحسنون ويسئون ، وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما
مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الأسبوع الآتي عن الحمر
عند أبي نواس .

الخمير قبل أبي نواس (١)

الأعشى - عدى بن زيد العبادى -
المنخل اليشكرى - عصر الخلفاء -
عصر الأمويين - الأخطل - الوليد بن يزيد.

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء ، ولا بالفخر ، ولا بالوصف ، ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه ، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محبة إليك وإلى في هذه الفنون نفسها ، كما سرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الخمير ، وبافتنانه في المحجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والعلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ، ولم يسبق إليها ، بل هو لم ينفرد بها في عصره ، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الإسلام ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه إليها كثيرون ، ونافسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين في الخمير والغزل والمحجون .

ولو أننا نعنى في هذه الأحاديث بالتعمق في البحث العلمى ، لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شىء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس ، وأن نجهد في أن نتبين المقدار الذى سبق إليه أبو نواس ، لنعرف ما اخترع وما استحدث ، وليكون حكمنا له أو عليه صحيحاً من كل وجه ، ولكنك تذكر أنا لا نزعماً لهذه الأحاديث صفة البحث العلمى المستقصى ، لأن هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة ، ولا بالأحاديث التى تقرأ ، أو تسمع فى أى مكان وعلى أى حال ، دون أن يختصها القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر فى هذه الصحف من ضروب الكلام .

(١) نشرت بالسياسة فى ١٢ رجب سنة ١٣٤١ - ٢٨ فبراير ١٩٢٣ .

قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر في شعره ، فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلاً ، ومنهم من كان يلم بها إلاماً ، وكانوا يصفون الخمر وأقداحها وآتيها المختلفة ، ولم في ذلك الكلام الجيد الكثير ، لا سيما « الأعشى » الذي أكثر في الخمر وأطال ، واشتهر بأنه من وصفها المجيدين ، واستطاع ابن الأعرابي أن يزعم للمأمون أنه أشعر من وصف الخمر لقوله :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مِنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ

بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئاً ليس بالقليل ، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :

دَعُ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « وداوئي بالتي كانت هي الداء » وبين قول الأعشى :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فليس من شك في أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف ، فإن قوله « دع عنك لومي فإن اللوم إغراء » ليس في شعر الأعشى ، وهو يكفي لأن يحتفظ لأبي نواس بالبيت كله ، وقوله « وداوئي بالتي كانت هي الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ؛ لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ، فعناه ضيق محدود ، في حين قد مدّ أبو نواس هذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح لا حده ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازماً لمن يشربها ، وأصبحت هي دواء لهذا الداء ، فهو يتداوى طول حياته من الخمر بالخمر . أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لا يذكر الداء والدواء إلا إذا شرب ، في حين كان أبو نواس لا ينفك يذكرها ؛ لأنه لا ينفك في داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولكننا لا نعرض له ، لما قدمنا ،
وهناك شاعر آخر جاهلي ، يظهر أنه قد عني بالخمير وأجاد فيها إجادة لا بأس
بها ، وكان مسيحياً عاش قبل الإسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما
كان حاضراً أو كالحاضر ، وكان يعيش في هذا الإقليم الذي عاش فيه أبو نواس ،
وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التي ربما اختلف إليها أبو نواس بعده
بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد في معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان
يجيد في الخمير ، وكان يجيد في الزهد ، والنسك ، وضرب الأمثال ، وإطلاق
الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن
أبو العتاهية ، ويروى له غزل لا بأس به ، وهو « عدى بن زيد العبادي »
الذي عاش في الحيرة في أواخر العصر الجاهلي . لم يرو الرواة له كثيراً في الخمير ،
ولكن ما يروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفي وصفها مجيداً ، وانظر إلى
هذه الأبيات القليلة ، التي يختلف فيها الرواة اختلافاً كثيراً ، والتي كانت
تغنى للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر :

بَكَرَ الْعَادِلُونَ فِي وَضْحِ الصُّبِّ حِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ هِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أُدْرِي إِذْ أَكْتَرُوا الْعَدْلَ فِيهَا أَعْدُوْ يُلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ
مُمْ تَارُوا إِلَى الصُّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
قَدَّمَتْهُ عَلَى عُقَارِ كَمِينِ ۖ دَيْكَ صَفَى سَلَاْفَهَا الرَّأْوُوقُ
مِرَّةً قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا مَرْجَتْ لَدَّ طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَّتْ فَوْقَهَا فَقَاقِعُ كَالدُّ رَّ صِفَارُ يُشِيرُهَا التَّصْفِيقُ

ففي هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة ، دون أن تخلو من رصانة
البداعة ، ولا بأس بهذا البيت الأخير الذي يوصف ما يبدو على الخمر حين
تمزج ، فيذكر على بعد بقول أبي نواس :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا حَصْبَاهُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله :

ثُمَّ تَارُوا إِلَى الصُّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر في الخمر وغير الخمر ، لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق في العصر العباسي ، وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقي ، والبيئة العراقية في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية ، ولكن ما يروى عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه ، وأحسب أن الحظ الموفور منه - ولا سيما الزهد والحكم - قد نحل في العصر الإسلامي وأضيف إلى هذا الشاعر ؛ لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلاً من الزهد ، فأضاف المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيراً ، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور .

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر ، وأجادوا فيها بعض الإجادة ، ولكن وصفهم لم يكن عميقاً ، ولم يصطنع فيه التدقيق ، وإنما كانوا يقنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها ، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفاً مجملاً ، ويصفون طعمها ، ويصفون ما تحدثت من نشوة ، غير مباليين في هذا الوصف ولا مسرفين في البحث عن الدقائق ، بل إنما كانوا يقصدون ، حين يصفون الخمر ، إلى الفخر والتمدح بالحماسن وكرام الخلال ؛ فكثير جداً في ذلك العصر ما يشبه قول عنبرة :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَإِفْرَ لَمْ يُكَلِّمْ
وكثيراً جداً ما يشبه هذه الأبيات التي قالها « المنخل اليشكري » في وجهتها ، وهي الفخر ، لا في معانيها . وهي من أبدع ما يروى عن الشعراء الجاهليين ، ولكن لا تنس أن المنخل اليشكري شاعر من شعراء العراق أيضاً ، كان يعيش في الحيرة ، وينادم النعمان ، ويعاصر النابغة ، وهذه هي الأبيات :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخِدْرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ

الكَاعِبِ الْحَسَنَاءِ تَرَى فُلُوفَ الدَّمَقْسِ فِي الْحَرِيرِ

فَدَفَعْتُهَا فَتَدَاغَتْ مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ
 فَلَثِمْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَسَ الظُّبَى الْبَهِيرِ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمَدَا مِ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيرِ
 فَإِذَا سَكِرْتُ فَإِنِّي رَبُّ الْخَوَزْنِقِ وَالسَّدِيرِ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنِّي رَبُّ الشَّوَيْبَةِ وَالْبَعِيرِ
 يَا هِنْدُ مَنْ لُمْتِمِ يَا هِنْدُ لِلْعَانِي الْأَسِيرِ

فانظر إلى أول هذا الشعر ، كيف أحسن تصوير هذه الفتاة ، وكيف ذكر يوم لُوه ، ثم انظر إلى هذين البيتين ، أحدهما يشبه تدافع الفتاة بمشى القطاة إلى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها ، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها ، ثم انظر إليه كيف عرض للخمر ، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس ، وشرب منها بالقدح ، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر ، وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها ، إلا إذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير .

وانظر إلى قول الآخر ، من شعراء الجاهلية :

وَمُعْرَسٍ عَرَضِ الرَّدَى عَرَسَتْهُ وَالصُّبْحِ سَاطِعٌ لَوْ نَهْنَه لَمْ يَنْجَلِ
 فَأَتَيْتُ حَانُوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ مِنْ عَاتِقِ بِمَزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلِ
 صَهْبَاءَ صَافِيَةَ الْقَدَى أَعْلَى بِهَا يَسْرُ كَرِيمُ الْخَيْمِ غَيْرُ مُبْخَلِ

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر ، ولكنهم لم يكونوا يمعنون في هذا الوصف إمعانهم في وصف الخيل والإبل ، وما إلى الخيل والإبل ، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعكفوا عليها ، ويعاشروها معاشرة متصلة ، كما كانوا يعاشرون الإبل والشاة ، وإنما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة ، يشرب فيها ويلهو ، فإذا فرغ من شربه ولُوه تحدث بذلك مفاخرًا ، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفتن ؛ فقد دخل وصف

الخمير والإمام بها في فن الفخر ، والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ، ومن العفة حين يدعو كل شيء إلى اطراح العفة إلى غير ذلك من هذه المعاني الشائقة ، التي تجدها عند الجاهليين جميعاً .

فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه ، وجدت صفتين اثنتين : الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالخمير إماماً ، ولا يلحون في وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه ، وإنما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط . الثانية أنهم لم يتخذوا وصف الخمير فناً مستقلاً من فنون الشعر ، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون .

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الخمير في هذا العصر ، ويصبح فناً قائماً بنفسه يقصد من حيث هو ؛ لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو إليه ، ولهذا اشتهر الأعشى ، وعدى بن زيد بإكثارهما في وصف الخمير ؛ لأن ذلك لم يكن شيئاً مألوفاً . فلما جاء الإسلام سكت الناس عن الخمير حيناً ، صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده هو الذي سكت عن الخمير خوفاً وإشفاقاً ، وأن كثيراً من العرب ، البادين والمتحضرين ، كانوا لا يضمنون على أنفسهم باللهو ، يختلسونه اختلاساً ويسترقونه استراقاً ، والرواة في ذلك أحاديث منها الصحيح ، ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرنى ولست أدري لمن هو ، ولكنني أعلم أنه قيل أيام عمر رضى الله عنه ، وأنه موجه إليه وهو :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادَمْنَا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

وقصة الوليد بن عقبة — عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة — شائعة معروفة ، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب ، وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران ، فركع ثلاثاً ثم التفت إلى المصلين وقال « إن شئتم زدناكم ! » ويروى الرواة أن عثمان أمر بجدته ؛ وأن علياً رضى الله عنه هو الذى ضربه ، والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فيزعمون أنه كان يحب الخمير ، ويعكف عليها ، وكأنه كلف في ذلك ، وذكر بآيات الله ، فقال كلاماً لا نرويه ! . .

وما كاد ينتهي عصر الخلفاء ، ويثبت سلطان بني أمية ، حتى ضعف سلطان

الدين ، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع ، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات ، وكثرت الغنائم ، وعظمت الثروة ، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشرف قريش ، إلى أن يقيموا في الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير ، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسي خوفاً منهم أو عقاباً لهم ، فانصرفوا إلى اللهو ، وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيهما وتغيرت الآية . . . فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت هؤلاء الناس جميعاً مجالس معروفة مشهورة ، كثر ذكرها في كتب الأدب والتاريخ ، وكثرت حولها الأخبار والشائعات ، واضطر الخلفاء من بني أمية إلى أن يظهروا في بعض الأحيان ضروباً من القسوة ، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس ، وعذبوا بعضهم ثم نفوه ، وخبر الأحوص بن محمد الأنصاري معروف ، وخبر الخنثين في المدينة معروف أيضاً ، وشعر عمر بن أبي ربيعة ، وأخبار المدال ، أكثر وأشهر من أن نلح في ذكرها .

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون ، ولكنهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك في الشعر إلا إماماً ، كانوا يحتشمون إشفاقاً وقاراً ، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشمو ، ولا أن يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ، وظهر في ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بني أمية ، ولسانهم الناطق بسياستهم ، المناضل عن حزبهم ، كان مسيحياً ، وكان كلفاً بالخمير مشغولاً بها ، حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال : إنهم عذبوه وضربوه ، لأنه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين .

أكثر الأخطل من الشرب ، وأكثر من وصف الخمر ، وأجاد فيه ، وجاهر بشربه ، وطوه ، واستخدمه في السياسة . فيروى أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنح ، فأنشده هذين البيتين .

إِذَا مَا نَدَيْمِي عَلَّيْ ثُمَّ عَلَّيْ ثَلَاثَ رُجَاجَاتٍ لَهْنَ هَدِيرُ
خَرَجْتَ أَجْرُ الذَّيْلِ تَيْهًا كَأَنِّي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

وكان زُفَر بن الحارث جالساً مع عبد الملك على السرير ، وقد كان عادى بنى أمية ، وكتفهم ضروباً من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم ، قربه عبد الملك وأخذ يحبه ؛ فاغتاز لذلك الزعماء ، وأغروا به الأخطل ، فدخل على الخليفة في هذه الحال ، وأنشده البيتين ، ثم روى من شعر زفر هذين البيتين :

أَرَيْنِي سِلَاحِي لَا أَبَالِكِ إِنَّنِي أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ الصُّدُورِ كَمَا هِيَا

فيقال : إن عبد الملك ضرب برجله في صدر زفر ، فألقاه على السرير ، وكاد يقتله .

ولسنا نريد أن نطيل في شعر الأخطل ووصفه للخمر ؛ ف شعر الأخطل معروف ، وديوانه مطبوع ، ولكننا نستطيع أن نقول بالإجمال : إن الأخطل على إكثاره في وصف الخمر ، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من شعراء الجاهلية ؛ فهو أكثر في وصف الخمر ، ولكنه لم يخترع شيئاً كبيراً . ثم أخذ الزمن يتقدم ، وأخذ الناس يترفون ، وأخذ الاحتشام يقل ويضعف في الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة إلى دمشق ، ولسنا نذكر يزيد بن معاوية ؛ فقد كان الإنكار عليه شديداً ، وكان يخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريباً ، وحرصهم عليه لم يزل قوياً ، بل لا نذكر أبناء عبد الملك ؛ فقد كانوا يختاطون في اللهو ، ويتسرون .

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهي ، حتى كان الجيل قد تغير ، والعهد قد تبدل ، وحتى كان الاختلاط بين العرب ، والفرس ، وهذه الأمم الكثيرة المتباينة في الشام ، قد عمل عمله ، وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ؛ ومن أعظمها وأشدّها خطراً ، المحجون ، وحب اللهو ، وحرية الفكر والسيرة ، ولقد أشرنا في الحديث الماضي إلى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا يكفي أن يكون هذا القرن قد بدئ بالوليد بن يزيد ، وختم بالأمين بن الرشيد .

ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد ، وعمما سلك من طرق الهزل ، وما ابتدع من ألوان المحجون ، حين كان ولياً للعهد ، وحين كان أميراً للمؤمنين ، ولسنا نود ذلك حباً فيه ، أو كلفاً به ، بل لأن للوليد بن يزيد أثراً قوياً جداً عرفه المتقدمون أنفسهم في شعر أبي نواس ، فإن صاحب الأغاني مثلاً يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيراً عن الوليد في الخمر ، ويختص منهم أبا نواس ؛ لأنه أكثر الاندفاع بشعر الوليد .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فقد كان الوليد سيئ الحظ في حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره ، فعدا عليه الشعراء ، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة ؛ كان الوليد سيئ الحظ ، فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ، ويضع ابنه مكانه ، فكان لذلك يضطهده ، ويضطهد أوليائه ، فلما مات هشام واستخلف الوليد ، لم يطل عهده بالخلافة ، وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه ! .

وليس يعيننا أن يكون الوليد ظالماً أو مظلوماً ، وليس يعيننا أن نحكم في أمر الوليد من جهة الدين والسياسة ، وإنما الذي يعيننا الآن ، هو أن نقول : إن الوليد كان شاعراً مجيداً ، وماجناً ماهراً في المحجون ، منطوراً عليه ، وإنه هو الذي فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سيئ الحظ ؛ لأن شعره ضاع ولم يحفظ ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء ، فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تم به أخباره في الأغاني .

نقول : إن الوليد هو الذي فتح للشعراء باب المحجون ، ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط ، حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه ، فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهداً في حياته أيام عمه هشام ، وأنه اضطهد بعد موته ، ولا سيما أيام بني العباس ، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسيين قد أضافوا إليه من الشعر والحوادث ما لم يقل ، ولم يعمل ، وإذن فيجب الاقتصاد ، والحذر ، عند قراءة ما يضاف إليه . ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك في أن الوليد كان ماجناً خليعاً ، وكان مسرفاً في الخلاعة والمحجون .

ولم يكن إسرافه في الخلاعة والمحجون أثراً من آثار اللذة ، والكلف بها

فحسب ، وإنما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين ، وفساد العقيدة في نفسه ، كان أثراً من آثار البدع الجديدة ، الذي نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة ، فأخذت الشك والإلحاد في نفوس نفر منهم غير قليل ؛ فلم يكن مؤمناً بالبعث ، ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدي فرائضه الدينية ، فيصلى ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون ، ولأنه كان ولياً لعهد الناس ، أو خليفة على الناس ، وانظر إلى هذه الآيات :

أَدْرِ الْكَاسَ يَمِينًا لَا تَدْرِهَا لِسَارِ
 اسْقِ هَذَا مُمَّ هَذَا صَاحِبَ الْعُودِ النَّصَارِ
 مِنْ كَمَيْتٍ عَتَقُوهَا مِنْذُ دَهْرٍ فِي جِرَارِ
 خَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِيهِهِ وَكَافُورٍ وَقَارِ
 فَلَقَدْ أَيَقْنَتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ

وَذَرُوا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى لِنَبَارِ

في هذا الشعر شيء من روح أبي نواس ، ولكنه لم يبلغ من الصقل ، وصفاء الأديم ، ما بلغه أبو نواس ، والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب ؛ وإذن فليستمتع باللذات ، وليدع الأتقياء يشقون بخيال الجنة الذي يسعون إليه ، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس ، وما يسعون إليه من نعيم ، حتى أو باطل ، وإنما يريد أن يروضهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء ، والعبث بكل شيء ، سواء في ذلك الدين والخلق والعادة .

ولقد تحدثت بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة ، فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء ، وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقيني ، فأقبلت جوار ، فقمنا بينه وبين الراوي ، فسقينه ، وأخذ يقول : اسقيني ، وأخذ الجوارى يسقينه ، حتى أقبل الفجر ، قال الراوي : فأحصيت له سبعين قدحاً .
 ومثل هذا كثير في أخبار الوليد ، والناس يرونه أنه سكر يوماً ، فأمر

جارية له ، فصلت بالناس ، ولم يكن الوليد مغرقاً ، ولا مندفعاً في اللذات اندفاعاً غير منظم ، لم يكن سكيراً معربداً ، وإنما كان في قلبه مكان للحب ، ولحب القوي المتين ، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ، وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأطلقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء ، فلما ولي الخلافة وصل إلى ما أراد ، ولكن سلمى لم تقم عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد ، ورثاها بالشئ الكثير ، وأكثر ما قال الوليد في سلمى غُنِّيَ فيه ، وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها ، فإذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية ، فاقرأ هذا الشعر في الأغاني ، ولكني أروى لك أبياتاً له في الخمر لا تشك ، حين تقرأها في أنك تقرأ أبا نواس .

إِصْدَعْ نَجِيَّ الْهُمُومِ بِالطَّرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَأَسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةِ زَانَهَا تَقَادُمَهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلُوتِهَا مِنْ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقَّ جَوْهَرُهَا حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بِغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرِ وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَمَّا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ تَذْكُو ضِيَاءَ فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلِ الْمَجْدِ وَالْمَأْثُرَاتِ وَالْحَسَبِ
مَا فِي الْوَرَى مِثْلَهُمْ وَلَا يَهْمُ مِثْلِي وَلَا مُنَمِّ لِمِثْلِ أَبِي

فانظر إلى هذا الشعر الجيد السهل ، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف .

فَهِيَ بِغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرِ وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
ج ٢ (٦)

ثم ألت تحس في هذا الشعر كله رقة أبي نواس ، وخفة روحه ! ومع هذا ، فالوليد محتفظ بالسنة القديمة ، يتخذ الخمر وسيلة إلى الفخر ...

لم يكد يتدئ القرن الثاني إذن حتى ظهر الحجون ، وانتشر ، ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فتم انتصار الفرس على العرب ، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، وأصبح الأدب عراقياً ، لا شامياً ولا بدوياً ، أى أصبح خاضعاً من كئيب ، لتأثير الفرس ، وحضارة الفرس . فتم انتصار العبث والحجون ، وتمت استحالة الطبع العربي ، وانقطع — أو كاد ينقطع — العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الأموي ، وأقبل أبو نواس وأصحاب أبي نواس ، فوجدوا سنة موروثة وطريقاً ممهدة ، فأحيوا السنة ، وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد ، فلم يضيعوا الميراث ، ولم يفسدوه . وإنما تَمَّوهُ ورَقَّوهُ ، وكان هذا الشعر العباسي الذي نزع من أبا نواس يمثله ، والذي سنحدثك عنه في الأسبوع الآتي .

الخمير عند أبي نواس (١)

سحر الشعر - إدمان الخمر - وعبادتها - المذهب
السياسي - تفضيل الفرس على العرب .

رأيت في الأسبوع الماضي أن الخمر قد وصفت قبل أبي نواس بنحو
قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عايتها ، وأن الوليد
ابن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمر وسيلة إلى إعلان الحجون فيما نعلم ،
وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره ، فأحسنوا وأجادوا ، ولكن أبا نواس
هو زعيم هذا الفن كما قلنا .

والناس يجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبي نواس
في وصف الخمر ، والافتنان فيها ، ولقد كان بعض الرواة يغفلون في ذلك ،
فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخمر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجراً إليها ، ولعكفنا
عليها (يريد الحسن البصري وابن سيرين) ولسنا ندرى إلى أي حد
تصح هذا الرواية ، ولكننا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمر إحساناً
لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه ، ونعلم أيضاً أن هذه الأوصاف التي نستحسنها
ونستعذبها ، ليست من الجودة أو الحسن بحيث نرغبنا في الخمر ، أو تحملنا
على أن نهجر إليها ، ونعكف عليها ، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ،
فنزعم أن كثيراً من هذا الإحسان ، وهذه الإجابة قد يمر بنا دون أن نلاحظه
أو نلتفت إليه ، إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذي عاش فيه أبو نواس ،
وتبيننا ذوق أهله ، وما كانوا يحبون ويكرهون ، ففي هذا الإحسان والإجابة
شيء كثير إضافي ، أي أنه إحسان وإجابة بالقياس إلى العصر الذي قيل فيه ،
وإلى الناس الذين سمعوه ؛ فإذا تغير الزمان واستحال الذوق ، فليس بالإحسان
ولا بالإجابة ، وربما كان أدنى إلى الثرثرة ولغو الكلام ، ولهذا الملاحظة خطرهما ؛
فهى تدل على شيئين قيمين .

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رجب سنة ١٣٤١ - ٧ مارس سنة ١٩٢٣ .

أحدهما : أن الحكم على شعر القدماء — ولا سيما الشعر الغنائى — لا ينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصرى وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغي أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذى عاش فيه الشاعر ؛ فإن الشعر الغنائى بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر وقومه وما كانوا يشعرون به ، وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب ، ويكلفون بما لا نكلف به ، ويميلون إلى ما لا نميل إليه ، فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لا نستعذب ، وأن يُفْتَسِّحُوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترئين .

والآخر . أن قليلاً جداً من هذا الشعر الغنائى ما يبقى على الدهر ، ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلاً جداً من الشعراء المغنين من يظفرون بإعجاب الجيل الذى يعيشون فيه ، والأجيال التى تليه ، فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه ، وقدرته على وصف العواطف ، التى تهز قلوب الناس من حيث هم ناس ، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثانى أو الرابع عشر للهجرة .

ولأبى نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سنرى فيما نعرض له من شعره ، ولكن لأبى نواس شعراً كثيراً أعجب به الناس فى عصره ولا نحفل به نحن الآن ، وهذا الشعر كثير فى الخمر ، وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال ، التى قالها أبو نواس وغير أبى نواس فى قدم الخمر وتعتيقها ، وأنها قد شهدت عصر نوح ، ثم عاد وثمود ، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين ، إلى آخر ما هناك ، مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا إعجاباً إضافياً ، لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه ، ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذى يصف الشعراء فيه بحمهم عن الخمر ، وارتياحهم إليها ، ومغالاتهم فى ثمنها ، فيشبهونها بالعدراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، ويغالى هذا الدهقان فى مهرها ، ويتمنع فى تزويجها لشاربيها ؛ لأنه يريد أن يتخذ لها الأكفاء ، ومن ذلك أيضاً الإكثار فى وصف طعم الخمر وريحها ، وأنها تقطب الجبين ، وتزِيل

الزكام ، إلى آخر ما هناك مما لا نحفل به الآن . ثم هذا الكلام الكثير في أن الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وإنما عتقت وتخمرت في جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار ، وقد نقرأ الشعر الذي يتناول هذه المعاني فتعجب به ؛ لأن لفظه جيد ، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا ، وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئاً من الإحالة والبعد عن معقول الناس .

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ، ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا ، لم نجد شيئاً . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يتحدثون القدماء ، ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ، ويسحروننا بكلام نسمعه فتعجب به ، حتى إذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئاً ، أو وجدنا مالا يروق ، فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به .

يَا غَلَامُ الْمُدَامَ وَالْكَاسَ وَالطَّاسَ وَهَيَّ لَنَا مَكَانًا كَأَمْسِ
واسقنا يا غلامُ حتى ترانا لا نطبق الكلام إلا بهمس
خَمْرَةً قَيْلٍ لِنَهُمْ عَصْرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمِلَاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ

فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؟ وكيف لا تفتنك حدود الملاح في يوم عرس ؟ ولكن تكلف أن تبين هذه الخمر التي تعصر من حدود الملاح ، وحدثنى أتستطيع أن تشربها ، أو تستطيع أن تنظر إليها دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل ؟ إذن فينبغي أن نحناط ونقتصد في الإعجاب بالشعر عامة ، وبشعر القدماء خاصة ، فإن سحر الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التي لم يكن منها بد ، نستطيع أن نعرض لوصف الخمر في شعر أبي نواس ، وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التي نستطيع أن نعتبرها مقياساً لذوق الشعراء في ذلك العصر ؛ وللموضوعات التي كانوا يلتمسون بها ، ويقصدون إليها ، وهي .

يَا خَاطِبَ الْقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ يَمْرُهَا بِالرَّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلْتَهُ ذَهَبًا

قَصْرَتْ بِالرَّاحِ فَاحْذَرُ أَنْ تُسَمِّمَهَا
 إِنِّي بَدَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
 فَاسْتَوْحَشَتْ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً
 فَقُلْتُ لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا
 قَالَتْ فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا؟ فَقُلْتُ أَنَا
 قَالَتْ إِقَامِحِي؟ فَقُلْتُ التَّلَجُ أَبْرَدُهُ
 قُلْتُ الْقِنَانِي وَالْأَقْدَاحُ وَوَلَدَهَا
 لَا تُمَكِّنِي مِنَ الْعَرِيِّدِ يَشْرُبُنِي
 وَلَا الْمَجُوسِ فَإِنَّ النَّارَ رُبُّهُمْ
 وَلَا السَّفَالِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا
 وَلَا الْأَرَاذِلِ إِلَّا مَنْ يُوقِرُنِي
 يَا قَهْوَةَ حُرِّمْتُ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ

فِيخْلِفَ الْكَرْمُ الْأَيْحَمِلَ الْعِنْبَا
 صَاعًا مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا تُقْبَا
 يَا أُمَّ وَيَحْكُ! أَخَشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا
 قَالَتْ وَلَا الشَّمْسِ قُلْتُ الْحَرُّ قَدْ ذَهَبَا
 قَالَتْ فَبِعَلِي؟ قُلْتُ الْمَاءُ إِنْ عَذَبَا
 قَالَتْ فَبَيْتِي؟ فَمَا اسْتَحْسِنُ الْخَشْبَا
 فِرْعَوْنُ قَالَتْ لَقَدْ هَيْجَتَ لِي طَرَبَا
 وَلَا اللَّيْمِ الَّذِي إِنْ سَمَّيَ قَطْبَا
 وَلَا الْيَهُودِ وَلَا مَنْ يَعْْبُدُ الصُّلْبَا
 غِرَّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدْبَا
 مِنَ السَّقَاةِ وَلَكِنْ أَسْقِنِي الْعَرَبَا
 أَثْرَى فَأَتَلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنَّشْبَا

فانظر إلى هذه القصيدة ، فلن تجد فيها معنى يخلبك ، أو شيئاً يستهيك ،
 ومع ذلك ، فأستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعاني ،
 ويستعذبون الشعر الذي ترد فيه ، وكانوا يحبون هذا التشبيه « تشبيه الخمر
 بالعروس تخطب ويغالي في مهرها » وكانوا يحبون هذا الحوار يجري بين
 الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التي تقص عن
 الخمر من ليس لشربها أهلاً ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت
 الأخير الذي يحل الخمر للغنى يتلف ثروته فيها ، أما نحن فلعلنا لا نحب من
 هذا كله شيئاً . ولعلنا نقرأ هذه القصيدة ، فلا نجد فيها ما يستخف ، ولا
 ما يرغب في الخمر . . .

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حباً ربما كان أشبه بالدين ، كان
 يعبدها ويقدمها تقديساً ، فانظر إلى هذه الأبيات ، ولست أشك في أنك

ستستحسنها ، وتعجب بها الإعجاب الكثير ، وتشعر بأنها ليست مدحاً للخمر ، وإنما هي صلاة إلى الخمر :

أَنْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَمِّهَا وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا
لَا تَجْعَلِ الْمَاءَ لَهَا قَاهِرًا وَلَا تُسَلِّطْهَا عَلَى مَائِهَا
كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا
دَارَتْ فَأَحْيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نُفُوسَ حَرَّاهَا وَأَنْضَائِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَائِهَا

فانظر إلى هذا البيت :

أَنْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَمِّهَا وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا

أليس الشطر الأول منه تسييحاً للخمر ! ؟ ، أليس الشطر الثاني منه تقديساً للخمر ؟ أليس في هذا البيت على سهولته وبرأته من ألفاظ المحجون أشد ألوان المحجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؟ أليس يذكرك القرآن ؟ أليس يذكرك قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ . ثم انظر ما جاء بعد هذا البيت ، انظر إلى سهولة اللفظ ، وخلوه من التكلف ، انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثراً ، وانظر إلى دقة هذا المعنى الذى قد لا يعجبك فى نفسه ، ولكنه على هذا جميل دقيق ، يمثل عقل أبي نواس ، واصطبأغه بالصبغة الفلسفية التى كانت عامة فى عصره :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا

فهذه الدقة لاستهويك ولا ترغبيك فى الخمر ، ولا تنزع بك إلى حب الشراب ، ولكنها فى نفسها جميلة محببة . وانظر إلى استئناف الثناء على الخمر ، فى لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع :

دَارَتْ فَأَحْيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نَفُوسَ حَرَاهَا وَأَنْضَاهَا
وَالْحَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَاهَا

فقد رأيت في هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت في الأولى معاني لا تعجبك ولا تروقك ، وكانت تعجب القدماء ، وتروقهم ، ورأيت في الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحدث عليها ، وإنما هي جميلة لنفسها ؛ لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته ، وحسن غوصه على المعاني ، وهي تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين .

وانظر إلى هذه الأبيات التي تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء ؛ لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء في وصفه :

كَمْ مُتَرَفٍ عَقَلَ الْحَيَاءُ لِسَانَهُ فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيمَاءِ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرَى فِي عَيْنِهِ قَدْ عَقَلَ الْجَفْنَيْنِ بِالْإِغْفَاءِ
حَرَ كَتُهُ بِيَدِي وَقُلْتُ لَهُ أَنْتَبِهْ يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ وَالنَّدْمَاءِ
حَتَّى أَزِيحَ أَلْهَمَ عَنْكَ بِشْرِبَةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلِيَاءِ
فَأَجَابَنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصَّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظُّلْمَاءِ
إِنِّي لَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا رَدَّ التَّعَا فِي سَوْرَةِ الصَّهْبَاءِ

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب إذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء ، ولكن انظر إلى هذا البيت بنوع خاص :

فَأَجَابَنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصَّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظُّلْمَاءِ

كان أبو نواس إذن يعبد الخمر ويدمن شربها ، فيشربها إذا أمسى ، ويشربها إذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه . وربما عكف عليها الأسبوع كله ، لا ينصرف عنها إلا حين ينقله النوم ، كما ترى ذلك في قصيدته التي مطلعها :

يَا طَيْبِنَا بِمُصَوِّرِ الْقَفْصِ مُشْرِقَةً فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطَّرِدُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذي كان ينادمه ويساقيه ،
 واتخذ أنصار المأمون في خراسان هذا سلاحاً يحاربون به الأمين ، فكان ينشد
 مجون أبي نواس في المسجد الجامع عند الصلاة ، ويلعن من قاله ، ومن أحبه ،
 وكان هذا قد وصل إلى الأمين في بغداد فأشفق منه ، وأراد أن يحتاط ويصطنع
 الوقار ، فنهى أبا نواس عن شرب الخمر ، وأظهر أبو نواس الطاعة ، ولكن
 ذلك شق عليه ، فقال فيه شعراً كثيراً جداً ، منه هذه الأبيات :

أَعَذِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
 وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجْرُهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
 فَجَوَّزَهَا عَنِّي سُلَافًا تَرَى لَهَا إِلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى شُعَاعًا مُطَنَّبَا
 إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلْتَهُ يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

وقال هذه القصيدة الأخرى التي تبين مقدار ما يعانى من الألم والحرمات
 لطاعة الأمين :

أَيُّهَا الرَّاحِمَانِ بِاللَّوْمِ لَوْمًا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيئًا
 نَالَنِي بِالْإِسْلَامِ فِيهَا إِمَامٌ لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيئًا
 فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
 كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيئًا
 فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعْدِي يُزِينُ التَّحْكِيمًا
 كُلٌّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِ فَاوْصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يُقِيئًا

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الأخيرين على أنهما
 لا يخلوان من جمال ، فهو يشبه نفسه في وصفه للخمر وحثه الناس على شربها ،
 دون أن يستطيع لها مذاقاً ، بالخارجي الذي عجز عن الحرب ، فقعد وأخذ
 يحث الناس عليها .

على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب .
 ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت ، وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل

ما كان من أمر صديقه الكوفي الذي ما زال به حتى حملة على خلاف الأمين ، فشرب الخمر ، وسب زبيدة ، وعاد إلى الأمين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الأمين ، بل حمده ورضى عنه ، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفي ، فاتخذته نديماً ! . .

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئاً غير هذا الفسق والإغراق في الخجون ، وهو أنه كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ؛ لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، وما ألقوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى الإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف .

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة ، وذم طريقة القدماء .

ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه ، لكان من الحق أن نشك في أنه من اللهو والخجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والإسراف ، أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد ؟

على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكنتنا من أن نفهم بغض الناس له ، ونعيهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً .

يذم القديم - لا لأنه قديم - بل لأنه قديم ، ولأنه عربي ، ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث ، ولأنه فارسي ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور .

ومن هنا نفهم بخط كثير من العرب وأنصار العربية ، على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب ، ومهما يكن من شيء ، فالحمريات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد ، وذم المذهب القديم ، هي أجود ما يروى عن أبي نواس ولا بد من أن نلم بكل هذه القصائد ، لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد ، كما كان يتصوره أبو نواس ، ولكننا نرجئ هذا إلى الأسبوع الآتي ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع :

لَا تَبِكْ لَيْلِي وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ وَأَشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ
كَأَسَا إِذَا أَنْحَدَرْتَ مِنْ حَلْقِ شَارِبِهَا أَجْدَتُهُ حُمْرَهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
فَالْخَمْرُ يَا قُوَّةَ وَالْكَأْسُ لُوْلُؤَةٌ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةٍ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فِيهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بَدِّ
لِي نَشْوَرَانِ وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَدِي

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه ، فخرؤا له سجداً ؛ فقال : فعلتموها ! أعجمية ! والله لا كلمتكم ثلاثاً وثلاثاً ؛ ثم ندم وقال : تسعة أيام في هجر الإخوان كثير ! وربما كان أصحاب أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجاباً به .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره وأجوده ، وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات ، ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك ، دون أن تستطيع له تحديداً ؛ جمال في اللفظ وجمال في المعنى ، فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمبتذلة ، ولا التي لا يفهمها عامة الناس ، وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل ، بل هي معان مألوفة ، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها ، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ، ما كنت لتحسهما ، لولا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض ، انظر إلى قوله « واشرب على الورد من حمراء كالورد » وانظر إلى قوله :

فَالْخَمْرُ يَا قُوْتَهُ وَالْكَأْسُ لُوْلُوْتُهُ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوْقَةٍ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِيهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِيهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ،
هي التي تحدث في نفسك اللذة ، وتبعثها على الإعجاب . وانظر إلى هذا البيت
الأخير ، وإلى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضرياً ، فانياً في الحضارة ،
ومترفاً مغزقاً في الترف ، يعبر عن حضارته وترفه ، بلفظ يكاد يصل إلى قلبك ،
دون أن تسمعه :

لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي

ولست أدري لماذا لم أسمع هذا البيت مرة ، إلا وددت لو سمعته من فم
مغن يجيد الغناء ! .

الخمير عند أبي نواس (١)

الشعر لسان الحياة - تجديد في الأساليب
والمعاني - صعوبة الاعتراف بالتطور -
المجون من مظاهر الحياة - الخنين إلى الفرس

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ؛ فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال ، كتبناه عن وصف الخمير في شعره ، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال ، كما هو شأن القارئ لما يكتب في صحيفة سيارة ، مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدباً أو غير السياسة والأدب ، وما إخالك إلا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن إلا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس .

فقد رأينا أن أبا نواس كان - بعد الوليد بن يزيد - أشد الشعراء عناية بالخمير وأكثرهم افتناناً فيها ، وأن الناس جميعاً شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس يحقون في هذا ، ولكننا رأينا أن معاني أبي نواس في الخمير - على أنها كثيرة مختلفة - يكاد يناها الإحصاء ، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين :

القسم الأول ، هذه المعاني الكثيرة ، التي كانت تعجب القدماء ، وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا ، أو لا تفتننا على أقل تقدير ، كتشبيه الخمير بالعدراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، وكالإسراف في وصف قدم الخمير وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان في وصف طعم الخمير وريحها .

القسم الثاني ، هذه المعاني التي أعجبت القدماء وفتنتهم ، وما زالت تعجبنا وتفتننا ، لأنها لامت ذوق القدماء وحياتهم ، وما زالت تلائم ذوقنا وحياتنا ، ولأنها حبيت إلى القدماء شرب الخمير ، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب الخمير . وهذه المعاني قليلة في شعر أبي نواس ، وقليلة في شعر غيره من الشعراء ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٤١ - ١١ يوفية سنة ١٩٢٣ .

قليلة في الحمريات قلبها في غير الحمريات ، ذلك لأن المعاني التي تتفق على استحسانها العصور المتباعدة ، والأجيال المتباينة ، قليلة بطبعها في كل فن من فنون الشعر والأدب .

ثم مثلنا في ذلك المقال لهذه المعاني وتلك ، وأشرنا إلى أن شعر أبو نواس في الخمر لم يكن هزلاً كله ، ولم يكن الغرض منه الخجون وحده ، أو الإسراف في وصف اللذات ، وإنما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة إلى شيء من الجدد ، له خطره في الأدب ، ووسيلة إلى شيء آخر من الجدد ، له خطره في غير الأدب .

كان أبو نواس إذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء المحبسون من وصف الحس والشعور ، وتمثيل العاطفة تمثيلاً صحيحاً ولكنه كان يقصد - مع هذا الشيء المشترك بينه وبين الشعراء - إلى شيئين آخرين ، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً ، لم ينهجه المتقدمون ، أو قل إنهم نهجوه ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهباً في الأدب ؛ كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن نهجه بالكتابة ، كان يريد أن يتخذ الشعر لساناً للحياة الحاضرة ، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء ، والذين يسمعون للشعراء ، كان يريد - بعبارة مجملة - أن يعدل عن أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها ، وفي تغني الإبل والشاء ، إلى وصف الحياة التي يحياها الشعراء والمستمعون لهم ، إثارة للصدق وبعداً عن الكذب .

كان أبو نواس إذن في هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة ، محبباً للأخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب ، ولكن يجب أن نفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق لم يكن واعظاً ولا ناسكاً ، لم يكن حكيماً يبشر بالحكمة ، أو فيلسوفاً يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعراً يصدق في شعره ، ويجب أن يتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة ، كان يجب الصدق حباً

عملياً ، أو قُل كان يجب الصدق حباً فنياً ، ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين ، أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفنى .

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدمات في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدمات في المعاني فحسب ، وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدمات في المعاني ، وفي الألفاظ جميعاً ، كان يريد ألا يستعير المحدثون معاني القدمات ، لأن لهم معانيهم ، ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدمات ؛ لأن لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت ، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة .

حدثت معان لم يكن يألفها القدمات ، فيجب أن تحدث لهذه المعاني ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدمات ، رقت حاشية الحياة الحديثة ، وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة .

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين : (الأول) أن هذا التطور فى اللغة واقع على كل حال ، سواء أراد الشعراء والكتاب أم لم يريدوه ، وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وإن كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قوياً ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين ، وقُل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس ؛ التطور إذن واقع ، لأنه قانون لا منصرف عنه لأى جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور ، راضون عنه ، ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وإنما هى فى «اعترافهم» به ، واتخاذهم مذهباً وطريقاً .

وهذا هو الشيء (الثانى) الذى نريد أن نلاحظه ، وهو أن الخلاف بين القدمات والمحدثين ، يكاد يكون فى «الاعتراف» بالحديث لافى «قبول» الحديث ؛ فالحديث مقبول بطبعه ، لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق ، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة .

ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً في تغيير الأسلوب الشعري ، وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعري ولا مجدد اللفظ والمعنى ، وإنما كان الشعراء المعاصرون له - سواء منهم أنصاره وخصومه - يغيرون الأسلوب الشعري ، ويجددون اللفظ والمعنى أيضاً ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ، ويرى أنه مشروع ، فيمضى فيه ، ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ، ويتكلف الفرار منه .
 وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا في القرن السابع عشر الفرنسي ، ووقع هذا في كل عصر من العصور التي تطورت فيها الأمم ، وتطورت فيها اللغات أيضاً .

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين ، غير منافقين مع أنفسهم ، وانظر إلى طريقته في الدفاع عن رأيه ، وأخذ الناس بهذا الرأي :

عَاجَ الشَّقِيَّ عَلَى رَسْمِ يُسَائِلُهُ	وَعَجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ
يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ	لَا دَرَّ دَرَكَ قَلْبِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفْهُمَا	لَيْسَ الْأَعَارِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
لَا جَفَّ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ	وَلَا صَفَا قَلْبٌ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتِدٍ
كَمْ بَيْنَ نَاعَتِ خَمَزٍ فِي دَسَاكِرِهَا	وَبَيْنَ بَالِكٍ عَلَى نُؤْيٍ وَمُنْتَضِدٍ
دَعَا ذَا عِدْمَتِكَ وَأَشْرَبَهَا مَعْتَقَةً	صَفْرَاءَ تَفْرُقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
مِنْ كَفِّ مُضْطَمَّرِ الزُّنَارِ مُعْتَدِلٍ	كَأَنَّهُ غُضْنُ بَانَ غَيْرُ ذِي أَوْدٍ
أَمَارَاتٍ وَجُوهِ الْأَرْضِ قَدْ نَضَرَتْ	وَأَلْبَسَهَا الزَّرَّابِي نَثْرَةَ الْأَسَدِ
حَاكَ الرَّبِيعُ بِهَا وَشَيْئاً وَجَلَّلَهَا	بِيَانِعِ الزَّهْرِ مِنْ مَثْنَى وَمِنْ وَحْدٍ

فانظر إليه : كيف آثر العنف في خطاب خصمه ، فأسرف في ذم القديم ، والنعي على من يتكلفه ، وأسرف في مدح الجديد ، والحث عليه ، وانظر إلى تبرمه بأسد ، ومن يبكي على أسد ، وإلى ذمه لتميم وقيس والعرب كافة ، ثم

انظر إليه كيف يحقر هذا القديم ، ويرفع من شأن الحديد ، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم ، من جمال الطبيعة ، فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته ، بطلول الجزيرة العربية وصحاريها ؛ ومثل هذا الشعر كثير في خمريات أبي نواس ، كثير في غير الحمريات أيضاً ، يكفي أن ترجع إلى ديوانه ، لتتقنع منه بما تريد .

هذا أحد الشيثيين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس ، حين يفتن في وصف الحمر واللذة .

والشئ الآخر مذهبه في الحياة لا في الأدب ، وقد ذكرناه كثيراً ، فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم في السخط والإشفاق ، حتى ظن بنا أننا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر إلا في شئ واحد ، هو التاريخ ، هذا الشئ الذي نريد اليوم أن نمر به مسرعين ، هو المحون ، فقد كان أبو نواس مجدداً في كل شئ ، مجدداً في الشعر ، ومجدداً في الحياة ، ويقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجدداً وحده ، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين أيضاً .

والفرق بين أبي نواس وغيره من معاصريه ، أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ، ولا يكذبوا على أنفسهم ، فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الأمر ، فمن الحق عليهم ألا يحنوا هذا ولا يفروا منه ، فهو إذن في قضية المحون ، يسلك نفس الطريق التي يسلكها في قضية الأسباب الأدبية ، يرى أن هناك تطوراً واقعاً ، وأنا خاضعون لهذا التطور ، وأنا ننكر هذا التطور ، ولا ننكر خصوصاً له ، وإنما نؤمن به إيماناً ، ونعترف به اعترافاً ، وحجته في ذلك أن هذا سبيل الصادقين ، وأنتك قد تستطيع أن تخفي ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفي على الله شيئاً والله وحده هو الذي يجب أن تصدقه في شرك وجهرك ، فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده ، فما يعينك أن يقول الناس فيك ! وانظر هذه الأبيات :

لَا تَسْقِنِي إِنْ كُنْتَ بِي عَالِمًا إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي

هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا وَأَكْنِ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ
يَا حَبْدًا الْجَهْرُ بِأَمْرِ الصَّبَا مَا كُنْتُ مِنْ رَبِّكَ فِي سِتْرِ

هو إذن مقتنع بوجود العدل عن القديم ، والاعتراف بالحديد ، وهو شديد الاقتناع ، قد يتكلف في سبيله ما يتكلفه المقتنعون ، من الإسراف والتعصب والخروج عن الطور ، وانظر إلى هذه الآيات ، التي لم يحفل فيها أبو نواس بقاعدة دينيه أو خلقية ، وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهبا وسبيلا :

أَلَا فَاسْتَقْنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمِكْنَ الْجَهْرُ
فَعَيْشُ النَّمَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَضَرَ الدَّهْرُ
وَمَا الْعَبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبِيَا وَلَا الْعُغْمُ إِلَّا أَنْ يُتَعَمَّعِيَ السُّكْرُ
فَبُحِّ بِاسْمٍ مِنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَغِيرِ مَجَانَةِ وَلَا فِي مُجُونِ لَيْسَ يَتَّبِعُهُ كَفْرُ

ولا تحسبن أبا نواس شاذًا في هذا أو منتحلا إياه انتحالا ، وإنما هو أثر البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا ، فيقول :

وَقَاتِلْ هَلْ تَرِيدُ الْحَجَّ قُلْتُ لَهُ نَعَمْ إِذَا فَنَيْتَ لَذَاتُ بَعْدَازِ
أَمَّا وَقَطْرُ بُلٍّ مِنْهَا بَحِيثُ أَرَى فَفَنَةُ الْفَرْكِ مِنْ أَكْنَفِ كَلَوَازِ
فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْكِرْحُ الَّتِي جَمَعَتْ شُدَّازَ بَعْدَادَ مَا هُمْ لِي بِشُدَّازِ
فَكَيْفَ بِالْحَجِّ لِي مَا دُمْتُ مُنْعَمًا
وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بَعْدَادِ تُخَلِّصُنِي كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِي مِنْ طَيْرِ نَابَازِ

ويقول بعد أن حج :

قَالُوا تَنْسَكُ بَعْدَ الْحَجِّ قُلْتُ لَهُمْ أَرَى وَأَرْجُو وَأَخْشَى طَيْرَ نَابَازِ
أَخْشَى فَضَيْبَ كَرْمٍ أَنْ يُنَازِعَنِي رَأْسَ الْقَطَارِ وَإِنْ أَسْرَعْتُ إِغْدَاذَا
مَا أَبْعَدَ النَّسْكَ مِنْ قَلْبِ تَقْسَمُهُ قَطْرُ بُلٍّ فَقَرَى بَنِي فَكَلَوَازِ
فَإِنْ سَلِمْتُ ، وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ السَّلَامَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَعْدَاذَا

مَا شِئْتُ مِنْ بَلَدٍ دَانَ مَنَازَهُ
 وَفَحَا تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبَرِّ بَيْنَهُمْ
 تَقُولُ ذَا شَرِّهِمْ بَلْ ذَاكَ بَلْ هَذَا
 لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا حَادَيْتَ مَجْدِيهِمْ
 أَنْفَذْتَ بِالْتَّرِكِ وَالْأَرْكَانِ إِنْفَادًا
 هُنَاكَ لَا تَتَخَطَى الْأُذُنَ لِأَمَةٍ
 وَلَا تَرَى قَائِلًا مَنْ ذَا وَلَا مَادَا

فقد رأيت مما روينا ، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ، ولا في
 الحجون ابتداءً ، ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش في عصر وبيئة ، كانا يضطرانه
 إلى أن يرى هذا الرأي ، وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق بيته وبين خصومه
 وأنصاره - كما قلنا - أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التي يحياها ، على
 التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ، ولسنا نقول إنه مخطئ ، فقد
 يختلف الناس في أن الصراحة خير أو شر ، إذا كان موضوعها الإثم والحجون ،
 وليس يعيننا أن تكون صراحة أبي نواس شرّاً أو خيراً ، - وليس يعيننا الآن
 إثم أبي نواس أو مجونه ، أو بغضه للقديم وحبّه للحدث ، ليس يعيننا شيء
 من هذا في نفسه ، فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماماً ، ولا نعتقد أن
 أبا نواس يصلح قدوة أو إماماً في ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب
 مذهب المؤرخ ، ويخيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه ، ينتج لنا أن شعر
 أبي نواس في الخمر على ما فيه من جمال ففي يعجب الأدباء والنقاد ، كان يرمي إلى
 غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد في الأدب : والاعتراف بالجديد في الحياة ،
 بل نستطيع أن نوجز فنقول ، كان شعر أبي نواس كله ، رفضاً للقديم في كل
 شيء ، وكلفاً بالجديد في كل شيء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبي نواس في الخمر ، لا ينبغي أن ننصرف عن
 هذا البيت من شعره ، دون أن نشير إلى ما له من المقطوعات ، والقصائد
 التي تنظر إليها في نفسها النظر الفني الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب
 بها وتبسط عنها ، فتقرأها ، وتقرأها ، وتميل إلى حفظها ، وتميل إلى أن تسمعها
 في الغناء .

كثير جداً هذا النوع من شعر أبي نواس في الخمر ، وكأنه كان يريد

حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين ، تمجيداً للخمر ، وتأييداً
لمذهبيه في الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزته المشهورة :

« دَع عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ »

وتذكر أنى قد حلتها في غير هذا المكان ، وتذكر قصيدته الأخرى :
أَعَادِلُ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأُغْرَبَا
وانظر إلى هذه القصيدة ، وقد كان فيها جدال بينه وبين مسلم بن الوليد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُجْرَةٍ فَارْتَاخَا وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَاخَا
أَوْفَى عَلَى شَرْفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ غَرْدًا يُصْفَقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاحَا
بَادِرٌ صَبَاحَكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ كَمُسُوفِينَ غَدَوْا عَلَيْكَ شِيخَاخَا
وَحَدِيثِينَ لَذَاتِ مُعَلَّلٍ صَاحِبٍ يَفْتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةٌ وَمَزَاخَا
نَهْتَهُ وَاللَّيْلُ مُلْتَمِسٌ بِهِ وَأَزَحْتُ عَنْهُ نِقَابَهُ فَانزَاخَا
قَالَ ابْنِي الْمِصْبَاحَ قُلْتُ لَهُ اتَّذُرْ حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْءُهَا مِصْبَاحَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزُّجَاجَةِ شَرْبَةً كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِرَاجِحَهَا عَطَلًا فَأَلْبَسَهَا الْمِرَاجُ وَشَاخَا
شَكََّ الْبِزَالُ فَوَادَهَا فَكَأَنَّمَا أَهَدْتُ إِلَيْكَ بِرِيحِهَا نُفَاخَا
صَهْبَاهُ تَفْتَرِسُ النَّفُوسَ فَمَا تَرَى مِنْهَا بَيْنَ سِوَى السَّبَاتِ جِرَاحَا
عَمَرْتُ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بَاخَا

وانظر إلى هذه المقطوعة ، التي تكلف أبو نواس فيها البديع ، فأحسن
التكلف :

عَادِلِي فِي الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحٍ لَا تَلْمُنِي عَلَى شَقِيقَةِ رُوحِي
لَا تَلْمُنِي عَلَى السُّتَى فَتَنْتَنِي وَأَرْتَنِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ
قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سَقِيمًا وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثُوبَ الصَّحِيحِ

إِنَّ بَدَلِي لَهَا لَبَدْلُ حَوَادِرِ وَأَقْتِنَانِي لَهَا أَقْتِنَانَهُ شَجِيحِ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التي لا يشك قارئها أنها قبلت أمس أو اليوم ، لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر :

تَفْتِيرُ عَيْنَيْكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْكَ تَشْكُو سَهَرَ الْبَارِحَةَ
عَلَيْكَ وَجْهٌ سَيِّئٌ حَالُهُ مِنْ لَيْلَةٍ بَتَّ بِهَا صَالِحَهُ
وَنَفْحَةُ الْخَمْرِ وَأَنْفَاسُهَا وَالْخَمْرُ لَا تَخْفَى لَهَا رَائِحَةُ
وَعَادَةُ هَارُوتُ فِي طَرْفِهَا وَالشَّمْسُ فِي مَفْرَقِهَا جَانِحَةُ
تَسْتَقْدِحُ الْعُودَ بِأَطْرَافِهَا وَنَعْمُهُ فِي كَيْدِي قَادِحَةُ

وانظر إلى هذه الأبيات أيضاً وحدثني ، أليست وضعت لتغني :

أَلَهُ بِالْبَيْضِ الْمِلَاحِ وَبَقَيْنَاتٍ وَرَاحِ
لَا يَصُدُّكَ لَاحٍ هُوَ عَنْ سُكْرِكَ صَاحِ
لَيْسَ لِلَّهِمْ دَوَا كَأَغْتَبَاقٍ وَأَعْطَبَاحِ
فَلَعَمْرِي مَا يَدَاوِي السُّهُمُ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ

ولو أني أردت أن أروي لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت ، ولكنني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد ، وقد أعجب بها العلماء والنقاد في القرن الثالث ، لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده ، وأحسنه إحساناً عظيماً ، وأعجب بها أنا ، لأن أبا نواس أراد أن يبكي الأطلال والديار فبكاها ، ولكنه لم يبكي أطلال البادية ، وإنما يبكي أطلال الحاضرة . لم يبكي أطلال حتى ارتحل ، وإنما يبكي أطلال الشرب وأصحاب اللهو ، بعد أن فرغوا من لهُوم ، وانصرفوا عن ملهاتهم ، فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار ، فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النوى ولا الوتد ، وإنما يذكر ما ستسمع :

وَدَارِ نَدَامِي عَطَلُوهَا وَأُدْلَجُوا بِهَا أَثْرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبٍ مِنْ جَرِّ الزُّقَاقِ عَلَى التَّرَى وَأَضْفَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَدْتُ عَنْهُمْ
 وَلَمْ أُدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ
 وَأَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ
 تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسَجَدِيَّةِ
 قَرَارَتِهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابِهَا
 فَلِخُمْرٍ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا
 وَإِنِّي عَلَى أُمَّتَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ
 بِشَرْقِيَّ سَابَاطِ الدِّيَارِ الْبَسَائِسُ
 وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسُ
 حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
 مَعِيَ تَدْرِيهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسُ
 وَاللِّمَاءُ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَالِنِسُ

أَرَأَيْتَ إِلَى هَذِهِ الْآثَارِ الَّتِي تَرَكَهَا جَرِ الدَّنَانِ ؟ أَرَأَيْتَ إِلَى هَذَا الرِّيحَانِ جَنِيهِ
 وَيَابَسِهِ ؟ هَذِهِ هِيَ أَطْلَالُ أَبِي نَوَاسٍ ، ثُمَّ أَنْحَسَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ شَيْئًا مِنْ
 الْمِيلِ إِلَى الْفَرَسِ وَالْإِعْجَابِ بِهِمْ ، وَالْحَزِينَ إِلَى عَهْدِهِمُ الْقَدِيمِ ! ثُمَّ أَتَرَى وَصْفَ
 الْكَأْسِ وَمَا فِيهَا مِنْ صُورَةٍ ، وَتَقْسِيمَ هَذِهِ الصُّورَةِ بَيْنَ الْخَمْرِ وَمَزَاجِهَا !
 ثُمَّ انظُرْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِهِ أَبُو نَوَاسٍ إِحْدَى قِصَائِدِهِ ، وَانظُرْ
 إِلَى مَا فِيهِ مِنْ هَذِهِ السَّخْرِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ بِأَصْحَابِ الْأَطْلَالِ وَالْبَاكِينَ عَلَيْهَا ، بِامْرئِ
 الْقَيْسِ وَأَصْحَابِهِ :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ وَاقِفًا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسٍ
 تَصِفُ الرَّبْعَ وَمَنْ كَانَ بِهِ مِثْلَ سَلْمَى وَلُبَيْنَى وَخَسَنٍ
 أَتْرَكَ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جَانِبًا وَاصْطَبِخَ كَرْخِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسِ

هَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ شَعْرِ أَبِي نَوَاسٍ فِي الْخَمْرِ ، لَمْ نَتَكَلَّفْ اخْتِيَارَهَا ، وَلَا نَشْكُ
 فِي أَنْ لَأَبِي نَوَاسٍ خَيْرًا مِنْهَا ، وَلَكِنَّا أَطْلَنَّا فِي هَذَا الْبَابِ ، فَلَنُنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى
 الْغَزْلِ فِي الْأَسْبُوعِ الْآتِي .

الغزل في شعر أبي نواس (١)

غزله بالنساء - غزله بالعلمان -
الإمام في بغداد - الحرائر في العصر
العباسي - حبه لحنان .

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتمجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثاً ، وإنما وصفها وسيلة إلى إعلان رأيه في تجديد الأدب ، وإعلان مذهبه في المحبون ، وإعلان ما يكن للخمر من حب ، وما يختصها به من كلف .

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل ، ولكنني أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور ، لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وإنما سلك سبلاً أخرى ليس يباح لنا ، في صحيفة سيارة ، أن نسلكها معه ، أو نتبعه فيها .

لأبي نواس غزلان : غزله بالنساء ، وغزله بالعلمان ، وهو مجيد في الثاني ، محسن الإحسان الفني كله ، صادق أيضاً أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب ، إلا في كتاب مخصص لأبي نواس ، يقرؤه الخاصة ، ولا تصل إليه يد العامة إلا مصادفة وبعد مشقة .

أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الرديء ، ولعلك إذا أردت أن تميز هذا الغزل ، أو تصفه بوصفه الصحيح ، لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم ، وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين وكان يتغزل بالنساء ، وإنما كان مازحاً ، أو بعبارة أصح كان مخادعاً ، وكان كذاباً ، كان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً ، يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ، ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن ، حتى لا يفوته هذا الفن . وفي الحق أنه لم يقصّر في هذا الفن ، فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ،

(١) نشرت بالسياسة في ١٨ من ذي الحجة سنة ١٣٤١ - أول أغسطس سنة ١٩٢٣ .

وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة ، فأجاد الوصف ، وأتقن التصوير ، ولكنه لم يصف النساء جميعاً ، وإنما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف ، ولا إلى البر والصون ، وإنما كانت طائفة مبتدلة ممتهنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكده يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للحرائر منهن ، وإنما عرض للإماء ، فأحسن وصفهن ، وترك لنا منهن صورة إن لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق ، فهي قريبة جداً من الحقيقة الواقعة ، عرض للإماء ولطائفة بعينها من الإماء ، لهذه الطائفة التي كانت تتألف من إماء مهذبات ، قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ، ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حيثنذ بطرف لا بأس به ، فكن يشين لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكن يمتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل في هذا الحديث .

كان الإماء إذن مظهر المرأة في بغداد ، ولكنه كان مظهرأ سيئاً جداً من جهة ، وحسناً جداً من جهة أخرى ، كان مظهرأ سيئاً ، لأنهن كن مبتدلات خليعات ، يتهاكن على الخلاعة ، ويسرفن في الخجون ، ويتخذن من تهاكن على الخلاعة ، وإسرافهن في الخجون سلاحاً قوياً ، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن الحرائر المحصنات حرباً غير متكافئة . وكن مظهرأ حسناً لأنهن كن أدبيات عالمات ، يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها .

ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر ، بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس ، وبما نرى في الأغاني وغير الأغاني ، مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة ، وانحطاطهن الخلقى من جهة أخرى ، يجب القصد والاحتياط ؛ لأن الكثيرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة ، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة ، وإنما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين ، فيتخذ فيها تجارة

وهو ، كما يتخذ تجارة وهوأ فاخر الأثاث وحسن الرياش .

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة ، وإنما يمثلن الرجل الحر ، فقد كن له لذة وهوأ ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة ، تمثلها أحسن تمثيل ، فلو أن هؤلاء الإماء اللاتي ذكرهن أبو نواس كن يحبين اللهو ، ويتهاككن على المحبون ، ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر ، لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا ، أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كان في جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بنى أمية شعراء يحبون الفتك ، ويتحدثون به ، فلامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير ، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول ، حتى في الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلاً جداً ، بالقياس إلى شعرهم العفيف ، وكان الشعراء الصادقون في الحب ، المؤثرون للعفة والظهارة في كل ما يقولون ، كثيرين جداً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين ، ذلك لأن سلطان الإماء كان ضعيفاً جداً ، أو لم يكن موجوداً في هذه العصور ، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون كرامتهم على لذاتهم ، فكانوا يؤثرون نساءهم على إماءهم . أما في أيام بنى العباس فقد تيزرت الحال تغيراً شديداً ، كثر الإماء كثرة فاحشة ، وتفوقن تفوقاً فاحشاً ، في الأدب والشعر والغناء ، وفي ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال ، فهالكوا على اللذة ، واستبقوا إلى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات ، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة ، من الإشراف على حياة الأسرة في عفة وكرامة ، ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا في اتخاذ الرقيق ، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات ، فكان هذا الفساد العظيم ، الذي يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان . . . أتظن أن أبا نواس كان يستطيع أن يقول في حرة محصنة مثل هذه القصيدة :

وَنَابِهٍ فِي الْهَوَى لَنَا نَابِي قَطَعَ بِالْهَجْرَانِ أَنْفَاسِي

لَسْتُ لَهَا وَاصِفًا مَخَافَةَ أَنْ
أَكْثَرَ وَصَفِي لَهَا شِكَايَةَ مَا
يُطْمَعُنِي لِحَظْهَا وَيُوْنِسُنِي
فَصُرْتُ بِاللَّحْظِ مِنْ مُعَذِّبِي
أَسْعَدُ يَوْمٍ لَهَا حَظِيْتُ بِهِ
لِلذِّكَ الْيَوْمِ مَا حَيَّيْتُ وَمَا
تَقُولُ لِي وَالْمُدَامُ مُرْسَلَةٌ
هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النَّعَاسَ فَقَدْ
قُلْتُ لَهَا فَأَبْتَدِي وَهَاتِي فَمَا
وَعَايَتِي أَنْ أَنْالَ فَضْلَتَهَا
ثُمَّ أَظُنُّ الْعِذَارَ نَبَهَهَا
قَالَتْ فَدَعُ عَنْكَ الْاِحْتِيَالَ لِمَا
أَعْرَضْتُ عَنْهَا وَقَدْ فَهِمْتُ لَكِي
ثُمَّ دَعَمْتُ الْمُدَامَ مِنْ كَثَبٍ
فَاحْتَلَبْتُ زِقْنًا فَمَجَّ بِهَا
ثُمَّ تَحَسَّتُ حَتَّى إِذَا ثَمَرَبْتُ
نَازَعَمَهَا الْكَأْسَ فِيهِ فَضْلَتَهَا
فَكَادَتْ النَّفْسُ لِلشَّرُورِ بِهَا
يَعْرِفَ مَا فِي جَمَاعَةِ النَّاسِ
فِيهَا قَضَى اللَّهُ لِي عَلَى رَأْسِي
بِالْفَلْظِ، مِنْهَا فُوَادُهَا الْقَاسِي
وَالْفَلْظِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَاسِ
مَقَالَهَا لِي وَاسْتُ بِالنَّاسِي
تَرْجَمَ قَوْلِي سَوَادَ أَنْفَاسِي
تَفِيضُ حَوْلِي نُفُوسُ جَلَّاسِي
طَابَ انْضِوَاعُ الْمُدَامِ وَالْأَسِ
حَسَوْتُ مِنْهَا فَإِنِّي حَاسِي
فِي الْكَأْسِ مِنْ شُرْبِهَا أَوْ الطَّاسِ
وَمَا بِهَا قَدْ أَرَدْتُ مِنْ بَاسِ
أَرَدْتُ سُكْرِي لَهُ وَإِنْعَاسِي
تَحَسَّبَ أَنِّي لِقَوْلِهَا نَاسِي
وَاللَّيْلُ ذُو سُدْفَةٍ وَإِدْمَاسِ
فِي الْكَأْسِ رَاحًا كَضْوَاءِ مِقْبَاسِ
نِصْفًا كَمَا قَيْسَ لِي بِمِقْيَاسِ
فَفَزْتُ بِالْكَأْسِ بَعْدَ إِمْرَاسِ
تَخْرُجُ بَيْنَ الْمُدَامِ وَالْكَأْسِ

أترى إلى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة
الكأس ؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية في اجتدابه إليها ، وترغيبه
فيها ، تطمعه حيناً ، وتؤيسه حيناً آخر ؟ بل أترى إلى امرأة حرة محصنة
تبتذل نفسها ، فتنزول إلى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وإنما هي أمة من

الإماء ، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتي بذلن أنفسهن ، فابتذلن الرجال ، ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقاً ، ومتحدثاً عن عاطفة قوية متقدمة في أكثر الأحيان ، حينما كان يذكر هؤلاء النساء ، أو يتغزل بهن ، وإنما كان يترضاهن ترصياً ، ويتملقهن تملقاً ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجرّونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى .

أضف إلى هذا أن أبا نواس كان معتدلاً جداً في الميل إلى النساء ، وكان مسرفاً جداً في ميل آخر . . . فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء ، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل ، إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لا أريد التكلف اللفظي ، وإنما أريد تكلف المعنى ، وانتحال الحب .

وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره في « جنان » ؛ فقد يظهر أنه كلف بها حقاً ، وهام بها بعض الهيام ، وتجشم في سبيلها ما لا يتجشمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصداً ولا عفيفاً في كل ما قال في « جنان » ، وإنما أسرف وورط نفسه في شيء من الإثم ، فانظر إلى هذه الأبيات :

وَعَاشِقَيْنِ التَّفَّ خَدَاهُمَا عِنْدَ التِّثَامِ الحَجْرِ الأَسْوَدِ
فَالْتَقِيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِمَا كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوْلَا دِفَاعُ النَّاسِ إِيَّاهُمَا لَمَا اسْتَفَاقَا آخِرَ المُسْنَدِ
قُلْنَا كَلَانَا سَاتِرٌ وَجْهَهُ يَمَّا يَلِي جَانِبَهُ بِالْيَدِ
نَفَعَلُ فِي المَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ الأَبْرَارُ فِي المَسْجِدِ

وليس من شك في أنهما كانا على موعد ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي أَفْنَيْتُ عُمْرِي بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبِهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَبًا إِلَيْهَا يُقَرِّبُنِي وَأَعْيَتُنِي الأُمُورُ
حَبَبْتُ وَوَقَلْتُ قَدْ حَجَّتْ جِنَانُ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا المَسِيرُ

وأنا أحسب أن حب أبي نواس بلخان لم يكن من الحب الصادق العفيف ، وإنما كان نوعاً من الأمل ، يتحرق الرجل لتحقيقه ، ويعسر عليه هذا التحقيق ، فأما إثارةها بالخير ، وتقديم لذتها على لذته ، وأمها على أمره ، فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلاً ، وهذه الأبيات أصدق دليل على ذلك :

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَاتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَيْبِكِي فَيُذِرِي الدَّرْمِنَ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْتَابِ
أَبْرَزَهُ الْمَاتَمُ لِي كَارَهَا بِرَغْمِ بَوَابِ وَحُجَابِ
لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَحْبَابِهِ وَكَانَ أَنْ أَبْصِرَهُ دَائِي

أتظن أنه يحبها حقاً حين يتمنى أن يموت أحبابها في كل يوم ، لتظهر معولة ، نادبة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ أأنت ترى في هذا أن الرجل كان أثراً مسرفاً في حب نفسه ولذته ، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة ، مهما تكلفت هذه المرأة في هذا من شر ، واحتملت من خطوب ! لم يكن أبو نواس إذن صادقاً في حب النساء ، وليس شعره صادقاً في تمثيل النساء كما هو صادق في تمثيل الرجال ، ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية في بغداد أيام بني العباس .

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر ، وإذن فن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق ، وأن نعرض في شيء من التفصيل لمن عرف من هؤلاء الإماء اللاتي تعشقهن أبو نواس . ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر .

الغزل عند أبي نواس^(١)

صدق الغزل الأموي - تكلف الغزل

العباسي - الغزل بالغلطان .

بعيداً جداً ما بين هذا الغزل النُواسي العباسي ، الذي أشرت في الفصل الماضي إلى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الأموي العربي ، الذي أشرت في فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته .

نعم ! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النُواسي ، وبين ذلك الغزل الذي كان ينشره جميل أو كُثَيْبِر أو عمر بن أبي ربيعة . الفرق عظيم جداً ، وليس عظيم هذا الفرق شيئاً غريباً في نفسه ، فيكفي أن تنظر إلى العصر الأموي والعصر العباسي من جهة ، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين ، ونفسية أبي نواس من جهة أخرى ، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغي أن يكون غريباً ، بل ينبغي أن يكون واجباً محتوماً . يجب أن تنظر إلى العصرين ، لترى في أولهما ، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة ، شذاجة ظاهرة ، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ، ولم ينته إلى نتائج المعقولة . ولترى في ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلاً قليلاً من عربيتها ، وتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس ، التي كانت تمد على العراق ، وعلى بغداد بنوع خاص ، فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها ، وكل ما فيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين ما في نفس الأجناس العربية من صلة .

يكفي أن تنظر إلى هذا كله . لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسي عامة ، وبين الغزل الأموي عامة ، فإذا فهمت هذا ، وعرفت له أثره في نفس أبي نواس ، وجب عليك أن تنظر إلى أبي نواس نفسه ، وإلى ما قدمت من حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموي ،

(١) نشرت بالسياسة في ٨ صفر سنة ١٣٤٢ - ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

وإلى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحاً .

كان « جميل » وأمثال « جميل » قوماً غزليين بطبيعتهم ، غزليين لأنهم يحبون النساء ، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها ، فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم ، حتى لا يعيشون إلا به وله ، وحتى لا يصدرون إلا عنه ، ولا يردون إلا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا إذا ذكروا النساء ، أو تغنوا بحبهن ، وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا في الوصف ، وكانوا فيه أقوياء .

ثم كان « كُثَيِّر » وأمثال « كثير » يحبون النساء ، ويحبون ذكر النساء يتخذونه فنناً ، ويحاولون الإجادة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم ، لأنهم كانوا يتأثرونهم ، ويسلكون سبيلهم ، ويريدون أن يخذعوا الناس عن أنفسهم ، وأن يمثلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقاً ، كان الأولون صادقين ، وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يجرموا الصدق حرماناً تاماً .

أما عمر بن ربيعة ، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية ، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عنصرية ، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العنصرية ، لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل الأعلى للجمال والحب ، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبي ربيعة رجلاً يحب الحياة ، ويحب المرأة ، لأنها زينة الحياة ، أو لأنها اللذة في الحياة ، وكان صادقاً في حب المرأة ، من حيث هي لذة الحياة ، فكان غزله على بعده من العنصرية أو من الأفلاطونية ، كما يقول المحدثون ، مؤثراً ، لأنه كان صادقاً ، ولأن كان يترجم عن عواطف صحيحة ، تؤثر في نفس الشاعر ، وتؤثر في حياته العملية أيضاً . . . كذلك كان شعراء بني أمية ، سواء منهم العنريون حقاً ، ومن تكلفوا العنصرية ، ومن

اعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلا إلى اللذات ، وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً ، وما كان يستطيع أن يكون عذرياً ، وهو الرجل الذي شك في كل شيء ، أو قل أنكركل شيء ، ولم يؤمن إلا بالحق واللذة ، يلتمسهما حيث يجدهما ، لا يتقيد في ذلك بحرج أو جناح ، لم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً ، وإنما كان يسخر من العرب ، ومما كان العرب يتكلفون ، لم يكن يتكلف العذرية ، وإنما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر بن أبي ربيعة ، لم يكن أبو نواس يحب النساء ، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً ، حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج ، على رغم إلحاحهم عليه ، وتوسلهم إليه . لم يفلحوا ، لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ، ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة ،

لم يكن إذن يحب النساء ، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن ، أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل ؛ فالغزل فن من فنون الشعر . يجب على الشعراء الخبيدين أن يطرقيه ، ويأخذوا منه بنصيب ، وقد طرقه أبو نواس ، وأخذ منه بنصيب ولكننا نظلم أبا نواس إن قلنا : إنه لم يكن قط صادقاً في غزله ، نظلمه لأنه كان صادقاً في غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة في صدق العاطفة ، وإجادة الوصف ، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : أحدهما الفرق بين العصر العباسي والعصر الأموي ، والآخر أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء ، وإنما كان يجيد الغزل بالغلما . . . فلأبي نواس في هذا الباب ما لابن أبي ربيعة في الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس في هذا الباب أشعر من أبي ربيعة في الغزل بالنساء ، ولست أستدل على هذا إلا بشيء واحد ، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلما على أن تعجب بهذا الغزل ، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبي ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شيء يحملك على أن تعجب بغزله ، فطبيعتك تحب إليك ذكر النساء والتغزل بهن ، وإذا

أسرف ابن أبي ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين ، فليس في هذا الإسراف خروج عن الطبيعة ، أو تجاوز لها ، وإنما هو جزء من الطبيعة ، أو قل إنه الطبيعة بنفسها ، جاء الدين والأخلاق لتقيدها وإصلاحها .

أبو نواس إذن مجيد حين يتغزل بالغلمان ، ولكنه فاطر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء ، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية في نفسه ، أو حباً صحيحاً ، وإنما يصف ضروراً من اللهو ، وفنوناً من المحون ، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف ، لا لأنه يشعر به ، بل لأنه شاعر مجيد ، يتكلف الشيء فيحسنه أحياناً .

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسرتة في الفصل الماضي ، وهو أنه لم يتغزل بحرة ، وإنما وقف غزله كله على الإمام ، وذلك واضح ؛ فقد عرفنا أنه يكره الزواج ، وعرفنا أنه كان ماجناً مسرفاً في المحون ؛ فلم يكن من السهل عليه ، ولا من الميسور له ، أن يخالط الحرائر ، أو يتحدث إليهن ، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإمام ، ويسرف في مداعبتن ، ولا سيما بعد ما قدمت لك في الفصل الماضي من رقى الأمة في هذا العصر ، وتفوقها على الحرة ، وتهالكها على اللهو والمحون . فإذا عرفنا هذا كله ، وأنزلنا غزل أبي نواس منزله الصحيحة ، كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فإذا أردنا أن نبحث عن مقياس لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فليس أمامنا إلا وصفه للخمر ، وغزله بالغلمان ، وإنما نبحت عن غزله بالنساء ، لنعرف شيئاً من أخلاق العصر ، ومن أخلاق الإمام فيه ، ولنعرف أيضاً شيئاً من ظرف النساء في بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء في بغداد ، ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ .

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية ، حياة المحون والدعابة تمثيلاً صحيحاً :

أَرْسَلَ مَنْ أَهْوَى رَسُولًا لَهُ
 قَفَلْتُ أَهْلًا بِكَ مِنْ مُرْسَلٍ
 جَمَشْتُهُ فِي كَلِمَةٍ فَاثْتَمَى
 مِثْلِكَ لَا يَعْشَقُ مِثْلِي وَقَدْ
 وَجَاءَتْ الرُّسُلُ بِأَنْ آتِنَا
 قَالَتْ : تَعَشَّمَتْ رَسُولِي لَقَدْ
 ذَاكَ وَهَذَا لَكَ يَا غَادِرًا
 مَنْ يَأْمَنُ الذُّبَّ عَلَى مَعْرَةٍ
 قَفَلْتُ فِي رَفْقِي وَفِي نُودَةٍ
 الذُّبُّ لَا يُؤْمَنُ لَكِنَّهُ
 هُمْ طَرَحُوا يُوسُفَ فِي جُبِّهِ
 إِلَى وَالْمَنْسُوبُ مَحْبُوبُ
 وَمِنْ حَبِيبِ زَانَهُ طِيبُ
 وَقَالَ هَذَا مِنْكَ تَجْرِبُ
 هَامَ بِهِ بِيضَاهُ رُعُوبُ
 فَجِئْنَا وَالْقَلْبُ مَرُوعُوبُ
 بَدَتْ لَنَا مِنْكَ الْأَعَاجِبُ
 فِي دَفْتَرِ الْحَاصِلِ مَكْتُوبُ
 أَهْلٌ لِأَنْ يَخْفَرَهُ الذِّيبُ
 مَقَالَةٌ قَدْ قَالَ يَعْقُوبُ
 عَلَيْهِ فِي يُوسُفَ مَكْذُوبُ
 عَمْدًا وَقَالُوا خَانَهُ الذِّيبُ

أترى إليه كيف كان يحب صاحبه حباً قوياً صادقاً ، حتى خانها في رسو لها ، فداعب هذا الرسول ، وهو بعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ، ولكنه حين يلقى حبيبه ، ويريد أن يدافع عن نفسه ، يضع نفسه موضع الذئب في قصة يوسف ، ولكن أعجب من هذا أن تكتفي صاحبه منه بهذا الدفاع ، بل أن تلومه في هذا الرفق واللين ، ولكننا في بغداد ، وبين قوم يلهون لا أكثر ولا أقل . وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي يسخر فيها من نفسه ، فيحسن

السخرية :

وَقَصْرِيَّةً أَبْصَرْتُهَا فَهَوَيْتُهَا
 فَلَمَّا تَمَادَى هَجْرُهَا قُلْتُ وَاصِلِي
 قَفَلْتُ لَهَا لَوْ كَانَ فِي السُّوقِ أَوْجُهُ
 لَغَيَّرْتُ وَجْهِي وَاشْتَرَيْتُ مَكَانَهُ
 وَإِنْ كُنْتُ ذَا قُبْحٍ فَإِنِّي شَاعِرُ
 هَوَى عُرْوَةَ الْعُدْرِيِّ وَالْعَاشِقِ النَّهْدِي
 فَقَالَتْ بِهَذَا الْوَجْهِ تَرْجُو الْهَوَى عِنْدِي
 تُبَاعُ بِنَقْدِ حَاضِرٍ وَسَوَى نَقْدِ
 لَعَلَّكَ أَنْ تَهْوَى وَصَالِي مِنْ بَعْدِ
 فَقَالَتْ وَلَوْ أَصْبَحْتَ نَابِغَةَ الْجَعْدِي

ثم انظر إلى هذا الظرف :

سَأَلْتُهَا قَبْلَةَ فَفَزْتُ بِهَا
فَقُلْتُ يَا مُعَذِّبَتِي
فَأَبْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا
لَا تُعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً
بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرَبِي
يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

وانظر إلى هذه القصيدة ، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ، لأنها تمثل رقة بغداد ، وتمثل هذه التزعة الدينية التي تجدها في العامة ، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن ، وسور القرآن ، وبالحيج ، ومناسك الحج ، حين ينبغي أن يقسموا بشيء آخر :

مَالِي وَاللِّعَازِلَاتِ زَوْقِنَ لِي تَرَهَاتِ
سَعِينَ مِنْ كُلِّ فَجَجَ يَلْمَنَ فِي مَوْلَاتِي
يَأْمُرُنِي أَنْ أَخْلِي مِنْ رَاخِي حَيَاتِي
وَذَاكَ مَالًا وَلَا لَا يَكُونُ حَتَّى الْمَمَاتِ
و « اللَّهُ » مُنْزِلِ « طَه » و « الطُّور » و « الذَّارِيَاتِ »
و « الر » و « صَادٍ » و « قَاف » و « الْحَشْرِ » و « الْمُرْسَلَاتِ » (١)
و « رَبِّ » « هُودٍ » و « نُونٍ » و « النُّورِ » و « النَّازِعَاتِ »
لَا رُمْتُ هَجْرَكَ حَيَّ حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُؤَاتِي
تَجَمَّعُوا عَلَّمُونِي يَا إِخْوَتِي كَيْفَ آتِي
يَا وَيْلَنَا أَيُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْحَشَى وَاللَّهَاهِ
مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ تُطْفَى تَطْفَى فِي جَانِحَاتِي
أَنَا الْمَعْنَى وَمَنْ لِي يَرُنِي لِطُولِ شِكَايَتِي

(١) يريد ألف لام را ، وهو مفتتح سور من القرآن .

الظَّاهِرُ العَبْرَاتِ البَاطِنُ الزَّفَرَاتِ
 مُنِيْتُ بِالْمُتَحَرِّيِّ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَسَاتِي (٢)
 يَا سَائِلِي عَنْ بَلَائِي أَنْظِرْ إِلَى لِحَظَاتِي
 يَخْفَى الْهَوَى فِي سُكُونِ الْمِحْجَبِ وَالْحَرَكَاتِ
 وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ أَعْمَى عُرِفْتُ فِي سَحَابَاتِي
 حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَاتِ فِي لُجَّةِ الْفُلُوتِ
 وَمُنْتَنٍ بِالْهَدَايَا يُطَعْنَ فِي اللَّبَّاتِ
 وَمَا تَوَافَى بِجَمْعٍ وَ«الشَّعْبِ» فِي «عَرَفَاتِ»
 لَوْ جَاءَ مِنْكَ رَسُولٌ يَقُولُ نَفْسَكَ هَاتِ
 أَقَلْتُ هَاكَ خُذْهَا مُسَلِّمًا لَوْ قَاتِي
 وَبِلَاهُ نَارُ التَّصَابِي رَقَّتْ إِلَى اللُّهُوَاتِ
 فَأَبَكْتَ الْعَيْنَ مِنِّي بِمِثْلِ مَاءِ الْفَرَاتِ
 وَصَاحِبِ كَانَ لِي فِي هَوَايَ ذَا تَهْمَاتِ
 لَمْ يَطْلِعْ طَلَعَ شَأْنِي إِلَّا اتِّهَامَ هَنَاتِي
 فَبَيْنَمَا نَحْنُ نُمْسِي نَسِيحُ فِي الطَّرْفَاتِ
 إِذْ قِيلَ شَمْسُ ضُجَاهَا فِي أَرْبَعِ عَطْرَاتِ
 فَقُلْتُ شَمْسُ وَرَبِّي قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَاتِ
 وَقَدْ نَسِيْتُ الَّذِي بِي مِنْهَا مِنَ الْكِرْبَاتِ
 لِرِيحِ حُبِّ جَرَّتْ لِي فَأَنْشَأْتُ عَبْرَاتِي
 وَأَنْزَفْتُ مَاءَ عَيْنِي وَأَصْعَدْتُ زَفْرَاتِي

وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنِي كَمِثْلِ نَفْسِ الدَّوَاةِ
فَالْحُبُّ فِيهِ هِنَاةٌ مَوْضُوعَةٌ لَهْهِنَاةِ
يُعْقِبُنْ طَوْرًا سُرُورًا وَنَارَةً حَمْرَاتِ

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث إلى النساء ، بلغة النساء ، ووجهة النساء !

ولقد أراد أن يسلك سبيل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، فيما كانا يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما ، فقال في ذلك شعراً لا بأس به ، ولكن لا أروى لك منه إلا هذين البيتين ، لأن في أولهما إيجازاً ظريفاً ، وفي الآخر تمثيلاً لأمر بغداد :

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيْرَ أَنْ شِفَاهَنَا
وَوَدَعْتُمَا صُبْحًا وَلَمْ أُنْسَ صَدَّهَا
تَعَاطَتْ خَلِيطِي سُكَّرٍ وَعُقَارِ
وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتَمًا بِسِوَارِ

وانظر إليه كيف يمازح صاحبتة ، ويتمنى عليها الوصل ، وينكر عليها الهجر ، ويعدها بأن لا يكون ثقيلًا ، ولا مطيلاً إن وصلته . كل ذلك في بيت واحد ظريف ، وهو :

فَرَاغِي الْوَصْلَ فَإِنْ زُرْتِكُمْ
قَدَّرَ فُوقِي فَاحْلِقِي رَأْسِي

وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت منها بيتاً واحداً ، لأن لفظ « الأنفاس » فيه غريب قد نستقله :

إِنِّي عَشِقتُ وَمَا بِالْعِشْقِ مِنْ بَاسِ
مَالِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحَوْنِي سَفَهًا
مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَازَرْتُ مَالِكِي
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكِي زِيَارَتِكُمْ
وَلَوْ قَدَرْنَا عَلَى الْإِتْيَانِ حِثُّكُمْ
وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا فِي صَحَائِفِكُمْ
مَا مَرَّ مِثْلَ الْهُوَى شَيْءٌ عَلَى رَأْسِي
دِينِي لِنَفْسِي، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ
كَانَ أَوْجُهَهُمْ تُطَلَّى بِأَنْفَاسِ!
إِلَّا مَخَافَةَ أَعْدَائِي وَحُرَّاسِي
سَعِيًّا عَلَى الْوَجْهِ أَوْ مَشِيًّا عَلَى الرَّأْسِ
« لَا يَرَحِمُ اللَّهُ إِلَّا رَاحِمَ النَّاسِ »

ولأبي نواس من هذا شيء كثير ، لا أستطيع أن أرويه ، وتستطيع أنت أن تقرأه في ديوانه ، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب ، والغرور ، والدعابة ، والمجون ، والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص ما يلد وما يضحك ، ولكني قلت لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب . وأريد أن أختم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله ، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية ، أو ليخدع النساء عن أنفسهن ؛ على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة ، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس :

يَا مَنْ يُوَجِّهُ أَلْفَاطِي لِأَقْبَحِهَا لِأَنَّهُ سَاحِرُ الْعَيْنَيْنِ مَعشُوقُ
لَوْ كَانَ مَنْ قَالَ نَارٌ أَحْرَقَتْ فَمَهُ لَمَا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ

• • •

وسأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرود .

جد أبي نواس^(١)

المدح

وما رأيك في أن نترك القديم والحديد ، وكلاما لن يفيد ، ونعود إلى أبي نواس ، فنستأنف البحث عن شعره ، بعد أن انصرفنا عنه حيناً طويلاً ، على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس ، لن نترك القديم والحديد ، وإنما نوغل فيهما إيغالا ؛ فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصولاً طويلاً ، أثبتت — فيما نعتقد — أنه صاحب الحديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد أعدائه ، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل ، وبين الأدب العربي القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ويبني على أنقاضه شيئاً آخر ، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنها صادفت في نفسه هوى ، وفي قلبه ميلاً ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنه من أنصار القديم المشغوفين به ، الملحين في البكاء عليه .

ولكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معاً ، لأنه على حبه للحديد ، وإلحاحه في الدعوة إليه ، كان محبباً للقديم ، ملحاً في الحرص عليه ، كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين ، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب ، وما لنا نتحدث بشيء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة : إن انقسام الناس إلى أنصار الحديد وأنصار القديم ، فطرة في الناس ، تلزمهم في كل زمان ومكان ، إن كان لهم حظ من حياة ! وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الحديد ، وكان منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء في حبه ، وكان من المعقول أن يتحدث إليهم جميعاً شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون . بل ما لنا نذكر شيئاً كهذا ، ونحن نعلم أن الشاعر الخييد والكتاب البارع ، مهما

(١) نشرت بالسياسة في ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ - ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٤ .

يسرفا في حب الحديد والتهالك عليه ، فهما لم ينشأ من لا شيء ، وهما لن يستطيعا أن يقطعوا الصلة بينهما وبين القديم ، الذي غذاهما وأنشأهما ، فهما بطبيعة الحال يمثلان الحديد الذي يصبوان إليه ، ويمثلان القديم الذي نشأ منه .

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له ، قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ! ولنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم ، وليس من اليسير ولا من الممكن ، أن يخلص أبو نواس من هذا كله ، فيكون جديداً صرفاً في كل ما يقول .

فإذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والحديد ، ولن نستطيع أن نتحدث عن شاعر مجيد حقاً ، أو عن كاتب بارع حقاً ، إلا إذا تحدثنا عن القديم والحديد ، لأن إجادة الشعر ، والبراعة في الكتابة ، تستلزمان شيئين لا بد منهما (الأول) : الاحتفاظ بالخير من القديم ، (والثاني) : استغلال الحديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففي الشاعر المحيد والكاتب البارع شخصان : أحدهما قديم ، والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة ، هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالحديد ، ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة في عصر أبي نواس ، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهر وا مظهرين ، يكادان يختلفان اختلافاً تاماً : أحدهما مظهر المجدد المسرف في التجديد ، والآخر مظهر الحريص على القديم ، المسرف في الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة ، يعكفون فيها على لذاتهم ، ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة ، فيتصلون فيها بعامه الناس وأوساطهم ، وأصحاب الحرف والصناعات منهم ، ويتصلون فيها أيضاً بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبيحونها للناس ، ويمهدون لهم أسبابها ووسائلها ، من الخمارين والمغنين ، والحسان ، من الذكور والإناث ، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعاً

بلغته يفهمونها ويذوقونها، وتعبر حقاً عما يجدون ويشعرون . وأما عيشتهم الأخرى ، فهي تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشرف الناس في حياتهم الظاهرة الرسمية ، إن صح هذا التعبير ، وهم في هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ، ترضاهما الأخلاق ، وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمراء الناس وأشرفهم لغة شريفة مختارة ، ترتفع عن الابتدال ، وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف ، وعظم حظها من التصنع .

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا في حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق في حياتهم الثانية ، وهذا دأب الأجيال المختلفة ؛ فلك في بيتك وبين أصدقائك وخلاتك عيشة ولغة ، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة ، فليس عجباً إذن أن تقرأ لأبي نواس في الحمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب ، الذى هو مرآة النفس حقاً ، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هذا الشعر الذى رق لفظه ، ودق معناه ، وبرئ من التكلف ، وانحط في بعض الأحيان ، حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة ، وليس عجباً أن تقرأ لأبي نواس شعراً آخر قد قوى متنه ، واشتد أسره ، وتخيرت فيه الألفاظ تخيراً دقيقاً ، وتقيده فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ، ما كان ليتقيد بها في شعره الآخر .

وفى الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الحمر والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر ، لا يكتفى بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته ، وإثارة اللفظ السهل العذب ، للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ؛ فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها ، وأيسرها على الأذن ، وأقربها من النثر ، وألينها قياداً للمعنى . فإذا تحدث إلى الأمراء والأشرف عمد إلى اللفظ الضخم الفخم ، وإلى الأسلوب المتين الرصين . وإلى الأوزان الطوال ، التى لا تخلو من فخامة وجلال ، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث

به إلى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم إلى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها ؛ وفى هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حراً ، يرسل نفسه على سبيلها فلا يكاد يتقيد بشيء من ذلك الغزل ، والمجون ، ووصف الخمر ، والهجاء ، والآخِر هذا النحو الذى يقصد به إلى الجِدِّ وفنونه ، من مدح وثناء ، ووصف ، وفخر ؛ وفى هذا النحو يتمخِر الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن تناول العامه ، وتكسبه شيئاً من الأرستقراطية ، يلائم الموضوع الذى يقول فيه . وقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجُن ، ويتغزل ، ويصف الخمر ، ويهجو ، وحين يمدح ، أو يرثى ، أو يفخر ، فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وإنما يظهر الفرق عظيماً بين الرجلين . وأنت مضطر إلى أن تكون ناقداً بصيراً ، لتمييز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا ، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحي أو تكاد تنمحي فى هذا الشعر الجدى ، بحيث تلتبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جليلة كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب ، بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبي نواس أو فخره إلى غير أبي نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف إلى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره ، دون أن يكون خطؤك عظيماً من الوجهة الفنية ، لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجابة والإتقان قد وضعه الشعراء أمامهم ، فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، فإذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده ، فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ! فانظر إلى هذه الأبيات من شعر أبي نواس الجدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والمجون :

لَمَّا نَزَعَتْ عَنِ الْعَوَايَةِ وَالصَّبَا وَخَدَّتْ بِي الشَّدَنِيَّةِ الْمِذْعَانُ
 سَبَطُ مَشَافِرُهَا دَقِيقُ خَطْمِهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
 وَاحْتَازَهَا لَوْنُ جَرَى فِي جِلْدِهَا يَقُقُ كَقَمْرِ طَاسِ الْوَلِيدِ هِجَانُ

هو يصف ناقته التي حملته إلى ممدوحه الرشيد ، فيحب أن يسلك في وصف
 الناقة التي تحمله إلى ممدوحه طريق غيره من الشعراء الذين حملتهم النوق إلى
 الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وإنما يعنيه أن يتحدث
 إلى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب
 إلى الرشيد ناقه ، ولم تحمله إلى الرشيد إلا قدماءه ، ولكنه مضطر أن يسلك
 مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء الذين كانوا
 يتكلمون الأسفار الطوال ، ليلبغوا من يمدحون . ثم وازن بين الشعر الذي لا تكاد
 تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله :

دَمْعَةٌ كَاللُّؤْلُؤِ الرَّطِّ بِ مِّنَ الظَّرْفِ الْكَحِيلِ
 ذَرَفَتْ فِي سَاعَةِ الْبَيْتِ نِ تَلَى الْخَدِّ الْأَسِيلِ
 إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعُشُّ أَقُ فِي وَقْتِ الرَّحِيلِ

أتجد في هذا الشعر لفظاً غريباً ، أو معنى عويصاً ؟ أتشعر بأن بينك وبين
 قائل هذا الشعر من بعد الأمد ، ما بينك وبين قائل تلك الأبيات الثلاثة في
 وصف الناقة ؟ .

ثم أريد أن أروي لك من جد أبي نواس هذه القصيدة التي سيعسر عليك
 فهمها عسراً ، شديداً ، كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة
 وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور
 أمير المؤمنين :

أَيُّهَا الْمُنْتَابُ عَنْ غُفْرِهِ لَسْتَ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمَرِهِ
 لَا أَدُودُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرِهِ قَدْ بَلَوْتُ الْمَرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

فَاتَّصِلْ إِنْ كُنْتَ مُتَّصِلًا بِقُوَى مِنْ أَنْتَ مِنْ وَطَرِهِ
 خِفْتَ مَا تُورِ الْحَدِيثِ غَدًا وَغَدٌ أَدْنَى لِمُنْتَظَرِهِ
 خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ مَدَى سَفَرِهِ
 وَسَدَّتْهُ ثِيَابِي سَاعِدِهِ سِنَّةٌ حَلَّتْ إِلَى شَفَرِهِ
 فَاْمُضِ لَا تَمُنْ عَلَى يَدَايَ مِنْكَ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدَرِهِ
 رَبِّ فِتْيَانٍ رَبِّ بِأَمْرِهِمْ مَسْقَطَ الْعَيُوقِ مِنْ سَجَرِهِ
 فَاتَّقُوا بِي مَا يَرِي بِهِمْ إِنْ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حُدْرِهِ
 وَابْنِ عَمِّ لَا يُسْكَاشِفُنَا قَدْ لَيْسَنَاهُ عَلَى غَمْرِهِ
 كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجْرِهِ
 وَرُضَابٍ بَتُّ أَرْشَفُهُ يَنْقَعُ الظَّمَانُ مِنْ خَصْرِهِ
 عَلَيْنِهِ خُوطُ إِسْجَلَةٍ لِأَنَّ مَتْنَاهُ لِمُهْتَصِرِهِ
 ذَا وَمُعْبَرٌ مَخَارِمُهُ تَحْسِرُ الْأَبْصَارُ عَنْ قَطْرِهِ
 لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقْرِهِ

ثم يقول في وصف الفرس :

يَكْتَسِي عُنُونُهُ زَبْدًا فَنَصِيلَاهُ إِلَى نُحْرِهِ
 ثُمَّ يَعْتَمُّ الْحِجَاجُ بِهِ كَأَعْتِمَامِ الْفُوفِ فِي عُشْرِهِ
 ثُمَّ تَذُرُّهُ الرِّيحُ كَمَا طَارَ قُطْنُ النَّدْفِ عَنْ وَتْرِهِ
 كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا وَهُوَ أَمُّ تُنْقَضُ قُوَى أَشْرِهِ

ثم يتخلص إلى صاحبه فيقول .

ثُمَّ أَدْنَانِي إِلَى مَلِكٍ يَا مَنْ الْجَانِي إِلَى حُجْرِهِ
 تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَظَالِمَهَا ثُمَّ تَسْتَدْرِي إِلَى عَصْرِهِ

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِهِ !
فَاسْأَلُ عَنْ نَوْءٍ تُؤَمِّلُهُ حَسْبُكَ الْعَبَّاسُ مِنْ مَطَرِهِ

ثم يقول :

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقًا وَتَرَاءَى الْمَوْتُ فِي صُورِهِ
رَاحَ فِي ثِنْيِي مُفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَدْمَى شَبَا ظَفْرِهِ
تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَدْوَتَهُ ثِقَّةٌ بِالشَّبَعِ مِنْ جَزْرِهِ

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف في إثثار الغريب ، حتى كأنه أراد أن يبهر أبا عبيدة والأصمعي وأمثالهما ، وأن يحير أصحاب النحو والعروض ، بما تكلف من غموض ، وبما ركب من ضرورة شعرية ؟ وفي الحق أن اللغويين تعبوا في تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله .

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجْرِهِ

فإن مرجع هذا الضمير المذكور ليس بالواضح ولا الجلي ، وإن كان المعنى في نفسه واضحاً جلياً .

أليس معقولاً أن يقول بعض أئمة اللغة في أبي نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ! ففي هذا الشعر وأمثاله ما يرضى أنصار الغريب والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب الشاعر فيها ، من خير ما قال أبو نواس ، إذ فيها من دقيق المعنى وشريفه ما لا تكاد تجده في مدائحه الأخرى ، ثم في لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به ، وتميل إليه ، دون أن تستطيع تفسيره في سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد في إثثار الغريب أحياناً ، حتى تكاد لانفراق بينه وبين رؤبة والعجاج ، فانظر إلى شيء من هذه الأرجوزة ، التي مدح فيها الفضل بن الربيع :

وَبَلْدَةٍ فِيهَا زَوْرٌ
 مَرَّتْ إِذَا الذُّبُّ اقْتَفَرَ
 كَانَ لَهُ مِنَ الْجَزْرِ
 وَلَا تَعْلَاهُ شَعْرٌ
 عَسَفُهَا عَلَى خَطْرِ
 بِيَارِلٍ حِينَ فَطَرَ
 لَا امْتَشَكَ مِنْ سَدَرٍ
 كَأَنَّهُ بَعْدَ الضَّمْرِ
 وَأَنْجَجَ فِي فَحَسْرٍ
 يَحْدُو بِحَقْبٍ كَالْأَكْرِ
 مِنْهُنَّ تَوْشِيمُ الْجَدْرِ
 صَعْرَاهُ تُخْطِي فِي صَعْرٍ
 بِهَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَثَرِ
 كُلُّ جَنِينٍ مَا اشْتَكَّرَ
 مَيَّتُ النِّسَاءِ حَتَّى الشَّفْرِ
 وَغَرَّرَ مِنَ الْغَرْرِ
 يَهْزُهُ جِنَّ الْأَشْرِ
 وَلَا قَرِيبٍ مِنْ خَوْرٍ
 وَبَعْدَ مَا جَالَ الضَّفْرِ
 جَابُ رُبَاعِي الْمُثْفَرِ
 تُرَى بِأَثْبَاجِ الْقَصْرِ
 رَعَيْنَ أَبْكَارِ الْخُضْرِ

ثم يصل إلى المدح فيقول :

... ..
 خُوصًا يُجَاذِبُنَ الدُّجَرَ
 طَى الْقَرَارِيَّ الْجَبَرَ
 وَلَا السَّيِّحُ الْمُزْدَجَرَ
 إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصَرَ
 إِلَيْكَ كَلَفْنَا السَّفَرَ
 قَدِ انْطَوَتْ مِنْهَا السَّرَرَ
 لَمْ تَتَقَمَّدْهَا الطَّيْرُ
 يَا فَضْلُ لِلْقَوْمِ الْبَطَرَ
 وَلَا مِنَ الْخَوْفِ وَزَرَ

ثم يمضي في ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف ، شأن الذين ينحدرون من
 الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هذه الطلسمات ، ولكنني أرى أن
 الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب الذي إنما تتسع له المدارس والجامعات .
 على أني لا أريد أن تياس من أبي نواس ، فتعتقد أنه لا يؤثر إلا الغريب ،

فالحق أنه قد أثر الغريب أحياناً ، وأثر السهل اللين أحياناً أخرى . ولقد نجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لاحيطة فيهما ، ولقد نجد من مدحه ما فيه مجون مع احتياط ، وأحسب أن أفهم ذلك وتعليقه ميسوران إذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس ، فقد مدح أشخاصاً لم يكن من السهل أن يبتدئ مدحهم بالمجون ، أو أن ينزل في مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه ، ومدح أشخاصاً آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ، ويتجاوز الفكاهة إلى الدعابة ، فهو جاد حريص إذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجحد والهزل إذا مدح الأمين . ولعله اجترأ على الهزل في مدح الأمين بعد أن اتصل به ، وكثر اختلافه إلى مجالس لهو وشربه ، وهو يتردد كذلك بين الهزل والجحد حين يمدح هذا الأمين السمح ، الذي كان يطمع فيه الشعراء ، ويدلون عليه ، وهو العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر . وكثيراً ما داعب هذا الوزير الخطير ، الذي كان يهابه أيام الرشيد ، ثم طمع فيه أيام الأمين ، حين لان الخليفة له ، ويسر عليه في أمور كان يعسر فيها الرشيد ، وهو الفضل بن الربيع .

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق ، حين كان يعرض لمدح شابين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا ، لم يكن يرى مكاناً للكلفة بينه وبين ابني صديقه ونديمه ، الذي كثيراً ما خلصه من غضب الأمين ، وشفع له في مواقف حرجة ، اضطره إليها المجنون .

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعاً ، لأنه كان يحبهم ، ويدل عابهم ، ويطمع في الخير منهم ؛ ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ؛ لأن ميله إليهم لم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم ؛ وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك ، فيحتملونه احتمالاً ، ولا يضمرون له حباً صحيحاً . أما الصلة بينه وبين الخصب فسنعرض لها بشيء من التفصيل . في غير هذا الفصل .

ولكننا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب ، فتم
مقال اليوم بهذه الأبيات التي مدح بها أبو نواس العباس بن عبيد الله بن
أبي جعفر .

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ	فَسَقَى طَابَ الصَّبُوحُ
وَاسْقَى حَتَّى تَرَاني	حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ
قَهْوَةً تَذَكُرُ نُوحًا	حِينَ شَادَ الْفَلَكَ نُوحُ
نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى	طِيبُ رِيحٍ فَتَفُوحُ
فَكَانَ الْقَوْمَ مُهَيَّبِي	بَيْنَهُمْ مِسْكٌ ذَبِيحُ
أَنَا فِي دُنْيَا مِنَ الْعَالَمِ	بِأَسِ أَعْدُو وَأَرُوحُ
هَاشِمِي عَبْدِي	عِنْدَهُ يَغْلُو الْمَدِيحُ
عَلَّمَ الْجُودِ كِتَابُ	بَيْنَ عَيْنَيْهِ يُلُوحُ
كُلُّ جُودٍ يَا أَمِيرِي	مَا خَلَا جُودَكَ رِيحُ
إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا	أَبَدًا لَا تَسْتَرِيحُ
بِحَ صَوْتِ الْمَالِ مِمَّا	مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
مَا لِهَذَا آخِذٌ قَوْهَ	قَ يَدِيهِ أَوْ نَصِيحُ
جُدْتَ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى	قِيلَ مَا هَذَا صَحِيحُ
صُورَ الْجُودِ مِثَالًا	وَلَهُ الْعَبَّاسُ رُوحُ
فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادُ	وَهُوَ بِالْعَرِضِ شَحِيحُ

خاتمة القول في أبي نواس^(١)

المدح - الرثاء - الهجاء - الزهد

فصلنا القول في هزل أبي نواس ومجونه تفصيلاً ، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول في جدّه إجمالاً ، لا لأننا نؤثر هزل أبي نواس على جدّه ، ولا لأننا نريد أن نتملق هذا الميل العام ، الذي يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجد ، ويفضل ما يسر ويلهى ، على ما ليس له حظ من السرور واللهو ، بل لأننا نعتقد أن شخصية أبي نواس ، في حقيقة الأمر ، إنما هي شخصية شاعر هازل ماجن ، تظهر الظهور كله ، إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات ، والتغنى بآثار هذه اللذات ، فترى فيها حفة ونشاطاً ، وشيئاً يشبه التزق ، أو هو التزق ، وترى فيها جرأة غريبة ، وحرصاً قليلاً جداً على الاحتياط ، وصراحة لا تعدلها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره في الخمر والحجون والنساء ، ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم ، ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذى رويناك لك تخيراً دقيقاً ، وراعينا فيه أخلاق الناس في هذا العصر وميوهم ، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البرىء ، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددىن فى الدين ، والمستمسكىن بالأدب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين ، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبى نواس فى اللهو والحجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدىن ، وإنكار المنكرىن ، وغلو قوم آتهمونا بألوان من التهم ، وأضافوا إلينا ضرباً من الخروج على الدين والأخلاق ، والكىد لتارىخ الأمة العربىة المكىد .

ولو أننا روينا لك من شعر أبى نواس فى العبث والدعابة ، وفى اللهو والحجون ، دون تحفظ ولا احتياط ، لمثلنا لك شخصىته على وجهها ، ولكننا

(١) نشرت بالسىاسة فى ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ - ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤ .

مؤرخين حقاً ، ولكننا كنا نتعرض لما لا نحب ، من إفساد الذوق ، والإساءة إلى الأخلاق ، فأبو نواس شاعر خطر ، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة من الناس ، يستطيعون أن يقرءوا ويحكوا ، دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصيته شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء وبعد كل شيء . ونحسب أن هذا الرجل لو خُلِّي وطبعه ، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية - إن صح هذا التعبير - إلى أن يصطنع الجحد من حين إلى حين ، لكان شعره كله هزلاً ومجوناً . وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هي سبيل من سبل اللذة ، ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجد إلا ليستعين بجدده على الهزل ! أفتظنه مدح ، لأنه كان يحب ممدوحيه أو يُكسِبُ رُحْمَ ؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل إليه ! كلا ! إنما مدح الخلفاء والوزراء والأمراء ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الحمر ، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة إلى شرب الحمر ، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات . مدحهم لأنه كان في حاجة إلى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان في حاجة إلى أن يتملقهم ، ويتق شرم ، مدحهم مستجدياً ، ومدحهم متقياً . ولعله لم يخلص في مدح واحد من هؤلاء ، إلا نفراً نستطيع أن نتعرفهم ، إذا نظرنا في تاريخهم من جهة ، وفي سيرة أبي نواس معهم من جهة أخرى . لم يُخلص أبو نواس في مدح الرشيد ، وإنما مدحه مستجدياً أو متقياً . ولم يخلص أبو نواس في مدح البرامكة ، وأخلص أبو نواس في مدح الأمين ؛ لا لأنه كان يكبر الأمين ويُجلُّه ، بل لأنه كان ينادم الأمين ، ويرى فيه خليلاً على الشراب ، وصديقاً على اللذة . وكثيراً ما كان يسخر من الأمين إذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الأمين غير مرة . وقل مثل ذلك في مدحه للفضل بن الربيع وزير الأمين ، وقل مثل ذلك في مدحه لأبناء الفضل بن الربيع ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً أصدقاءه وندماءه ، كما أنهم كانوا حماه ورازقيه . وقل مثل ذلك في مدحه للخصب ؛ فقد بلغ الخصب من الإنعام على أبي نواس والانبساط له حدّاً عظيماً . ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصب حتى يمعن في السكر ، ويفقد الرشد ، ويأتي من المنكرات ما يأتيه السكران إذا انتهوا من سكرهم إلى

الحد الأقصى ، ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة في الخمر التي مطلعها :

يَأْشَقِيْقَ النَّفْسِ مِنْ حَكْمِ رِئْمَتَ عَن لَيْلِي وَ لَمْ أُمَّ

وهو في شر حال .

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص في مدح أبي نواس ، وإنما هو شيء متكلف ، تظهر فيه الصنعة ، ويستخفي فيه الطبع . وقد تحسُن هذه الصنعة حيناً ، وقد تسوء حيناً آخر ، وهي على كل حال مبالغة إلى الإسراف والمبالغة ، وقليل فيها التجديد ، وكثير فيها الاعتماد على القدماء ، ومشاركة الشعراء في هذه الصفات الشائعة ، التي كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء ، يستجدون بها المال . فانظر إلى هذه الأبيات التي يقولها أبو نواس في مدح الرشيد :

وَإِلَى أَبِي الْأَمَاءِ هَارُونَ الَّذِي يَحْيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانُ
مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالَهُ فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

فأما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى ، ولكن جماله لفظي . وأما الثاني

فلا يخلو من دقة ولا من جمال ، ولكن انظر إلى ما يقول بعد ذلك :

هَارُونَ أَلْفَنَا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوَفَادَةٌ تَنْبَتُ بَيْنَ نَوَاهِمَا الْأَقْرَانُ
حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكُرَى بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَخْدَانُ
يَرْمِي بَيْنَ نِيَاطِ كُلِّ تَنُوفَةٍ فِي اللَّهِ رَحَالَ بِهِيَ طَعْمَانُ
حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبَالَ الصَّمَا حَنَّ الْحَطِيمُ وَأَطَّتِ الْأَرْكَانُ
لِأَعْرَ يَنْفَرَجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ عَدْلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيْمَانُ
يَصَلِّي الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَةٍ لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الْأَكْدَانُ
لِكِنَّهُ فِي اللَّهِ مُبْتَدِلُ لَهَا إِنَّ التَّقِيَّ مُسَدَّدٌ وَمُعَانُ

أفترى في هذا الكلام كله شيئاً قبيحاً ، أو معنى طريفاً ؟ أفترى له بأكثر من

الجمال اللفظي ، يلقاك من حين إلى حين ؟ ثم أأست تضع يدك على الصنعة ؟

ألست تتبين التكلف واضحاً جلياً ؟ ثم انظر إلى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ، ولكن التكلف فيهما ملموس :

أَلَيْتَ مُنَادِمَةَ الدَّمَاءِ سَيُوفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكْ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى ، وأعجب به ، فأعاده في قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجابة ، وأبعد عن التكلف ، وذلك حيث يقول :

مَلِكٌ تَطِيبُ طِبَاعُهُ وَمَزَاجُهُ عَذْبُ الْمَذَاقِ عَلَى فَمِ الْمُتَذَوِّقِ
يَلْقَى جَمِيعَ الْأَمْرِ وَهُوَ مُقَسَّمٌ بَيْنَ الْمَنَاسِكِ وَالْعَدُوِّ الْمُؤْتِقِ
بِحِمِيكَ مِمَّا تَسْتَضِرُّ بِفِعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهِهِ لَا يَرِيْبُكَ مُشْرِقِ
حَتَّى إِذَا أَمْضَى عَزِيمَةَ رَأْيِهِ أَخَذَتْ بِسَمْعِ عَدُوِّهِ وَالْمَنْطِقِ

فهذا كله كلام عذب سهل ، ولكنه عاديٌّ مألوف . أما المعنى الذي أشرنا إليه في القصيدة الماضية ، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَيْكَ جُهْدَ أَلِيَّةِ قَمَمًا بِكَلِّ مُقَصَّرٍ وَوُحَلَقِ
لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ الْمُتَقِي
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخَلَقِ

فانظر إلى هذا البيت ، وقارن بينه وبين قوله :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكْ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ألست ترى أنه أقل تكلفاً في اللفظ ، وأكثر صفاء في الأسلوب ، ومع ذلك فالمعنى في نفسه سخيف ؛ لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك ، واختلفوا فيه ، فمنهم من أنكروا على أبي نواس هذه الإحالة ، ومنهم من أعجب بها .

وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم ، وأوثر على هذا المعنى عند أبي نواس قول
أشجع السلّمي في مدح الرشيد :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانَ ضَوْهَ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سِيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

فهذا الشعر متين رصين ، وهو في الوقت نفسه صحيح مستقيم ، لا ينكره
العقل ، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته
أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ،
فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل ،
وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب ، راض عن حياته في مصر ، سعيد بهذه
الحياة ، فشعره يصف هذا كله ، ويمثله تمثيلاً صادقاً ؛ ولست أروى لك
القصيدة المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكَ غَيْرُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ

ولكن اقرأ شيئاً من قصيدة أخرى ، لم يكثر الناس تناقلها ، وانظر ألا ترى
الشاعر فيها سعيداً مغتبطاً بحاضره ، عظيم الأمل في مستقبله :

ذَكَرَ الْكَرَّخَ نَارِحُ الْأَوْطَانَ فَصَبَا صَبُوءَ وَّلَاتِ أَوَانِ
لَيْسَ لِي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانِ
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي وَرَوَاحِي إِلَى بِيُوتِ الْقِيَانِ
وَاعْتَفَالِي الْمَوْلَى لِأَخْتَلَسَ الْعَمَّ زَةَ مِمَّنْ أَحْبَبَهُ بِالْبَنَانِ
وَاعْتِمَالِي الْكُؤُوسَ فِي الشَّرْبِ تَسْعَى مُتْرَعَاتِ كَخَالِصِ الزَّغْفَرَانِ
يَابَنْتِي أَبْشَرِي بِمِيرَةِ مِصْرِي وَتَعْنِي وَأَسْرَفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفُ الزَّمَانِ
كَيْفَ أَخْشَى عَلَى غَوْلِ اللَّيَالِي وَمَكَانِي مِنَ الْخَصِيبِ مَكَانِي

ثم يقول :

قَادِنِي نَحْوَكِ الرَّجَاهِ فَصَدَّقْتُ رَجَائِي وَاخْتَرْتُ حَمْدَ لِسَانِي
إِنَّمَا يَشْتَرِي الْمُحَامِدَ حُرٌّ طَابَ نَفْسًا لَهُنَّ بِالْأَنْمَانِ

ولم لا يكون سعيداً ! ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق ، وهو يقضى نهاره وليله بين الأمير ودور اللّهو !

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز ، فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس . وهذا واضح ؛ فلم يكن أبو نواس رجلاً محزوناً ، ولا ميالاً إلى الحزن ، وإنما كان رجلاً مبتهجاً بطبعه ، أو كان هو الابتهاج . فليس غريباً أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريباً أن يتكلفه إذا اضطر إليه ، ثم لا تنس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية ، وعجز الذين أرادوا أن يحملوه على الزواج ، فلم تكن له أسرة ، ولم يعش بين أبنائه وبناته ، فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة ، التي تنشأ الحياة المنزلية الصالحة ، وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاح .

أما صلوات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس ، فلم يكن أكثرها يقوم على الجحد ، وإنما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مديناً لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة ، وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين في هذه الأبيات :

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطَوَّى الْمَنِيَّةَ نَاشِرُ
فَلَا وَضَلَ إِلَّا عِبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَالَهَا الدَّهْرُ ذَاكِرُ
وَكَنتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرُ
لَنْ عِمْرَتُ دُورٍ بَعْدَ لَأُودُهُ لَقَدْ عَمَرْتُ مِمَّنْ أَحَبُّ الْمَقَابِرُ

فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك في أن أبا نواس كان يشعر بضعفه في هذا الفن ، وكان مع ذلك يحاول أن يُخفي هذا

الضعف ، فكان يسلك إلى إخفائه سبلا مختلفة ، أظهرها الإكثار من الوصف ، على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما إلى ذلك .

ليس لرتاء أبي نواس قيمة ، فخير ألا نطيل فيه ، وأن نتقل إلى فن آخر ، أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ليست أقل من إجادته في الخمر ، ولا في المحجون ؛ لأنه باب من المحجون ، وهو الهجاء . على أننا نسرف إذا قلنا إن هجاء أبي نواس مجنون كله ؛ ففي هجاء أبي نواس جد كثير ، وفيه هزل كثير . ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلا مطولا ، ولكننا مضطرون إلى أن نعدل عن ذلك ، لأن أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش القول ومقدعه ، فليس إلى روايته من سبيل . فلنكتف بأن نعطيك منه صورة موجزة جداً ، ولنلاحظ قبل كل شيء أن هجاء أبي نواس ينقسم أقساماً ، فهناك الهجاء السياسي ، وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين : أحدهما هجاء أبي نواس للعرب عامة ، وللترايين خاصة ؛ فقد كان أبو نواس شديد الميل إلى الفرس ، وكان لا يحب من العرب إلا الأيمانية ، فأما الترابية فقد كان يزدرهم ، ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعاً ، حتى يُروى أن الرشيد حبسه في ذلك الوقت ، وكان لا يكاد يستثنى قريشاً ، فإذا فعل فخافة السيف ؛ لأن النبوة والخلافة كانتا في قريش . القسم الآخر من هجائه السياسي هجاؤه للذين عاشروه من الأمراء والوزراء ؛ فقد كان أبو نواس يكره البرامكة ، وكان يكره الأمويين ، وكان ينال أولئك وهؤلاء بفاحش القول . ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيمًا إذا هجا أعداءه السياسيين ، وإنما يظهر أنه كان شديد الضغن ، منكر الحقد . فانظر إلى هذه الأبيات التي هجا بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الأمين :

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ
بِكَأْسِ بَنِي مَاهَانَ ضَرْبَةَ لَازِمٍ
أَتُسْمِنُ أَوْلَادَ الطَّرِيدِ وَرَهْطَهُ
يَاهُ زَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمٍ
وَإِنْ ذُكِرَ الْجَعْدِيُّ أَذْرَيْتَ عِبْرَةَ
وَقُلْتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ

وَتُخْبِرُ مَنْ لَأَقَيْتَ أَنَّكَ صَائِمٌ وَتَعْدُو بِحُجْرٍ مُفْطَرًا غَيْرَ صَائِمٍ
فَإِنَّ يَسْرَ إِسْمَاعِيلَ فِي فَجْرَاتِهِ فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمٍ

فانظر إلى هذه الوقعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فليست أقل نكراً مما روينا لك :

أَلَسْتَ أَمِينِ اللَّهِ سَيْفُكَ نِقْمَةٌ إِذَا مَا قَ يَوْمًا فِي خِلَافِكَ مَاثِقُ
فَكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ يَسْلَمُ مِثْلُهُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْكَ مُنَافِقُ
أُعِيدُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ شَرِّ كَاتِبِ لَهُ قَلَمٌ زَانَ وَآخِرُ سَارِقُ
أَحْمِرَ عَادَ إِنَّ لِلسَّيْفِ وَقْمَةً بَرَأْسِكَ فَانظُرْ بَعْدَهَا مَا تَوَافِقُ
تَجَهَّزَ جَهَّازَ الْبَرِّ مَكِّيِّينَ وَانْتَظِرْ بَقِيَّةَ لَيْلٍ صُبْحُهُ بِكَ لَاحِقُ

وقسم آخر من هجاء أبي نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام ؛ فقد هجا الهيثم بن عدى ، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين ، ويروى أنه كتبهما على الحائط ، حيث كان يدرس أبو عبيدة :

صَلَّى إِلَاهُهُ عَلَى لُوطٍ وَشَيْعَتِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ قُلِّ بِاللَّهِ آمِينَا
فَأَنْتَ عِنْدِي بِإِلَاشِكِ بَقِيَّتُهُ مُنْذُ احْتَلَمْتَ وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَا

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الأبيات :

قُولَا لِإِبْرَاهِيمَ قَوْلَا هُتْرَا غَلَبْتَنِي زَنْدَقَةٌ وَكَفْرَا
إِنْ قُلْتَ مَا تَشْرَبُ قَالَ خَمْرَا
إِنْ قُلْتَ مَا تَتْرُكُ قَالَ بَرَا أَوْ قُلْتَ مَا تَرْهَبُ قَالَ بَحْرَا
أَوْ قُلْتَ مَا تَقُولُ قَالَ شَرَا أَضْلَاهُ رَبِّي لَهْبًا وَجَمْرَا

ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النظام بقصيدته التي أولها :

• دَعُ عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ •

والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ، ويعجبون بشعره ، ولعل شيئاً من هذا الإعجاب مصدره الخوف ؛ فقد كان أبو نواس ينذر

العلماء إذا احتاج إلى ذلك ، ولما لم يجد له الكلابي نسباً في أنساب العرب قال فيه :
 أَبَا مُنْدِرٍ مَا بَالُ أَبْوَابِ مَذْحِجٍ مُعَلِّقَةٌ دُونِي وَأَنْتَ صَدِيقِي
 فَإِنْ تَعَزَّنِي يَا تَيْكَ ثِنَائِي وَمِدْحَتِي وَإِنْ تَأَبَّ لَا يُسَدِّدُ عَلَيْكَ طَرِيقِي

وقسم ثالث من هجاء أبي نواس ، هو هجاءه لأصحابه من الشعراء والندامى ،
 فله في الرقاشي وفي بني نوبخت كلام كثير مقنع . وظاهر أن رجلاً كأبي نواس
 حياته بين الكأس والطاس ، في لعب ومزاح ، كان من خفة الروح ،
 وتوقد الذكاء ، ودقة الفطنة ، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا هجا ، فهو
 من أشد الشعراء في عصره إقذاً ، ومن أكثرهم نكاية بالخصم ، وفي هجائه
 ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً قليلاً ، فانظر
 إلى قوله :

أَمَاتَ اللَّهُ مِنْ جُوعٍ رَقَاشًا فَلَوْلَا الْجُوعُ مَا مَاتَتْ رَقَاشُ
 وَلَوْ أَشَمَّتْ مَوْتَاهُمْ رَغِيغًا وَقَدْ سَكَنُوا الْقُبُورَ إِذْ نَلَعَاشُوا

وانظر إلى قوله في هجاء داود بن زرين رواية بشار :

إِذَا أَنْشَدَ دَاوُدُ فَقُلْ أَحْسَنَ بَشَارُ
 لَهُ مِنْ شِعْرِهِ الْغَثُّ إِذَا مَا شَاءَ أَشْعَارُ
 وَمَا مِنْهَا لَهُ شَيْءٌ إِلَّا هَذَا هُوَ الْعَارُ

وانظر إلى هذين البيتين :

بِمَا أَهْجُوكَ لَا أَدْرِي لِسَانِي فِيكَ لَا يَجْرِي
 إِذَا فَكَّرْتُ فِي عَرَضِكَ أَشْفَقْتُ عَلَى شِعْرِي

وانظر إلى قوله :

سِيرُوا إِلَى أْبَعْدٍ مُنْتَابٍ قَدْ ظَهَرَ الدَّجَالُ بِالزَّابِ
 هَذَا ابْنُ نُوبَخْتٍ لَهُ إِمْرَةٌ صَاحِبُ كُتَّابٍ وَحُجَّابِ

وانظر إلى قوله في البرامكة :

إِنِّي لَوَلَا شَقَاةَ جَدِّي مَامَاتَ مُوسَى كَذَا سَرِيعَا
وَلَا طَوْتَهُ الْمُنُونُ حَتَّى أَرَى بَنِي بَرَمَكٍ جَمِيعَا
هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَعْ وَكُنْ لَهُمْ سَامِعَا مُطِيعَا

وهذا أخف ما قال أبو نواس في الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه ، لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حداً يحول بيننا وبين روايته .

• • •

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله أول من اتخذها فناً مستقلاً من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها ، وهو فن الصيد ، ولكنى لا أحدثك عنه في هذا الفصل ، لأن أبا نواس قد آثر فيه الغريب إثارةً شديداً ، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة ، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير . ولعلى أوفق إلى جمع هذه الفصول كلها في كتاب ، فأضيف إليها فصلاً عن الصيد في شعر أبي نواس .

أما الفن الذي أريد أن أختّم به القول في أبي نواس ، فهو فن الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها ، وذلك مفهوم أيضاً : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبي نواس لما استطعت إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ، ويسخر منها ، ولعلك تدهش إذا قلت لك إنى أشبه أبا نواس بأبي العلاء ، تدهش لأن أبا نواس مشرق مبتسم ، في حين كان أبو العلاء عابساً مكتئباً ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفجور ، في حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبي العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمجتها مقتاً شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدرىها ، ويستعين عليها باللذة واللهو ، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة ، فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفي الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ،

ومنهم متشائم يعبس ويبكى وهم جميعاً متشائمون ، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهي أن الحياة شيء ليس بذي حذر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهي إلى خير ، فلتقنص في لعب وهو ، أو فلتقنص في حكمة وزهد ، هذا شيء يختلف باختلاف الأزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريباً إذاً أن يجيد أبو نواس في المحبون وفي الزهد معاً ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبي نواس أكان هو مسلماً حقاً أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن في أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام ، وازدرى أصوله وقواعده غير مرة في حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره في الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة ، التي قالها في الزهد :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ	وَأَيَّ جِدِّ بَلَغَ الْمَارِحُ
لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاِعْظِ	وَنَاصِحٍ لَوْ حَظِيَ النَّاصِحُ
يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى	وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاصِحُ
فَأَسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نِسْوَةٍ	مُؤُورَهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خِذْرِهَا	إِلَّا أَمْرُؤُ مِيزَانَهُ رَاجِحُ
مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي	سَيَقَ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ
شَمَّرَ فَمَا فِي الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ	وَرُحُ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحُ

الوليد بن يزيد^(١)

كان خليعاً ماجناً ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونه ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر ، فسطوا على شعره ، وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصاباً ، لم يروا في ذلك حرجاً ، ولم يخشوا في ذلك دفاعاً . كان الوليد أمويًا ، فكان بغيضاً إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً إلى بني أمية أنفسهم ، قبل أن يمكن الله لبني العباس في الأرض ؛ فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية ؛ لأنه كان بغيضاً إلى قومه ، ولأن التوفيق السياسي أخطأه ، ولأنه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ، ولأن قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوية سيرته ، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل ، وحملوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسي ، وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها إلى النصر ، ثم كانت ثورة العباسيين ، واستقرار الأمر لهم ، فشمل البغض بني أمية وكان حظ الوليد منه مضاعفاً ، وتقرب الناس إلى بني العباس بلعن بني أمية جميعاً ، خيرهم وشريرهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعاً ، وبلعن على رضى الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد ، والنعي عليه ، ورميه بالكفر حيناً ، وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفرةً وفجوراً إليه ، يجب أن تحتاط في هذا كله ، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول ، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك ، بل قاله الأولون ؛ فقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً ، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بني العباس ، وإلى عامة الناس ، بالطنن فيه ، والنعي عليه ، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة ، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ - ٢ أبريل سنة ١٩٢٤ .

ينالونها بضروب الغضب ، ويُبتزلون بها ألوان السخط . وأما القليل من هؤلاء الأولين ، فكانوا يقصدون في ذلك . فيسكتون ، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة ، فدافع عنه في رفق وحذر . قالوا : دخل مروان بن أبي حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد ، فتردد ، فأعفاه الرشيد من آثار قوله ؛ فقال : « كان من أصبح الناس ، وأظرف الناس ، وأشعر الناس » فاستنشه الرشيد من شعره ، فأنشده هذه الأبيات :

لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى مِكْيَالَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ أَثْرَعَا
كَلِمًا لَهُ الصَّاعَ الَّتِي كَالَهَا فَمَا ظَلَمْنَاهُ بِهَا أَصْوَعَا
لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتِيهِ عَن بِدْعَةٍ أَحَلَّهَا الْقُرْآنُ لِي أَجْمَعَا

قالوا : فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له . وتحدثوا أن رجلا من ولد الغمّر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى قريش ، فسأله أن يخصص ، وأمنته على نفسه إن ظهر أنه مرواني ، فلما ذكر الرجل نسبه ، بش له الرشيد ، وقال لعن الله قاتلي أبيك ، فقد قتلوا خليفة مُجمَعاً عليه ، وقضى حوائجه . وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدي ، قال الرواة إن فقيهاً من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدي استطاع أن يدفع عن الوليد حين اتهم بالزندقة ، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ، ولكنه ذكر شُرْبَهُ وَحُبَّهُ لِلهُو ، وعكوفه عليه . ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفاً في اللهو والفجور إلى غير حد ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحاً ، وإنما كان رجلا من الناس ، أحب اللذة وكلف بها ، وأعانتها عليها ظروف نريد أن نُجملها ، فأخذ منها بحظ موفور ، دون أن يخرج ذلك عن دينه ، أو يتجاوز به حدود ما يتبغى للخلفاء في عصره ، ولكنه كان شقيماً سيئ الحظ ، جنت عليه الظروف السياسية التي عاش فيها أكثر مما جنى عليه لوهه ومجونه .

أول هذه الظروف السياسية التي جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكنه كان غلاماً ، فتوسط بينه وبين أبيه في الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ، ولم يكد يتم الأمر لهشام ، حتى طمع في الخلافة

لابنه ، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد ، وكان قد أعطى العهد على نفسه كَيْفَيْنَ للوليد ، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيراً في نفس هشام من العهد والوفاء به ، أزعج هشام خلع الوليد ، وأخذ يحتال في ذلك ، ويعد له ، وأحس الوليد ذلك ، فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد ، واشتدت شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت عداً صريحاً ، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة ، ويرتحل إلى البادية ، مغاضباً لعمه ، مجتنباً شره ، فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضاً لابن أخيه ، وحقداً عليه ، وإلا اضطهاداً له ولأوليائه ، وأخبار ذلك كثيرة منتثرة في الكتب ، وبأى شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن بيعته ، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق ! وقد انتفع هشام بهذا ، وأسرف في الانتفاع به ، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والحقن والإدمان ، والكفر والزندقة ، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ، ومكذب ، ولكنه يتملق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع ؛ فلأمر ما كان مغنوه يغشونه هذين البيتين .

يَأْيَهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
نَشْرِبُهَا صِرْفًا وَمَمْرُوجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَانًا وَبِالْفَاتِرِ

وأبو شاكر هذا هو مسأمة بن هشام ، الذي كان يرشح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا أن هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة تم عن رأيه فيه ، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأله : ما شرابك ؟ فأجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب ، إنما نزع أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ، ومن الخلفاء أنفسهم ، كان يشرب كهشام وبني هشام ، ولكن الغرض السياسي أباح له أن يذمه ، ويشنع عليه بما كان يأتي هو ، وبما كان يأتي أبناؤه .

كان الوليد مضطهداً أيام هشام ، فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره إلى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من الحن من جهة ، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذي لا يريد أن يضعف ، ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عناداً ، وكان يشرب طالباً للجزاء ، ومضى في الشرب عناداً وتعزياً ، حتى شغف به شغفاً غير مألوف ، فأمكن من نفسه ،

وصدق بعد آراء الناس فيه ، مات هشام دون أن يستطيع خلعه ، ولكنه كان قد استطاع إيذاء وإيذاء أصحابه ، ونالهم بمحن كثيرة شديدة ، فلما تم له الأمر ، وتبوأ دار الخلافة ، جرى مع طبيعته ، فانتقم وأسرف في الانتقام ، كما أسرف هشام في الإساءة إليه ، ولكنه انتقم من الأبرياء ، أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا إليه إلا تأثراً لهشام ، وكذلك شأن الانتقام السياسي ، يصيب البريء قبل أن يصيب المسيء . ثم لم يكتف الوليد بالإسراف في الانتقام ، بل أسرف في شيء آخر . كان محروماً منه أيام عمه ، فجرى مع طبيعته ، وأراد أن يستوفي حقه بعد الحرمان ، فتجاوز الحق . كان مُقتسراً عليه ، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه ، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة ، فأسرف فيها ، كان مُضيقاً عليه ، يخلص اللهو اختلاساً ، ويفر باللذة فراراً ، وقد أصبح الآن صاحب السلطان ، فأطلق لنفسه عنانها ، وأخذ من اللذة ما استطاع ، وفوق ما استطاع .

ثم لم يكدر يصل إلى الخلافة وينتقم لنفسه ، حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ؛ فقد كوّن حزباً قوياً يكره الوليد ، ويأتمر به ، ويرثي لأبناء هشام ، ويبث الدعوة للتشجيع على الوليد ، وإساءة رأى الناس فيه ، فلم يكن بدّ للوليد من أن يدفع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكاً ولا قديساً ، وإنما كان رجلاً من الناس ، وكان أمويّاً من بني أمية ، فيه أخلاقهم وخصالهم ، وفيه عُنفهم وعنادهم ، وفيه غرورهم وطغيانهم ، فلقى الشر بالشر ، وتحدّى خصومه ، فأمكنهم من نفسه ، وصدق رأيهم فيه ، ثم انتصر على خصومه ، فخلعوه وقتلوه ، وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمّد الناس ما فعلوا ، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا ، ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعاً في رأى الخلفاء العباسيين ، وعامة الناس ، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء ، كفرّة فُجّاراً ، وأصبح الوليد مثالا لكَفرهم وفجورهم ، وكذلك يُكْتَبُ التاريخ ، فَيُظَلَمُ فيه ناس من الحقّ ألا يظلموا .

لا نريد أن ندافع عن الوليد ، فليس يغنى الدفاع عن الوليد شيئاً ، ليس يعيننا في حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيراً أو شريراً ، ولكن أماننا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصوراً صحيحاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ،

فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكماً قريباً من الصدق ، كان من الحق أن نقول : إنه كان رجلاً مستمتعاً بلذاته ، مسرفاً في هذا الاستمتاع ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف في الإثم ، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطراراً ، إما باضطهادهم إياه ، وإما بتشنيعهم عليه وتحديهم له .

ولقد نريد أن ننظر إلى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية . نريد أن ننظر إليه من الوجهة الأدبية ؛ فقد كان الوليد أديباً ، وكان شاعراً ، وهذا وحده هو الذي يعيننا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة ، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص ، ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ، ولم يبق منها إلا الشيء القليل ، ذهبت لتعصب الناس عليه ، وتحرجهم من رواية شعره ، وما نحسب أن هذا التحرج كان دينياً فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والحجون ، وإنما كان هذا التحرج سياسياً . ومن يدري ! لعل هذا التحرج السياسي قد أضاع علينا من آثار بني أمية شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظاً يتناقله الناس في القرن الرابع ، فإننا نجد في الأغاني أن قصائد الوليد (تدل على نفسها) ؛ ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها وإثباتها ، وليته فعل ، فإن هذه القصائد التي كانت تدل على نفسها في القرن الرابع ، لم يبق منها الآن شيء إلا هذه المقطوعات التي أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج ، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير إذن أن نعطي من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون ومع ذلك فهم خير من لا شيء .

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعراً صادقاً لا يكذب ، ولا يميل إلى الكذب في شعره ، ولم يكذب ، وهو من فتیان بنی أمیة ، عزیز النفس ، رفیع المنزلة ، ليس في حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة ، وليس في حاجة إلى أن يهجو ، ليدفع عن نفسه خصماً يكافئه . وأى الشعراء كان يجروء على أن يهجو ولي عهد المسلمين ؟ ولو فعل فما كان ولي عهد المسلمين ليهجوه ، وإنما كانت السبيل في ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفاً في حياته . وكأنه كان يزدري الناس ، ولا يخجل بهم ، ولم

لا يزدريهم وقد رأهم يتملقون عمه ، ويعينونه على الظلم ، ونقض العهد ، لا لشيء إلا لأنه صاحب السلطان ! أفيحفل بمثل هؤلاء ! وإذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه ، أو ينتحل من الحصال خصلة لا تعجبه .

قالوا : كان الوليد متزوجاً من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان ، فعرف أن لزوجته أختاً تفوقها جمالا وحسناً ، فطلّق زوجته ، وأراد أن يقترن بأختها ، فخطبها إلى أبيها ، وعرف ذلك هشام ، فأرسل إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه ، ويتزوج تلك ؟ فرد سعيد خِطْبَةَ الوليد . فقال الوليد : هذا سعيد يرد خطبتي ، ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعاً . . . وفي الحق أن سعيداً لم يَرُدْ هذه الخطبة إلا مجارة لهشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ، ورأى الوليد في الناس رأيه ، أن يحفل بهم ، أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد ، فلم يكن يحاول إرضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة ، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حباً في الشعر ؛ إذ لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً ، وإنما كان يلهو ، أو كان يجذ ، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لُوه وجدده ، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب ، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه ، وترجم عن عواطفه ، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقاً ، يمثل نفسه تمثيلاً صحيحاً . وسرى أن هذه النفس لم تكن بغیضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية ، منه إلى الجودة ، فقد قلت لك : إنه لم يكن يتكلف هذه الجودة ، ولا يطمع فيها ، وإنما كان يقول جرياً مع الطبع ، ولم يكن يقول الشعر إلا وهو متأثر بما يَسُرُّ أو يُحِزُّن ، وإذن فقد كان مشغولاً بسروره وحزنه عن الألفاظ ، كان يقول الشعر وهو سكران ، يشرب ويضطرب بما حوله ، وكان همه أن يكون قد نال شعراً سبيل فيه عاطفة ثارت في نفسه ، أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره ، لأنه كان معجباً بنفسه ، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس ، وكان يحب أن ينظر كثيراً في هذه المرآة ، ولذلك كان لا يكاد يقول شعراً إلا طلب إلى أحد المغنين أن يعنى له فيه صوتاً ، وربما قال

الآبيات ، فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها ، فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .

وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظاً ولا معنى ، وإنما يغترفه اغترافاً سهلاً لا مشقة فيه ، يكتفى أن يحظر الخاطر ، أو تعرض الحادثة ، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتاً ، أى يقول فيها كلاماً كان يستطيع أن يقوله نثراً ، ولكنه تعود النظم ، فهو ينظم فى غير عُسر ، ولهذا كان الشعر أيسر شىء على الوليد ، كان يتكلم شعراً حين ينثر الناس ، كان إذا أعجبه شىء عادى وصفه شعراً ، وكان إذا اشتهى شيئاً اشتباه شعراً ، وكان إذا غمه شىء مهما يكن جليلاً أو ضئيلاً عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر كالنثر عند غيره ؛ ولهذا اصطنع من بحور الشعور أخفها وألطفها ، وأقربها إلى النثر ، وأشدّها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها ، فقليل ما تجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة ، وإنما شعره كله هَزَجٌ وَرَمَلٌ ، وهو إذا عمد إلى البحور الطوال اجتزأها اجتزأ ، وخففها تخفيفاً ، فاختر أيسرها وأقصرها . قلت لك : إنه لم يكن ينظم الشعر ، وإنما كان يتكلمه ، وهو فى هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ؛ فقد حدثتكَ عن أبى نواس أنه كان إذا لها أو تغزل أثر الشعر أيسرها وأقصرها ، وأخفها موقعاً ، وأدناها من النثر مكاناً ، وكذلك كان غير أبى نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجحد فى شعره ، لاختار لهذا الجحد من الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ، ولكنه لم يكن يجتهد فى شعره كثيراً ، فقد قلت لك إنه لم يكذب بمدح ولم يكذب بهجو ، وإنما تعاطى من فنون الشعر ضرورياً خاصة ، ووصف الخمر لأنه كان يشربها ، ووصف اللذة لأنه كان يستمتع بها ، ووصف الصيد لأنه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر السهل ، وإلى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً ، فقد ذكرت لك أنه أحب أخت زوجته ، وكانت هذه المرأة التى فُتِنَ بها تسمى سَلْمَى بنت سعيد ، فلا تكاد تجد شعراً للوليد يخلو من سَلْمَى ، وهو يَفْتَنُ فى ذكر سَلْمَى افتناناً عظيماً ، فيذكر اسمها مُكَبَّرًا وَمُصَغَّرًا ، ويذكره كاملاً وَمُرْتَمًا ، ويتخذ مرة كُنْيَةَ لها ، كأنه يداعبها ، ومن الغريب أنه كان فى

هذا الحب سيئ الحظ ، كما كان في حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج
أخها ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فندم على تطليق امرأته ، وكأنه أحبها ،
فأراد أن يراجعها ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلاً آخر ، فقال في ذلك
شعراً لذيذاً ، ولكنه يش من امرأته ، فانصرف إلى عشيقته سلمى ، وكأنها
كانت تحبه ، بل كانت تحبه ، ولكنها كانت تطيع أباه وتكبره ، فكان الوليد
ينسب بها حياته ، وكان شعره يصل إليها ، وكان يحب أن يسمع رأيها في
هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه ، بل لأنه يريد أن يجد
في كلامها صدقاً لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيداً
وهجاه ، فبلغ ذلك سلمى ، فغضبت لهجاء أبيها ، وبلغ الوليد أنها مغضبة ،
فترضاًها بشعر كثير ، وترضى أباه ، واعتذر إليه . وظل هشام في وجد
وحزن ، يحب ولا يصل إلى من يحب ، وله في ذلك فنون ، فقد احتال ذات
يوم في أن يدخل قصر سعيد ، فيقال إنه لقي زياتا يسوق حمراً ، فأخذ من
الزيات ثيابه وحماره وزيته ، ونزل له عن فرسه وثيابه ، ومضى يبيع الزيت ،
حتى دخل قصر سعيد يعرض زيتته ، ورأته سلمى ورآها ، ثم نهى الخدم ،
فانصرف وقال في ذلك شعراً . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة ، خطب
سلمى إلى أبيها ، فقبل خطبته هذه المرة ، وزوجه ابنته ، وللوليد في ذلك شعر
عذب لذيذ ، من أخف الشعر ظلاً ، وأحسنه في النفوس وقماً ، ولكنني قلت
لك إن الوليد كان سيئ الحظ في حبه ، كما كان سيئ الحظ في حياته كلها ،
فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعاً
شديداً ، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزناً وأسى ، ولكننا نقول إنه
يمثل نفس الوليد ، التي كانت تعرف كيف تحزن ، كما كانت تعرف كيف
تبهج . ويكفي أن تقرأ شعر الوليد في سلمى هذه حية وميتة ، لتعرف أن الوليد
لم يكن يتكلف الشعر ، ولا يحرص على الإجداد فيه ؛ وإنما كان يرسله كما
يرسل أنفاسه ، في سهوله ويسر ، فإذا هو حارٌّ حيناً ، وفاتر حيناً ، وقد يصل
إلى البرد حيناً آخر .

ثم للوليد جدٌّ ، ولكننا لم نحفظ منه إلا قليلاً ، فقد خاصم هشاماً ،
فاضطره هذا الخصام إلى شيء من الفخر والعتب ، ونالته من اضطرته إلى

أن يقول فيها شعراً ؛ وفقد ابناً له فرثاه ؛ وهو في هذا الجلد كله قوى متين ، لا يخلو من جلال ورياسة .

ولم يكن الوليد شاعراً فحسب ، وكأنه كان يتصرف في النثر تصرفاً حسناً ؛ فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ، ولكني أتردد (وأظن أني محق) في نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام ، وأحسب أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ، ولست أشك في ذلك بالقياس إلى هشام ، وأنا أرجحه بالقياس إلى الوليد ، ومهما يكن من شيء فإن معاني هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلاً لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالماً بأيام العرب وأحداثها ، وبأشياء أخرى كثيرة ، وأحسب أن اتصاله بالموالي من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة ، ومال معهم إلى مذهب «ماني» ، وليس من شك في أنه كان يُعلمُ باصطلاحات حديثة : علمية أو فلسفية ، ظهرت في شعره عندما وصف الخمر ، كما ظهرت في شعر أبي نواس ، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبي نواس ليس بالقليل ، كان الوليد أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة ، وذلك ظاهر جلي في شعره ، فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس في لونه ومجونه حَضْرِيًّا ، قد رقى حتى كاد ينمحي رقة وخفة .

ولنختصر ، فالوليد شخصيتان : شخصيته السياسية التاريخية ، التي حدثت عنها في أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلافة ، فليست منفرة ولا بغیضة ، وهي لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين يذكرون بالخير ، ولعلمهم ليسوا أقل إثماً من الوليد . وشخصيته الأدبية : شخصيته من حيث هو شاعر . وأحسب أني قد رسمتها لك رسماً إلاّ يكن صادقاً كل الصدق ، فليس بعيداً عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً ظريفاً ، جذاباً خفيف الروح . ولكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات التي قدمتها ، ولا بد لذلك من أن نتقل إلى طائفة من شعره ؛ فليكن ذلك في الفصل الآتي .

مطيع بن إياس^(١)

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد ، لأنى وعدتك فى الأسبوع الماضى أن أستأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لى ، فسأحدثك عن شاعر آخر ، ولست أكره إخلاف هذا الوعد ؛ فمن اليسير عليك ، ومن الخير لك لى ، إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد ، وتتثبت صحة تلك الصورة التى رسمتها لك من شخصيته ، أن ترجع إلى كتاب الأغانى ، وما روى فيه أبو الفرج من شعر الوليد ، فى ذلك مقنع لك ، وفى ذلك فائدة أعظم وأجدى من الفائدة التى تجنيها لو أنى رويت لك طرفاً من شعر الوليد فى هذا الحديث ، ومن يدرى ! لعلك إن رجعت إلى أخبار الوليد وأشعاره فى الأغانى صححت بعض ما قد أكون تورطت فيه من خطأ ، ومهما يكن من شىء ، فإن رجوعك إلى الأغانى بعد أن قرأت حديثى عن الوليد ، أنفع لك ، وأجدى عليك من قراءة حديث آخر ، ليس لى فيه إلا رواية وتحليل . وذلك فى الوقت نفسه ينفعنى ، فأنا أريد أن أتحدث إليك مسرعاً عن طائفة من الشعراء ، تصل بينهم وبين الوليد وأبى نواس صلة متينة قوية ، هى صلة الخلاعة والمجون والشك ، والإعراض عما ألف الناس ، أريد أن أتحدث إليك فى هؤلاء الشعراء ، لا لأنى أؤثر هزلهم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لأنى أشعر بأنك تؤثر الخلاعة والهزل على الجد ، فأحاول أن أرضيك وأسليك ، بل لأنى أرى فى الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون فى ذلك العصر ، نوعاً من الجد عظيم الخطر ، يُمكننا من أن نفهم عصرنا من العصور الإسلامية كما ينبغى أن نفهمه ، ويمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكماً ملائماً للحق ، مقارباً للصواب ، وليس هذا بالشىء اليسير ، وليس هذا بالشىء الذى يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أنى لم أكد أعرض لأبى نواس فى السنة الماضية ، حتى سخط ناس كثيرون فى مصر ، وفى غير مصر . سخط

(١) نشرت بالسياسة فى ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٩ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

قوم ، لأن في شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق ، ونبواً عن الدين ، ومخط قوم آخرون ، لأنهم زعموا أنى أسىء إلى العرب ، وأتهمهم بما ليس فيهم ، واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياساً لحياة العصر الذى عاش فيه ، فأعم حين يجب التخصيص ، وأسرف في التعميم حين يجب الاحتياط والدقة ، لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يُعَسَّوْنَ بالبحث الأدبي والتاريخي عناية صادقة ، إذا خطر لهم رأى ، وظهر لهم أنه الحق ، فأمنوا به ، واطمأنوا إليه ، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه ، حتى يشتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق ، وهم يشتدون في ذلك ، ويحرصون عليه حرصاً ليس فوقه حرص ، وأنا من هؤلاء الناس ، حاولت أن أبحث عن أبي نواس ، فخطر لى أنه كان شاعراً شاكراً ماجناً ، وأن هذا الشك والمجون لم يكونا مقصودين عليه ، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر ، ففتبتعت هذا الرأى ، وجعلت أدرسه وأمتحنه ، وجعلت كلما أمعنت في هذا الدرس والامتحان ، ازددت إيماناً بهذا الرأى ، واطمئناناً إليه . ثم انتقلت منه إلى رأى آخر أوسع منه وأشمل ، فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثانى للهجرة ، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك ، والمشغوفين بالجد ، إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة ، والعادات الموروثة ، والدين أيضاً .

رأيت هذا الرأى ، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة ، والحجج المتباينة ، فى أثناء بحثى عن أبي نواس ، ولكنى لا أكتفى الآن بإثبات هذا الرأى ، ولا بأن أقيم عليه الأدلة النظرية أستمدها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال ، ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية ، ومرة من طبيعة الحضارة والترف ، ومرة من ظهور العلم ، ونقل الفلسفة ، لا أكتفى بهذا كله ، وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، إن مخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد ، فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعاتهم يحبونهم ، ويميلون إليهم ، ويتفكحون بما يوصفون به من ظرف ، وما يروى عنهم من هزل ومجون ، وإذا كان هؤلاء الشعراء

وأصحابهم من حرية الرأي ، ومن الإسراف في حب اللذة ، والتهاك عليها ، سرّاً وجهرّاً ، بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول ، وإذا كان الناس بهم معجبين ، وعندهم راضين ، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو ، فليس عندي شك في أن هذا العصر الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء ، وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته ، وإنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجنون واستهتار بالذات ، ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيثان ، كلاهما أخطر على حياة السذاجة والقناعة : أحدهما العقل ، أريد العقل الفلسفي ، الذي يتدخل في كل شيء بالنقد والتحليل ، وبالنتي والإثبات ، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد ، وإنما يريد إذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو في أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعرض في طريقه من آثار الوراثة ، والآخر الحضارة وما تستتبعه من نعمة ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ؛ فأما الفلسفي فـ"فِعُول" يهدم القديم في الحياة المادية على اختلاف فروعها . ومن زعم أن العرب لم يتأثروا في القرن الثاني للهجرة بهذين الخطرين . فهو مسرف كل الإسراف ، بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً إذن أن يظهر في هذا العصر الوليد بن يزيد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحامد عَجْرَد ، وابن المقفع ، ووالبة بن الحُبَاب ، وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم في شكهم ومجوتهم ، وفي لُهوم وعبتهم ، ليس غريباً أن يظهر هؤلاء الناس في ذلك العصر ، وإنما الغريب أن يخلو منهم ذلك العصر ، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنسك وأصحاب الزهد والتقى .

نحن إذاً مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو ، وإلى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه في جملته وفي تفصيله ، لا مشفقين ولا مترددين ، ولا كالنعامة التي يأتيها الخطر ، فتخفي رأسها كي لا تراه ، ويخيل إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فهما ننكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما في هذا العصر ، وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين

من أهله ، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصراً ظهر فيه الشك
والحجوب ، واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله ، حتى بعض الفقهاء
وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان
عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجهل ذلك ؟ ولست أرى على
ذلك جواباً معقولاً ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه إلى من يسألك
ما نفع العلم ؟ وما ضرر الجهل ؟ وما فائدة الصواب ؟ وما مضره الخطأ ؟
سيقولون : ولكنك سيئ الاختيار ، ردىء الذوق ؛ فما أنت وأصحاب الشك
والحجوب تحدثنا عنهم في شهر الصوم ، وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم
في ألوان الهزل ؟ وهلا أجملت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم ! وهلا
اكتفيت في هذه الأيام التي ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى بالتحدث
إليهم في أخبار الزهاد والناسكين ، وفي مناقب الوعاظ والصالحين !
نعم ! سيقولون هذا . ومن يدري ! لعلي إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم
لأرفه على هؤلاء الصائمين ، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلاً ، وأى إثم في
ذلك ! وأى جناح فيه ! .

زعموا أن ناساً سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟
فأنشد ابن عباس شعراً لا أستطيع أن أرويه ، ثم نهض فصلى . وزعموا أن
ناساً سألوا عن شيء كهذا أحد الفقهاء المحدثين ، وأحسبه سعيد بن المسيب ،
فأنشد :

أُنْبِئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أُخْطِبُهَا عُرْفُوبِهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

لم يتحرج ابن عباس ، ولم يتحرج ابن المسيب ، ولم يتحرج غيرهما من
الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة ، جدها وهزلها . فما لنا
نتحرج الآن ! أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ، ولين
العقيدة ، واضطراب اليقين ! إن المؤمن حقاً ، المتدين حقاً ، المخلص في نسكه
وعبادته ، لا يخشى على إيمانه ، ولا على دينه ، ولا على زهده وعبادته شعر
مطيع وأصحاب مطيع ، وإنما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف ،
ويريد أن يتقيه ، ويتجنب أسبابه والمغريات به . وإذا أحس الرجل من

نفسه ضعفاً في مثل هذه الأشياء ، فارو له ما شئت من شعر ، أو اكفف عن رواية هذا الشعر له ، فما أنت بنافعه ولا ضاره .

على أنى قلت إنا نبحت بحثاً علمياً ، لا نريد به أن نرضى الناس ، ولا أن نسلى عنهم ، وإنما نريد أن نفيد ، وأن نستفيد . وأرى أنى قد أسرفت في هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة ، ولم أتحدث إليك بعد في مطيع ، ومع ذلك فهو خليق بأن أتحدث إليك فيه ، وأن أطيل الحديث .

كنت أذكر لك في الحديث الماضي صدق الوليد بن يزيد ، وخفة روحه في الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إياس ، إذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة ، وخفة الروح ، وحلاوة الدعابة ، وجمال اللفظ ! الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جداً أن تجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد ، يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة ، وخفة الروح ، حتى أبو نواس وأنت تعلم رأيي في أبي نواس . نعم ! مطيع بن إياس أصدق لهجة من أبي نواس ومن الوليد ، وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير ، فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد ، كثير الخصوم أيام خلافته ، فكان في لوه ومجونه في هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ، ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم ، فكان ذلك ربما دفعه إلى شيء من الإسراف في القول ، والإمعان في التحدى ، وتجاوز طبيعته أحياناً ، ليغيط خصومه ومضطهديه . وكان أبو نواس شاعراً مجيداً ، ومستأثراً في عصره بالإجادة المطردة ، وكان قد اتخذ المجون مذهباً ، وكان قد أعلن ذلك ، وأسرف فيه ، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون ، فكان كالوليد ، يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ، ويسرف في القول إسرافاً متعمداً ، يريد أن يغيط الفقهاء والمتكلمين ، ويهزل ويسف في اللفظ ، يريد أن يغيط النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى إلا الخلفاء ، أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد ، فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف في القول ، ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان

أبو نواس يسرف في القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لا يسرف في القول ، لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرضاً لخطر .

ستقول : وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد ؟ وكيف برى من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ، ملحقاً في الفسق ، متهماً في دينه ، يوصف بالزندقة ؟

فأقول : بل كان مطيع شراً من هذا أيضاً في النصف الثاني من حياته ؛ فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ، وندم الوليد بن يزيد ، ومدح أبوه والياً من ولاية بني أمية ، ومدح هو رجلاً من ولد خالد القسري ، وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بني أمية ، ويكره أيام بني العباس ، فكان من المعقول جداً أن يُبرأ من الوجهة السياسية ، كما كان من المعقول جداً أن يُبرأ من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يُبرأ إلا مرة أو مرتين ، خرج منهما آمناً مسروراً ، وفور الحظ من العطاء أيضاً . تريد أن تفهم هذا ، وأنا أيضاً أريد أن أفهمه ، وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه في الحياة والناس أحسن تصوير وأصدق ، كان مطيع يزدرى الناس ، وكان يزدرى الحياة . وكان يسخر من هذه ، كما كان يسخر من هؤلاء ، وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة إلى اللذة ، وإلى اللذة التي لا حد لها ؛ فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم ، وكان يتقلب مع الحياة في صورها المختلفة ، كان أمويًا أيام بني أمية ، لم يكره حين مَثَل بين يدي الوليد ، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ؟ لم يكره أن يجيب : « عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » . قالوا : فاستدناه الوليد ، وقبل فاه وبين عينيه ، وهوى هو ، فقبّل الأرض بين يديه ، وكان عباسياً حين ثبّت الله الملك لبني العباس ، ولم يكن عباسياً معتدلاً ولا هادئاً ، بل قل لم يكن عباسياً متطرفاً ، لأنه لم يكن مقتنعاً بشيء ، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ ، وكان يجد الحياة واللذة عند بني العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً إلا هذه الحياة وهذه اللذة ؛ فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس ! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل الخانع ، وإنما

كان يتملقهم ، ساخراً منهم ، مزدرباً لهم ، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطراً . قالوا : أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي ، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك ؛ فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا ، وتكلم الخطباء والشعراء ، كلهم يمدح المهدي ، ويبين فضله ، حتى إذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثني فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المهدي منا محمد بن عبد الله ، وأمه من حمير ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً : وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ، ثم أقبل على العباس ، فقال له : أنشدك الله ! هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم ، مخافةً من المنصور ، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدي . أفترى إليه أحسن شهوة المنصور في أن يبايع لابنه المهدي ، وعزمه على ذلك ، فأراد أن يرضى المنصور وولي عهده ، فوضع هذا الحديث وضعاً ، ولم يكتب بالكذب على النبي ، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق ، فشهد خوفاً من أخيه . ولا تقل إنه فعل هذا ذلةً أو إسرافاً في التلق ، ولكن قل إنه فعل هذا ترصياً للخليفة وولي العهد ، وازدراء لهما ، وسخرية من الدين ، وقد عرف المهدي له هذه الصنعة ؛ فأنت تعلم أن المهدي كان شديداً على الزنادقة ، أسرف في قتلهم والفتك بهم ، وتجاوز في ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يرع مطيعاً . بلى ! راعه مرة ، ولكنه أخرجه من عنده موفوراً له الحظ من العطاء . قالوا : كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور ، واشتهر ذلك ، واشتهر مجون جعفر وتهتكه ، ورفع أصحاب الخبر ذلك إلى المنصور ، وكان المهدي عنده ، فقال لأبيه : أنا به عارف ، ليس زنديقاً ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور : أحضره فأنه ، فأحضره المهدي ، ولامه وعنفه ، وأمر أن يضرب مثنى سوط ، قال مطيع : إن أذنت لي احتججت ، فأذن له ، فقال أنا شاعر ، وإنما ينفق شعري عند الملوك ، وقد كسدت عندكم ؛ واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك ، وأصفيته على ذلك شعري وشكري ، فإن رأيت أن في ذلك سوءاً تبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك ، حتى رق المهدي ، فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يجبس . قال :

فأنصرف بغير جائزة؟ قال المهدي: لا يجوز هذا، وأمر له بمثي دينار، خفية عن أمير المؤمنين. قال الرواة: وكان المهدي يحفظ له أنه وضع الحديث يوم أراد المنصور البيعة له.

أعتقد أنا أن هاتين القصيدتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويراً صحيحاً، فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء، وانتهى إلى السخرية والازدراء للناس وللحياة، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشيء الوحيد، الذي يستحق أن يعيش الناس من أجله، وهو اللذة، ومن هنا تملق المنصور، في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً، ومن هنا تطف للمهدي، حتى ابتز منه جائزة. وخرج من عنده موفوراً. أضف إلى هذا أن مطيعاً اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه، وكان محتمياً به، فلم يمسه أذى.

كل هذا يبين لك ما زعمته آنفاً من أن مطيعاً لم يكن مضطهداً، لا من الوجهة السياسية، ولا من الوجهة الدينية، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه في ذلك احتياطاً يسيراً، فيأمن كل شر. ولقد كثر تحدث الناس في عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم، ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد بن يزيد، فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط، في تصديق ما كان ينسب إليه، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء، ولم يكونوا ولاة عهد، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم، وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم، أو لم يسرفوا في هذا التكلف، وما أشك في أن حياة هؤلاء النفر، الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال، ما أشك في أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والانهام، فكثيراً ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه، وكثيراً ما كانت تجرى على ألسنتهم ألفاظ ينكرها الدين، وينكرها الخلق، ولكني مع ذلك أعتقد أن شيئاً من الاحتياط واجب في تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه، فالناس مشغوفون بالإسراف أبداً، لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده، يخترعون على ذلك الأدلة، وينتحلون الحجج، ويروون الوقائع،

يزعمون أنهم رأوها وما رأوها ، وإنما يخدعون الناس ، أو يخدعون أنفسهم .
وهذا الإسراف كثير في شأن مطيع وأصحابه ، ولكني لا أنكر المثل القائل :
« لا دنخان بلا نار » ، فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقليل ،
لما قال فيهم الناس شيئاً .

قلت : كان مطيع صادق اللهجة في شعره ، لا يكذب ولا يتكلف ،
وعلت صدق لهجته بأنه كان حر الرأي ، وأنه كان حر الرأي ، لأنه كان
يزدري الناس والحياة ، ولست أريد أن أغفل شيئاً رواه أبو الفرج ، وهو
يمثل رأى مطيع في الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدراؤه للناس ، وسوء ظنه
بهم . زعموا أنه مر بصديقيه يحيى بن زياد ، وهما عجرد وهما يتحدثان ، فقال :
فيما أنتما ؟ قالوا : في قذف المحصنات . قال : وهل في الأرض محصنة تقذفانها ؟ !
فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بغيّاً وسوء ظن بالناس ! كان صاحبه يقذفان
المحصنات ، ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات ، أما هو فلا يرى أن في الأرض
محصنة ، وإذن فليس هناك قذف ، وإنما كل قذف هو الحق ، أو دون
الحق . وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى هذا الحد ،
فما الذي يمنعه أن يكون حرّاً فيما يعمل وما يقول ، لا يتقي إلا شيئاً واحداً ،
هو ما يعرضه للموت ، أو للحرمان ! وإذا كان قد احتاط فأرضى السلطان ،
وأمن شره ، فليس عليه بأس في شيء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس
لم يكن شاملاً ؛ فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه
وأخذانه ، ومن أشد الأشياء تأثيراً في النفس هذه الصلة المتينة ، التي كانت
بينه وبين صديقه يحيى بن زياد ، والتي حرص عليها حرصاً شديداً ، يستثير
في النفس عاطفة مؤثرة حقاً . قالوا : شرب مطيع مع صديقه يحيى ، فعربد
عليه ، وكانت بينهما ملاحاة ، فأذى مطيع صاحبه ؛ فحلف لا يكلمه أبداً ،
ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الحجر ، فكتب إلى صديقه هذه الأبيات
العذبة ، التي تفيض حناناً ورقة ، والتي لا تخلو من شرف اللفظ ، وجمال الأسلوب :

إِنْ تَصَلَّيْنِي فَمِثْلَكَ الْيَوْمَ يَرْجَى عَفْوُهُ الذَّنْبَ عَنْ أُخِيهِ وَوَصَلُّهُ
وَلَيْنَ كُنْتَ قَدْ هَمَمْتَ بِهَجْرِي لِلَّذِي قَدْ فَعَلْتُ إِنِّي لِأَهْلُهُ

وَأَحَقُّ الرَّجَالِ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْبَ لِإِخْوَانِهِ الْمُؤَفَّرِ عَقْلُهُ
 الْكَرِيمِ الَّذِي لَهُ الْحَسَبُ النَّابِتُ فِي قَوْمِهِ وَمَنْ طَابَ أَصْلُهُ
 وَلَيْنَ كُنْتَ لَا تُصَاحِبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ مَا عَاشَ زَمَلُهُ
 لَمْ تَجِدْهُ وَإِنْ جَهَدْتَ وَإِنِّي لِلَّذِي لَا يَكَادُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
 إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ
 الَّذِي يَحْفَظُ الْقَدِيمَ مِنَ الْعَهْدِ وَإِنْ زَلَّ صَاحِبٌ قَلَّ عَدْلُهُ
 وَرَعَى مَا مَضَى مِنَ الْعَهْدِ مِنْهُ حِينَ يُؤْذِي مِنَ الْجَهَالَةِ جَهْلُهُ
 لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِفْكَارًا وَإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فَعَلُهُ
 وَصَلُهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمٌ فَإِنْ طَالَ فَيَوْمَانٍ ثُمَّ يَنْبَتُ حَبْلُهُ

وكتب إليه :

كُنْتُ وَبِحَيِّ كَيْدِي وَاحِدٍ نَزَمِي جَمِيعًا وَتَرَيْنَا مَعًا
 إِنْ عَضَّنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ يُوجِعُنَا مَا بَعْضُنَا أَوْجَعَا
 أَوْ نَامَ نَامَتْ أَعْيُنُ أَرْبَعٍ مِنَّا وَإِنْ أَسْهَرَ فَلَنْ يَهْجَعَا
 يَسُرُّنِي الدَّهْرُ إِذَا سَرَّهُ وَإِنْ رَمَاهُ فَلَنْ نَسَا فِجَعَا
 حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرَقِي لِأَحَ وَفِي عَارِضِهِ أَسْرَعَا
 سَعَى وَشَاءَ فَمَشَوْا بَيْنَنَا وَكَادَ حَبْلُ الْوُدِّ أَنْ يُقْطَعَا
 فَلَمْ أَلَمْ يَحْيِي عَلَى فِعْلِهِ وَلَمْ أَقُلْ مَلًّا وَلَا ضِيَمًا
 لَكِنْ أَعْدَاءُ لَنَا لَمْ يَكُنْ شَيْطَانُهُمْ يُرْوِي بِنَا مَطْمَعَا
 بَيْنَا كَذَا عَاثَ عَلَى غِرَّةٍ فَأَوْقَدَ النَّيِّرَانَ مُسْتَجِمَعَا
 فَلَمْ يَزَلْ يُوقِدُهَا دَائِبًا حَتَّى إِذَا مَا اضْطَرَمَّتْ أَقْلَعَا

وانظر إلى هذا الشعر يرثى به يحيى هذا :

قَدْ مَضَى بَحْيِي وَغُودِرْتُ فَرْدًا نُصَبَ مَا سَرَّ عِيُونَ الْأَعَادِي

وَأَرَى عَيْنِي مُذْ غَابَ يَحْيَى بَدَلْتُ مِنْ نَوْمِهَا بِالسَّهَادِ
 وَسَدَّتْهُ الْكَفُّ مِنِّي تَرَابًا وَلَقَدْ أَرْتِي لَهُ مِنْ وَسَادِ
 بَيْنَ جِيرَانٍ أَقَامُوا صُمُوتًا لَا يُحِيرُونَ جَوَابَ الْمُنَادِي
 أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ الَّذِي جَادَ حَتَّى أَغَشَبَتْ مِنْهُ مُتُونُ الْبُؤَادِي
 إِسْقِ قَبْرًا فِيهِ يَحْيَى فَإِنِّي لَكَ بِالشُّكْرِ مُوَافٍ مُعَادِي

كان يحيى صديقاً لطيع في الخير والشر صديقاً حقاً ، وكان لطيع صديق آخر ، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة ، صداقة مزاح وطهو وسخرية ، ذلك هو حماد عجرد ، فسرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوباً ضيق الذرع ، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك ، فلا يرقون له ، ولا يرفقون به ، وكان حماد أصلع ، وكانت صلعته شديدة الحمرة ، فانهز ذلك صديقه مطيع ، وأفسد بينه وبين صاحبه له تسمى خشة ، وتُعرف بظبية الوادي ، فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه ، واتصل بينهما هجاء لذاع ، ولكنه لذيذ ، لم يمنع اتصال المودة بينهما ، ولست أروى لك منه شيئاً ، وقد تستطيع أن تجده في الأغاني .

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر مطيع كله ، لضيق المكان ، وطول هذا الفصل ، ولكني لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة ، التي تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلاً صادقاً ، أحسه القدماء ، فرقوا له ، وكلفوا به ، وقد قال هذه الأبيات في جارة له أحبها بالرى ، ثم اضطرت ففارقها ، فلما كان في طريقه مر بعقبة حسان ، فجلس يستريح إلى نخلتين هناك ، وذكر صاحبه ، فقال :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانِ وَابْكِيَا لِي مِنْ رَبِّ هَذَا الزَّمَانِ
 وَاعْلَمَا أَنَّ رَبِّيهِ لَمْ يَزَلْ يَفْرُقُ بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْجِيرَانِ
 وَلَعَمْرِي لَوْ ذُقْتُمَا أَلَمَ الْفُرِّ قَهَّ أَبْكَا كَمَا الَّذِي أَبْكَانِي
 أَسْعِدَانِي وَأَيُّقِنَا أَنَّ نَحْسًا سَوْفَ يَلْقَا كَمَا فَتَفْتَرِقَانِ

كَمْ رَمْتَنِي صُرُوفَ هَذِي اللَّيَالِي
 غَيْرَ أَنِّي لَمْ تَلْقَ نَفْسِي كَمَا لَا
 جَارَةٌ لِي بِالرَّيِّ تَذْهَبُ هَمِّي
 فَجَعَلْتَنِي الْأَيَّامُ أَغْبَطَ مَا كُنْتُ
 وَبِرَعْمِي أَنْ أَصْبَحْتَ لَا تَرَاهَا أَلَا
 إِنْ تَكُنْ وَدَدْتُ فَقَدْ تَرَكَتْ بِي
 كَحَرِّيقِ الضَّرَامِ فِي قَصَبِ الْعَا
 بِرَاقِ الْأَحْبَابِ وَالْخَلَّانِ
 قَيْتُ مِنْ فُرْقَةِ ابْنَةِ الدَّهْقَانِ
 وَتَسَلَّى ذُنُوبَهَا أَحْزَانِي
 تُصَدِّعُ لِلْبَيْنِ غَيْرَ مُدَانِي
 مَيْنُ مَنِي وَأَصْبَحْتَ لَا تَرَانِي
 لَهَبًا فِي الضَّمِيرِ لَيْسَ بَوَانِي
 بِرَمْتَهُ رِيحَانِ تَخْتَلِفَانِ

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلى حلوان تاريخاً وذكرى بين الأدباء والشعراء . قالوا : أراد المنصور أن يقطعهما ، فلما أنشد هذا الشعر كره أن يكون النحاس الذي يفرق بينهما . وأراد المهدي أن يقطعهما ، فهناك المنصور عن ذلك . قالوا : ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب إلى طوس ، فهاج به الدم ، ووصف له الطبيب جُمَّارًا ، فلما سئل الدهقان أشار إلى النخلتين ، ولم يكن في حلوان غيرهما ، فقطعت إحداهما ، ثم مرَّ الرشيد بالأخرى ، فرأى عليها هذه الأبيات ، فندم وقال : لو علمت أن هذه الأبيات قيلت في هاتين النخلتين ما عرضت لهما ، ولو قتلتى الدم .

وإذا صح ما تحدث به الرواة ، فقد كان موت مطيع شعراً لا يعد له شعر . قالوا : سأله الطبيب في علته التي مات فيها : ماذا تشهى اليوم ؟ فأجاب أشتهى ألا أموت ؛ أترى جواباً أكثر شعراً ، وأغزر معنى ، وأشد تمثيلاً لضعف الإنسان ، وقوة رغبته في الحياة ، من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكماً جامعاً مختصراً بعد هذا التفصيل ، لما تجاوزنا حكم أبي الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مُخْتَصِرِي الدُولَتَيْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ ، وليس من فحول الشعراء ، ولكنه كان ظريفاً ، خليعاً ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجناً ، متهماً في دينه بالزندقة » . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئاً ، لقلنا إنه كان صادقاً في شعره ، آخذاً بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها .

حماد عجرد^(١)

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحمادُ الرواية ، وحماد بن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يُرْمَوْنَ بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد . » الأغانى جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبعُ بُلَاق .

وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتاب الأغانى ، تجده إذا عرض أبو الفرج لمطبع بن إياس ، وتجده إذا عرض لغير مطبع بن إياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتب أخرى غير الأغانى ، لكتّاب ورواة آخرين غير أبي الفرج ، إذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين عاشوا في النصف الأول للقرن الثاني من الهجرة ، وتجد في الأغانى وغير الأغانى كلاماً كثيراً عن شعراء عابثين في المدن الثلاث ، التي كانت أمصاراً متقدمة للعالم الإسلامى أيام بنى العباس ، وهى الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية ، لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ، ولا عن مصر ، فإن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة ، وللعبث والعبثين آخر أيام بنى أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجون ، إنما حُمِلت كلها من العراق إلى الشام ، بأمر الوليد بن يزيد ، أو غير الوليد بن يزيد من مُجَنَّان بنى أمية .

الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية . نعم ! إنك تجد في الأغانى وغير الأغانى أن الوليد بن يزيد عبث ومجنن ، وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية ونداهى من العابثين وأهل المجون ، فالتمسهم في الشام ، فلم يجدهم ، وسأل عنهم ، فدله الناس على قوم في العراق ، دلّوه على هذين « الحمادين » حماد عجرد ، وحماد الرواية ، ودلوه على مطبع بن إياس ، وكانوا في الكوفة ، فأرسل يطلب

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ - ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

إشخاصهم إليه ، فأشخصوا ، فاتخذهم نداى له حتى قُتِل ، فعادوا إلى أوطانهم . وتجد في كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكراً لطائفة من العابثين ، وأهل الحجون المسرفين فيه ، ظهروا أيام بنى أمية ، وأيام كان بنوا أمية حازمين منصرفين إلى الخلد ، ظهروا في الحجاز ، في مكة وفي المدينة بنوع خاص ، ولكنك إذا بحثت عن مجون هؤلاء ، وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ، ويُسْتَهْمون به في دينهم وسيرتهم ، انتهيت إلى نتيجتين نجمتهما ، الآن ، ونفصلهما يوم نعرض للعبثيين من أهل الحجاز. الأولى : أن مصدر هذا العبث عراقى ، دعا إليه الموالى الرقيق ، من الفرس وأهل العراق . والأخرى : أن لهذا العبث صبغة عربية ، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد ، لأن زعماء العابثين في المدينتين المقدستين كانوا من أشرف العرب الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بنى أمية إلى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ، ففرغوا لأنفسهم ، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح ، وكان الخلفاء من بنى أمية يعرفون لهم أقدارهم ، ويمسكونهم في هاتين المدينتين ، بعيدين عن السياسة ، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز ، وإنما يدرونها عليهم إداراً ، فكانوا يسهون ويعبثون ، ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة ، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى ، من الفرس وأهل العراق .

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والحجون والزندقة في الإسلام ، فلن تستطيع أن تعدو الفرس ، وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس ، وكانوا بهم أشد اتصالاً ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة ، وإباحة هؤلاء الشعراء ، ولكن هذا التأثير عرضى لا جوهرى ، إن صح هذا التعبير ؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية ، يزينون بها شعرهم وزندقتهم ، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية ، ولم تتأثر بها حياتهم وعواظفهم تأثراً قوياً . على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذى أزهرت فيه الفلسفة اليونانية في بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ؛ فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زيد ؛ فإن أيام هؤلاء قبل عصر المأمون ، وقبل أن يصبح البِدْعاء في بغداد ترجمة الكتب اليونانية ، دروس الفلسفة اليونانية . ولو

أنى أردت أن أشخص زندقة القرن الثاني للهجرة تشخيصاً ، إن لم يكن علمياً دقيقاً فهو يقربها من الأذهان تقريباً لا بأس به - أقول : لو أنى أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبياً ، لقلت : إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية . وأكثر هؤلاء الزنادقة والعاثين لم يكونوا يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ، ويطمئنون إليه حقاً ، وإنما كانوا يكرهون الإسلام ، وكان كرههم للإسلام يضطرهم إلى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى النعمى على الإسلام ، والتخلص من قيوده ، وما أخذ الناس به من واجبات . لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية ولا اليهودية ؛ لأن الفرس لم يكونوا نصارى ، ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام الديانة الفارسية القديمة ، الخالصة من بدع المبتدعين ، وإنما كانوا يؤثرون من هذه العقائد الفارسية ضرورياً من البدع ، تدعو إلى الإباحة واللذة ، وترغب فيهما ، وتعين عليهما ، كانوا إذن يطمحون قبل كل شئ إلى أن يستمتعوا باللذات فى غير حساب ولا تقدير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة ، لما أنكروا من الإسلام شيئاً ، ولا سبوا هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ، ولا يريدون أن يتأروا للفرس من العرب ، ولكن الإسلام كغيره من الديانات السماوية شديد فى باب اللذة ، حريص على تطهير الأخلاق ، وأخذ الناس بالطهيز والتقاء ، فى سيرتهم الخاصة والعامة ، وهذا يناقض الإباحة والإسراف فى اللذة ، ويأخذ عليهما الطريق . فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الإسلام ، فيستمتع بلذته فى غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحجج والأدلة ، أو التعللات والمعاذير ، يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاء العاثرين ، فوجدوا ما كانوا

يحتاجون إليه في حياة الفرس ، وما شاع فيهم من البِدَع ، واستحالوا إلى شيء آخر أكثر من نصر اللذة ، هو التعصب على الإسلام ، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات . ومن هنا هاجموا أصول الديانات ، وسخروا منها ، ومن هنا آثروا النار التي يعبدها الفرس ، ويردون إليها كل شيء ، على الطين الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان ، ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامي ، وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث ، وإنما يحفلون باللذات ، فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولم من الحياة السياسية في ذلك العصر معين على الإسراف في الإلحاد والعبث ؛ فهو عصر انتصار الفرس على العرب ، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ، يعترفون بالفرس ، ويتملقونهم ، ويؤثرونهم بالحظوة ، ويكلمون إليهم أمور الدولة كلها ، فما الذي يمنع الفارسية وأنصارها ، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف في الخمر ، أن تنتصر وتسود ، وتظهر جبهة غير مستخفية ولا محتاطة ! من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الأدبية ، التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة ، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً . كانت عصر بني أمية ضعيفة مترددة متسرة ، لا يكاد الناس يُظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور ، قويت واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم ، وظهرت واضحة قوية ، حتى عرضت الحياة الدينية والسياسية للخطر ؛ فاضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يقاوموها مقاومة عنيفة ، لم تخل في بعض الأحيان من ظلم وإسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة ، أو هؤلاء الذين كانوا يهتمون في دينهم ، وكانت هؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم ، في الكوفة والبصرة ، ثم في بغداد ، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة ، وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون في دورهم ، وهم كانوا يجتمعون في الأديار ، وهم كانوا يجتمعون في البساتين والحانات ، وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب والغناء ، والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون في ذلك إسرافاً لا يعدله إسراف ، ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية

التي تحظر عليهم ذلك ، وتعرضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة ، أو فن من فنون الديانات الغربية ، أو لون من ألوان الدرس الفلسفي غير المألوف ؟ ذلك شيء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء ، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشيء من هذا ؛ لأنني قد قلت لك إنها لم تكن مخصصة في الإيمان بمذهب من المذاهب ، ولا في إثارة دين على دين ، وإنما كانت تتخذ المانوية شعاراً . ولو أنها أنصفت نفسها ، وآثرت الصدق ، لاتخذت شعارها الشك والسخرية ، وليس من شك في أنهم كانوا يذكرون المانوية ، ويؤثرونها على الإسلام ، ولكن تَمَكِّيهِةً وانتقاماً من هذا الدين ، الذي يسلط عليهم الشرط وغضب الأمراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم ، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً ، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالاً قوياً ، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين في زندقتهم ؛ فلو أن هناك صلة دينية متينة ، تجمع بينهم حقاً ، وتكون منهم أقلية ممتازة متضامنة ، لما أساء بعضهم إلى بعض ، ولما سعى بعضهم ببعض ، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان ، ولكنهم كانوا يسرفون في الإساءة إلى أنفسهم ، وإلى أصحابهم ، ويكفي أن تقرأ ما بين بشار وحماد من الخصومة ، واتصال الهجاء ، لتعلم مقدار هذا الاستعداد ، ومقدار ما كان يضمم الزنادقة بعضهم لبعض من الموحدة والحفيظة ، ومن الحقد والضغينة ، التي كانت تحمل أحدهم على أن يغري بصاحبه إغراء منكرراً . وانظر إلى قول حماد يغري الأمير بخصمه بشار ، فهو يمثل في وقت واحد إجادة حماد في الشعر ، وميله إلى الشر ، وإثارة الانتقام على كل شيء :

قُلْ لِعَيْسَى الْأَمِيرِ عَيْسَى بْنِ عَمْرٍ
ذِي الْمَسَاعِي الْعِظَامِ فِي قَحْطَانِ
وَالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي طَالَ حَتَّى
قَصُرَتْ دُونَهُ يَدَا كُلِّ بَانِي

يَابْنَ عَمْرٍ عَمْرٍ الْمَسْكَارِمِ وَالْتَمَّ سَوَى وَعَمْرٍ الذِّدَى وَعَمْرٍ الطَّعْمَانِ
لَكَ جَارٌ بِالْمِصْرِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مِنْكَ حُرْمَةً الْجَيْرَانَ
لَا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يَقْرَأُ حَرْفًا مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
إِنَّمَا مَعْدِنُ الزُّنَاةِ مِنَ السَّفَلَةِ فِي بَيْتِهِ وَمَاوَى الزَّوَانِي
وَهُوَ خِدْنُ الصَّبِيَّانِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِينَ فَمَاذَا يَهْوَى مِنَ الصَّبِيَّانِ ؟
طَهَّرَ الْمِعْرَمَ مِنْهُ يَأْيُهَا الْمَوْءَى لِي الْمُسْمَى بِالْمَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ تَفَرُّزٌ مِنْهُ فَوْزٌ أَهْلُ الْجَمَانِ
يَابْنَ بُرْدٍ إِخْسَاءُ إِلَيْكَ ، فَمِثْلُ الْكَلْبِ فِي النَّاسِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ
وَأَعْمَرِي لَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْكَلْبِ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانِ

ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر ، ولا رغبة في الإساءة إلى خصمه ،
وفي اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة ، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه
طريقة الاستعداد هذه ، ولعلهما لم يسرقاها ، وإنما وجداها طريقة مألوفة
بين الناس في ذلك العصر ؛ فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الشائعة
المنكرة ، التي أساءت إليه غير قليل ، وهي أنه كان ذات يوم ينشد شعراً ،
وإلى جانبه قارئ يتلو القرآن ، والناس مجتمعون من حوله ، فلما رأى حماد
اجتماع الناس حول القارئ قال : علام يجتمعون ؟ إن الذي أنشده لخير مما يتلوا !
وهجا بشار حماداً بأبيات يثبت فيها عليه الزندقة ، فقال :

أَبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرَّئُوسِ خَطْبٌ جَبِيلٌ
أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِثْنِيَّةِ نِ فَايْنِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولٌ
يَابْنَ نَهْيٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ هِ جَهَاراً وَذَلِكَ مِنِّي قَلِيلٌ

قال أبو الفرج : فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار ، وجعل فيها مكان
(فإني بواحد مشغول) : (فإني عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة
والكفر بالله تعالى ، فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس ، حتى انتهت

إلى بشار ، فاضطرب منها وجزع ، وهذا الخبر يمثل مكر حماد ، واحتراس بشار ، فقد كان حماد ماكرًا شديد المكر ، ماهراً في الخصومة ، يعرف كيف ينال من خصمه ، وكيف ينتصر عليه ، وكان بشار محترساً شديداً الاحتراس ، يكره أن يوصف بالزندقة ، ويشفق من ذلك إشفاقاً شديداً ، وكان يرسل فضل زندقته إلى غيره ، فيتهم الناس بما فيه ، ولهذا أكثر الإكثار كله حين هجا حماداً بوصفه بالزندقة والكفر ، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفرةً ، وإنما كان الفرق بين الرجلين أن حماداً كان مستهتراً ، يجهر بمجونه ، ولا يخفي عبثه وأن بشاراً كان محتاطاً متحفظاً ، يتكلف الدين والورع ، كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يخف أمر بشار على أحد ، بل لقي من احتياطه وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره ؛ فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي ، والرواية يختلفون كما سترى في موت حماد ، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته مؤقراً ، لم يجر عليه عبثه ومجونه أذى ولا شراً . وفي كتاب الأغاني خبر يثبت ذلك إثباتاً لا شك فيه ، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار شيء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة ، وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وتمتلك ، بفضل بلاغة بشار ، وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، وعرف مذهبه في الزندقة ، فقتل فيه . ولعل في هذا الخبر شيئاً من المبالغة ؛ فهناك خبر آخر يدل على أن بشاراً لم ينتصر على حماد في الهجاء ، وإنما الذي انتصر هو حماد ، وإن لم يكن له من جيد الهجاء في بشار إلا أربعون بيتاً . فاسنا نرى في سيرة حماد أنه قد سقط ، أو ازدراه الناس ، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمداً ؛ فقد كان لحامد شيء من السلطان الأدنى غير قليل ، كان يخيف الشعراء ، وكان يخيف الأمراء ، وكان يخيف كبار الناس . كان يخيفهم ؛ لأنه كان ماهراً في الهجاء ، سريعاً إليه ، حديد اللسان فيه . وكان كما قلت لك في حديث الأربعاء الماضي سيء الخلق ، سريع

الغضب ، مندفعاً إلى الانتقام ، وكان مع ذلك ماكرًا لطيف المكر ؛ فكان
الأمراء ووجوه الناس يحтаطون في معاملته ، ويتلطفون له ، ويتغنون ما يرضيه ،
ويتجنبون ما يسوءه ، وربما اضطروا أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد ،
فاعتذر إليه ، وبالغ في الاعتذار ، وكان حماد يقبل العذر حيناً ، ويرده
حيناً آخر ، وكان هو الفائز في كلتا الحالتين ، فإن قبل العذر كوفئ لقبوله ،
وإن بولغ في ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حماداً ، حتى اضطره ذلك
إلى أن يقطع الصلاة . ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشرف
البصرة ، في نفر من وجوه الناس ، وجاء الغداء ، فقيل إن سهم بن عبد الحميد
(أحد الحاضرين) يصلى الضحى ، فانتظروا ، وأطال صاحبنا الصلاة ،
فقال حماد :

أَلَا أَيُّهَا الْقَائِمُ الْمُتَّجِدُّ صَلَاتِكَ لِلرَّحْمَنِ أَمْ لِي تَسْجُدُ
أَمَّا وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ لِمَنْ غَيْرِ مَا بَرَّ تَقْوَمُ وَتَقَعْدُ
فَهَلَّا اتَّقَيْتَ اللَّهَ إِذْ كُنْتَ وَالِيًّا بِصَنْعَاءَ تَبْرِي مَنْ وَالَيْتَ وَتَجْرُدُ
وَيَشْهَدُ لِي أُنَى بِذَلِكَ صَاقُ حَرِيثٌ وَيَجِي لِي بِذَلِكَ يَشْهَدُ
وَعِنْدَ أَبِي صَفْوَانَ فِيكَ شَهَادَةٌ وَبَكْرٌ وَبَكْرٌ مُسْلِمٌ مُتَّجِدُّ
فَإِنْ قُلْتَ زِدْنِي فِي الشُّهُودِ فَإِنَّهُ سَيَشْهَدُ لِي أَيْضًا بِذَلِكَ مُحَمَّدٌ

فلما سمعها سهم قطع الصلاة ، وجاء مبادراً ، فقال له : قَبَّحَكَ اللَّهُ
يا زنديق ! فعلت بي هذا كله ، لشركك في تقديم أكل وتأخيرهِ ! هاتوا طعامكم
فأطعموه ، لا أطعمه الله ! قالوا : ونزل حماد على محمد بن طلحة ، فأبطأ عليه بالطعام ،
فاشتد جوعه ، فقال فيه حماد :

زُرْتُ أَمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً لَهُ حَبْلًا وَلَهُ خَيْرٌ
يَسْكُرُهُ أَنْ يَتَّخِمَ أَضْيَافُهُ إِنْ أَدَى التُّخْمَةَ مَحْذُورٌ
وَيَسْتَهِي أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ بِالصَّوْمِ ، وَالصَّالِحُ مَا جُورٌ

فلما سمعها محمد قال له : عليك لعنة الله ! أى شيء حملك على هجائي ،
ولنما انتظرت أن يفرغ لك من الطعام ؟ قال : الجوع وحياتك حملني عليه ،

وإن زدت في الإبطاء زدت في القول ، فمضى مبادراً حتى جاء بالمائدة .

كان حماد إذن مخوفاً حياته كلها ، لم يسقطه هجاء بشار ، ولا تشهيره به ، بل انتصر على بشار كما قدمنا ، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذي ظفر به حماد ، مع أن خصمه أجود منه شعراً ، وأنفذ منه لساناً ، فعلة ذلك شيطان ، أحدهما : أن حماداً كان صادقاً ، يلائم بين قوله وعمله ، فلم يكن يتكلف ديناً ولا ورعاً ، ولم يكن يتستّر من عبث أو مجون ، فكان بشار إذا هجاه وصفه بما لا ينكر ، أما بشار فقد كان متكلفاً محتاطاً ، فكان حماد إذا هجاه أحيا في الناس حب الاستطلاع ، ودلم من أمره على ما يجهلون . والآخر : أن حماداً لم يكن يعنى في هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً ، وإنما كان يسلك في هجائه طريق الشعراء الأولين ، فيهجو أمه وأباه وامراته ، ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حماد ، قال الرواة إن بشاراً بكى حين سمع قول حماد فيه :

وَأَعْمَى يُشْبِهَ الْقِرَدَ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرَدُ

فلما سئل عن بكائه قال : يرانى فيصفتى ، ولا أراه فأصفه ؛ وكان هذان الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما ، يروى لكل منهما ما قال صاحبه فيه ، ويحمل إليه الجواب ، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة ؛ فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر ، لا بأس بها . وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء ، الذى اتصل بين الرجلين أعواماً طويلاً ، فصدره يسير ، وهو أن بشاراً كانت له حاجة عند حماد ، فأبطأ فيها ، فغضب بشار ، وعاتب صاحبه عتاباً لاذعاً ؛ فغضب حماد ، وهجا بشاراً ، واتصل الشر بين الرجلين ، فكان حديث أهل البصرة ، بل كان حديث أهل العراق أيام حياتهما ، وبعد أن ماتا ، وذلك يدل على ما قلته من أن حماداً كان سريع الغضب ، مندفعاً إلى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه أحياناً عن الاندفاع في الشر ؛ فقد داعب مطيعاً ذات يوم ، فرد عليه مطيع بشعر منكر ، كان من شأنه أن يغزى حماداً ، ولكن حماداً ملك نفسه ، وغفرها لمطيع ، ولم يرد عليه هجاءه ، وإنما مدحه بشعر لا بأس به ، على أن حلم حماد كان محدوداً ؛ فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى في الحب أو الهوى ،

فإذا ناله هذا الأذى ، فلم يكن للحلم إليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع ، كما اتصل بينه وبين بشار ، لأمرين ، كلاهما حب ، أحدهما : أن مطيعاً زار معه صاحبه خشة ، فازدراه عندها ، وعيره صلّته ، وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبه ، فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة ، فأذكوا النار ، ليضحكوا من حماد . والآخر : أن حماداً كان يهوى غلاماً ، فهو به مطيع ، وتقرّب إليه ، فاغتاظ لذلك حماد ، وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الأحوال ، وإنما تجاوز هؤلاء جميعاً إلى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبي عون ، كان صديقاً لحماة ومطيع ، وكانت له جارية تسمى جوهر ، كان حماد يحبها ، ويحسبها ، وكان يلقاها من حين إلى حين ، فتسامع الناس بذلك ، وتحدثوا فيه ، وكره سيدها هذا الحديث ، فحجبتها عن حماد ، فأنكر حماد ذلك ، وهجا الرجل ، فأسرف في هجائه وأقذع .

ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئاً ؛ فليس إلى روايته سبيل . . .
 وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم ، بل كذلك بالنسك وأهل الزهد ، إذا عرضوا له وانتقصوه . ويختلف الرواة في قصة له : أوقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ؟ ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقاً لحماة ، ثم نسك وأخذ ينتقص حماداً ، وأخذ حماد يلاطفه ويرفق به ، لعله يقلع عن انتقصه ، فلم يقبل ؛ فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنْ دَجِي إِلَيَّ لَكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقَلَاصِ
 أَيَّامَ تُعْطِيَنِي وَتَأْ خَذُ مِنْ أِبَارِيْقِ الرَّصَاصِ
 إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتِي مَّ بَغَيْرِ شَتْمِي وَانْتِقَاصِي
 أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بَغَيْرِ ذَا كَ تَنَالِ مَنزِلَةَ الْخَلَاصِ
 فَعَلَيْكَ فَاشْتُمُّ أَمِنًا كَلَّ الْأَمَانَ مِنْ الْقِصَاصِ
 وَاقْعُدْ وَقُمْ بِى مَا بَدَأَ لَكَ فِي الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
 فَلَطَّالَمَا زَكَيْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي

أَيَّامَ أَنْتَ إِذَا ذُكِرَ تَ مُنَاضِلٌ عَنِّي مُنَاصٍ
وَأَنَا وَأَنْتَ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَوْبِقَاتِ مِنَ الْحِرَاصِ

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيى بن زياد : إن هذا الشعر اتصل به ، فلم يزد إلا طعناً في حماد ، ونعياً عليه ، فقال حماد فيه :

لَا مُؤْمِنٌ يَعْرِفُ إِيمَانَهُ وَلَيْسَ يَحْيَى بِالْقَتَنِ الْكَافِرِ
مُنَافِقٌ ظَاهِرُهُ نَاسِكٌ مَخَالِفُ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ

أما الذين يضيفون القصة إلى أبي حنيفة ، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات خاف من حماد ، فأقلع عن شتمه .

ولو أني أحببت أن أشخص حماداً كما شخصت مطيعاً والوليد بن يزيد ، لوصفته قبل كل شيء بجدّة الطبع ، وسوء الخلق ، وحب الانتقام ، والإسراع إليه ، ثم بالصراحة في القول ، والملازمة بينه وبين العمل ، وبكبره النفاق ، والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضي الناس عنه ، أم سخطوا عليه ، ثم بجدّة اللسان ومضيه وإقذاعه ، وكلفه بفاحش القول ، وبجثته عن أسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وازدراءهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلاً من أصول الحياة ، كالوليد ومطيع وأبي نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء ، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب ، وأُخذت عليه الطرق ، أودعته إلى ذلك حاجة ، لم يكن حماد يَحْفِلُ بما يَحْفِلُ به الناس من الوفاء ، والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتى تبدو له حاجة ، أو تسنح له فرصة ، أو تضطره ضرورة ، فإذا صداقته قد استحالت إلى عدا ، وإذا هو ليس أقل صدقاً وإخلاصاً في العدا منه في المودة والحب ، فقد مدح يحيى بن زياد ، واتخذ صديقاً ، ونال جوائز ، ثم كان الخلاف فهجاه ، وصادق بشاراً وصفاه ، ثم اختصما ، فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقاً . وصاني مطيعاً وأحبه ومدحه ، وأكثر في الثناء عليه ، ثم اختصما في امرأة مرة ، وفي غلام مرة أخرى ، فهجاه وأقذع في هجائه . وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس ، والعدل في معاملتهم ، هجا ذات يوم

رجلا يقال له : حشيش ، وجعل اسمه قافية لهذا الشعر ، وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه ببحيش ، وكان بحيش هذا رجلا من أهل البصرة ، وادعاً لا يعرف حماداً ، ولا يعرفه حماد ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له ، وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة ، فعاتب حماداً ، فقال له ضاحكاً معتذراً : لا بأس عليك ، فإن هذا من آثام القافية ، ولن أعود إليه .

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد ، على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ، ونيله من أعراض الناس ، ووجوه الأمصار ، أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب عن ذلك يسير ، وهو أن حماداً كان متصلاً أيام العباسيين بأمر من أمراءهم ، هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا إنه أدبه ونادمه ، فأمن لاتصاله به كل غائلة . على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوباً جساماً ، فقد كان محمد هذا خليعاً ، كما كان جعفر بن المنصور حامى مطيع خليعاً أيضاً ، وكان المنصور يكره محمداً ، ويؤثر عليه المهدي بالخلافة ، كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفرأ ، ويريد إقصائه عن الخلافة ، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن علي ، من أشرف العلويين ؛ فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه ، فلم تقبل خطبته ، فزاده الرفض حباً لها ، وهياماً بها ، ولم يكن شاعراً ، أولم يكن يجيد الشعر ، فليجأ إلى مؤدبه ونديمه حماد ، وجعل حماد يتغزل له في صاحبته ، وجعل حكام الوادي يغنيه بغزل حماد ، وانتشر هذا الشعر ، ونسبه الناس إلى محمد حيناً ، وإلى حماد حيناً آخر ، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جليلة الأمر ، فغضب على حماد وتوعده ، وحلف ليقتلنه ، وظل حماد آمناً ما عاش محمد ابن أبي العباس ، ولكن محمداً مات ، فاضطرب حماد ، وأشفق من وعيد خصمه ، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبي خصمه هذا ، واستجار به ، وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان ، فلم يعطف عليه ، ولم يترث له ، وإنما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة : فهرب حماد ، حتى وصل بغداد ، فاستجار بجعفر بن المنصور ، فأجاره على أن يهجو محمد ابن سليمان ، فهجاه وبالغ في هجائه وأجاده ، فلم يزدد محمد إلا سخطاً عليه .

قالوا : وكان حماد في الأهواز ، فأرسل إليه محمد أحد مواليه ، فقتله غيلة ، ويقال : إنه لم يقتل ، وإنما أصابته علة طالت عليه ، ووصل نعيه إلى بشار ، ولم يكن حماد قد مات ، فقال بشار :

لَوْ عَاشَ حَمَادٌ لَهَوْنَا بِهِ لَكِنَّهُ صَارَ إِلَى النَّارِ

قالوا : فبلغ هذا البيت حماداً وهو عليل ، فقال :

نُبِّئْتُ بِبَشَارَا نَعَانِي وَلِمَشَّيْرٍ بَرَانِي الْخَالِقُ الْبَارِي
يَا لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أَهْبِئْهُ نَعْمٌ وَلَوْ صِيرْتُهُ إِلَى النَّارِ
وَأَيُّ خِزْيٍ هُوَ أَخْزَى مِنْ أَنْ يُقَالَ لِي : يَا سَابَّ بَشَارٍ

ثم مات حماد ، وكان من أمر بشار ما كان ، حتى قتله المهدي ، فدفن بشار مع حماد في مكان واحد . قالوا : فمر بهما شاعر من شعراء البصرة ، كان يهاجى بشاراً ، يقال له أبو هشام الباهلي ، فوقف على قبريهما ، وقال هذه الأبيات ، التي تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قَدْ تَبِعَ الْأَعْمَى قَفَا عَجْرَدٍ فَأَصْبَحَا جَارَيْنِ فِي دَارِ
قَالَتْ بَقَاعُ الْأَرْضِ لَا مَرْحَبًا بِقُرْبِ حَمَادٍ وَبَشَارِ
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَجَافِيهِمَا مَا أَبْفَضَ الْجَارَ إِلَى الْجَارِ !
صَارَا جَمِيعًا فِي يَدَيِ مَالِكٍ فِي النَّارِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ

حسين بن الضحاك الخليلي (١)

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف ، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المحجون ، قليل الفحش في اللفظ ، غير متهاك على القول الآثم والألفاظ المستكررة ، لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطراراً ، وهو على ظرفه ورقة حاشيته ، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره ، شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجود إذا فكر ، مظفر إذا بحث ، موفق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين ، في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع بيبته ، وبجيبته سهلة مرسلة ، غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا يناها إعياء أو كلال . وحياته كلها عيبرٌ وعظات ، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ، ليست بالمظلمة ولا العابسة ، ولا بالتى تردك وتفرك ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سيلاً . ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظل مبتسماً منذ تبتدىء إلى أن تنتهى ، دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكنك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد . وربما اعترضتك في طريقك بحابة محزنة ، ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان الشاعر من المعمرين ، بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظاً بشخصيته الوادعة المبتسمة ، تغيّر الناس ، واختلفت الظروف ، وظل هو واحداً لم يتغير . كان خليعاً ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المحجون ، مسرفاً فيه ، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة ، أو تفوق عليه في مأثم ، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المحجون ، وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشيء

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٣ أبريل ١٩٢٤ م .

من كرم الخلق ، وطهارة العنصر ، وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تتزلق على نفسه وأخلاقه تزلقاً ، دون أن تترك فيها أثراً باقياً ، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعبث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة ، التي سأظهرك على طرف منها .

قلت : إن حياته كانت عبرة كلها ؛ فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء ، الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ، وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً ، يعاشروهم ويرافقهم ، ويتدخل في حياتهم الخاصة ، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويحرصون على عشرته ، ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس في البصرة ، واختلفا معاً إلى مجالسها وملاهيها ، ثم افترقا ، فذهب أبو نواس إلى بغداد ، وأقام هو في البصرة ، ولم تكد تمضي مدة قصيرة على أبي نواس في بغداد ، حتى بعد صوته ، وتسامع به أهل العراق ، لأنه اتصل بالأمرء وأشرف الناس ، فارتفع قدره ، وعكبت مكانته ، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين في البصرة ، فغبط صاحبه ، وقفنا أثره ، وانتقل إلى بغداد ، فمدح الناس وتقرّب من أشرافهم ، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها ، وقال الشعر في الخمر ، وفي ضروب اللذات ، وما هي إلا أن عظم أمره ، وتسامع به أهل بغداد وزعماءها ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد ، وإنما اتصل بأبناء الرشيد ، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلاً ؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء ، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك ، ويحتالون فيه ، حتى إذا نالهم هذه الخطوة أنشدوا الخليفة شعرهم ، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزهم ما أتيح لهم ! ذلك أن أبا نواس والحسين ابن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد ، فقد كان في الرشيد شيء من العبث وحب اللهو ، ولكن عبث الرشيد وطوه لم يكونا قوام حياته ، وإنما كانا ضرباً من الترفيه على النفس . ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو ؛ فلم تنفق بضاعتهم عند الرشيد ، وإنما نفقت عند الأمرء من أبنائه ، وعند الوزراء وأشباه الوزراء ، من رؤساء

الدولة وأشرفها . فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنه ، واتصل شيئاً بالأمين ، حين كان ولياً للعهد ، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالِك . وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد ، لم يكن لهما حظ من الملك ، ولا طمع فيه ، وإنما كانت حياتهما ضرباً من البطالة الاضطرارية ، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل حياتهما عيداً متصلًا ، وهما صالح بن الرشيد ، وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلًا اتصالاً خاصاً بصالح ، ينادمه ويساقبه ، ويكاد يمضى معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالأمين ، واشتدت صلته به ، حتى تجاوزت علاقته ما بين الشعراء والحلفاء ، إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندرى إلى أي حد بلغ إخلاص الأمين لنديمه ، ولكننا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المهالك على اللذة رجلاً وفيئاً ، متين الخلق صريحاً ، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين ، وكيف يتعصب لحزبه ، ويؤيد أصحابه ، ويتعرض في سبيل ذلك للخطر ؛ كان الحسين من أشد الناس تعصباً للأمين ، ووزارة على المأمون ، حين ظهر الخلاف بين الأخوين ، واندفع في ذلك إلى غير حد ، ثم اشتدت الخنة ، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد ، وأخذت الحرب أشنع أشكالها ، فلم يتخف الحسين ولم يفرع ، ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقط أخبار هذه الحرب ، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به أسرع فحمله إلى الأمين مهنتاً مشجعاً . روى لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات :

أَمِينَ اللَّهِ تَقَى بِاللَّهِ تَعْظَمُ الْعِزَّةَ وَالنُّصْرَةَ
 كِلِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
 لَنَا النُّصْرُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَالْكَرَّةُ لَا الْفَرَّةُ
 وَلِلْمُرَاقِ أَعْدَائِكَ يَوْمَ السُّوءِ وَالذَّبْرَةِ
 وَكَأْسُ تَوَرُّدِ الْمَوْتِ كَرِيهٌ طَعْمُهَا مَرَّةٌ
 سَقَوْنَا وَسَقَمَيْنَاهُمْ فَكَانَتْ بِهِمُ الْحِرَّةُ

كذلك الحربُ أحياناً عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةً

ثم قتل الأُميين ، وكانت الكارثة فلم يَهِنَ الحسين ولم يضعف ، ولم ينقلب على عقبه ، ولم يتملق المنتصر ، وإنما ملكته حزن ليس بعده حزن ، وانطلق لسانه من الرثاء بالخييد المؤلم ، الذي تنقطع له القلوب ، وتتفطر له الأكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه ، واستعداء الله عليهم ، بعد أن عجز عن استعداد الناس ، ولج في ذلك ، وألح فيه ، حتى نهض المأمون من خِراسان يريد العراق ، فلم يزد الحسين إلا هجاء للمأمون ، ورثاء للأُميين ، حتى رق له أصحابه ، وأشفقوا عليه ، وألحوا في نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدّث عن نفسه بهذا القول « كُنت عازماً على أن أُرثي الأُميين بلساني كله ، وأشقى لوتى ، فلقيني أبو العتاهية ، فقال لي : يا حسين ، أنا إليك مائل ، ولك محب ، وقد علمت مكانك من الأُميين ، وإِنَّه لحقيق بأن ترثيه ، إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه ، والتوجع له ، بما صار هجاء لغيره ، وثلبا له ، وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنصَّبٌ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأبقِ على نفسك ، يا ويحك ! أتجسر على أن تقول :

تَرَكَوْا حَرِيْمَ أَيْبِهِمْ نَفَلًا وَالْمَحْصَنَاتُ صَوَارِخٌ هُتِفُ

هِيَاهُ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَهُمْ عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهُمْ شَرَفٌ

اكفف غرب لسانك ، واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك ، فعلمت أنه قد نصحتني ، فجزيته الخير ، وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك في أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حُباً للأُميين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشد بغضاً للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة التي قالها أبو نواس يرثي بها الأُميين ، فثقلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة ، وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طَوَى المَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَليْسَ لِمَا تَطْوَى المِنيَّةُ نَاشِرٌ

وَكَتَبَ عَلَيْهِ أَحَدَرُ المَوْتَ وَحَدَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرٌ

فلا وصلَ إلا عِبْرَةً تُستدعىها أحاديثُ نفسِ ما لها الدهرُ آخرُ
لئن عمِرتُ دورٌ بمن لا أحِبُّهم لقد عمِرتُ ممن أحبُّ المقابرُ

فانظر بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين ، ورأيه في الدولتين ، وحدثني :
أتجد أبلغ من هذا الشعر في وصف الهزيمة السياسية ؟ وحدثني : أيستطيع
منهزم في السياسة ، معترف بهزيمته ، أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :

سألونا أن كيفَ نحنُ ؟ فقلنا : من هوى نجمه فكيف يكونُ
نحنُ قومُ أصابنا حدُّ الدهرِ فظننا لربيبه نستكينُ
تمنى من الأمين إياباً كهفَ نفسى وأين منا الأمينُ

وانظر إلى هذه الأبيات التي تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس ،
ولم لا يقصد الشاعران إلى معنى واحد ، وكلاهما كان محبباً للأمين ، مؤثراً له ،
وكلاهما كان عدواً للمأمون ، مسرفاً في بغضه :

أعزى يا محمد عنك نفسى معاذَ الله والأيدى الجسامِ
فهلّا مات قومٌ لم يموتوا ودافع عنك لى يوم الحيامِ
كانّ الموت صادف منك غنماً أو استشفى بقربك من سقامِ

واقراً هذين البيتين :

هلاً بقيت لسدِّ فاقتنا أبداً وكان لغيرك التلفُ
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ولسوف يعوزُ بعدك الخلفُ

ويظهر أن هذين البيتين تركا في نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ،
فقد تحدث ثمامة بن الأشرس أن المأمون لما وصل إلى بغداد طلب أن يسمى
له نفر من أهل الشعر والأدب ، يتخذهم له جلساء . فسُمي له قوم ، منهم
الحسين ، فذكر هذين البيتين ، وأقسم لا يراه إلا في الطريق . قال ثمامة وانحدر
الحسين إلى البصرة ، فأقام فيها طوال أيام المأمون .

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه ، وأشفق من

ذلك ، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة ، ووسط إليه نفرأ من أشرف القوم منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه ، ولكنه أبى الإبقاء كله أن يأذن له في الاختلاف إلى القصر . وسواء أصحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح ، فإن في حياة الحسين أيام المأمون ، مع ما نال فيه وفي أخيه ، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الأمين ، ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد ، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس ، واضطار إلى أن يعيش في البصرة من صلب ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه ، وحدثوه في ذلك ، وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الأرزاق ، وكثرة النفقة ؟ فقص عليهم قصصاً لذيذاً ، يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة في الحياة ، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة ، وهو إنما ينفق ويعيش من صلوات الأمين وجارية له لم يسمها ، وذلك أن الأمين دعاه ذات يوم ، فزعم له أنه صديقه وعشيرته ، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشيء يجب أن يخفيه ، وكانت للأمين جارية فنته لجمالها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنية ، كثيرة الدل ، مسرفة فيه ، فكانت تنغص على الأمين صفوه ، فضاق الأمين بذلك منها ، وأراد أن يلقي عليها درساً ، وكلّف الحسين أن يلقي هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى ، لا تبلغها جمالا ولا إجادة في الغناء ، وسيأمرهما أن تغنيا ، وطلب إلى الحسين أن يفتّر ويتناقل إذ غنّت الحميلة المحسنة ، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه ، إذا غنّت الأخرى ، وأعفاه من كل حرج ، ووعدته مئة ثوب لكل ثوب يشقه ، فوعد بالطاعة ، ونحلا إلى الأمين ، وجاءت الجاريتان ، فغنّت المحسنة ، وكان الحسين فتياً ، وكان ريبلاً صادقاً ، ولا سيما إذا شرب ، فلم يستطع أن يفي بالوعد ، وإنما أخذ يُظهر الرضا والإعجاب ، وكلما أوماً إليه الأمين لم يزد إلا رصاً وإعجاباً ، ثم غنّت الأخرى ، فأخذ يتكلف السرور والظرب واستأنفت المحسنة غناءها ، واستأنف الحسين شرايه ، فإذا لبّبهُ قد طار ، وإذا

هو يصبح ، وإذا الأمين يشير ويقطب ، ويظهر العبوس ، ولكن الحسين عنه في شغل بظربه ولذته ، حتى ضاق الأمين ، وأمر بالحسين فجرّ برجله ، ثم أمر فحُجِب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ، ويرثون له ، ويسألونه عن سبب هذه النكبة ، فيقول : تحامل على النبيذ ، فأسأت الأدب ، فقومني أمير المؤمنين ؛ ومضى دون ذلك شهر ، ثم دعى الحسين إلى القصر ، وإذا الأمين يتلقاه لقاء حسناً ، ويخلو إليه في تلك الحجرة ، ويدعو المغنية ، وينبئ الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح ، وأنها قد انتهت إلى ما يجب ، وأنها قد شفعت للحسين عنده ، فقبل شفاعتها ، ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ، ومنحته هي دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هذه الجارية للحسين فما كان يمضي أسبوع ، حتى تنتهي إليه هداياها وألطافها ، فهو يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه .

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضي حتى ابتسم الدهر للحسين ، فعاد إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل ، وكانت له عندهم جميعاً حظوة لا تعد لها حظوة ، وكان مقدماً عندهم جميعاً على غيره من الشعراء ، ولا سيما الواثق ؛ فقد كان يحبه حباً شديداً ، ويظمن إلى منادته ، ويتخذة موضعاً لسره في حياته الخاصة ، وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المحون والمزاح ، وألوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعاً أخبار حلوة ، تبسّط في روايتها أبو الفرج .

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمرء من أبناء الرشيد ، ثم اتصل بالأمين والمعتصم والواثق والمتوكل من الخلفاء ، وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل ، بل إن مستقر الحكم نفسه قد تغير ، وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالأمين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور ، فكان في القرن الثالث غيره في القرن الثاني ، من وجوه مختلفة ، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ، ويمدحهم وينشدهم من شعره المزل والجد ، دون أن يغير من شخصيته شيئاً ، وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصيته قوية كشخصيته ! وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجهد في وصفها ، وأن نعطيك منها صورة ما ، لتعرف مكانه من الشعراء

الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء إلى هذا ، فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقارباً ، ولكن ينقصه شيء من الدقة ، شبهوه بأبي نواس ، أو قل خلطوا بينه وبين أبي نواس ، وأسرفوا في هذا الخلط أحياناً ، حتى رويوا لسكل منهما شعر صاحبه ، وفي الحق أنك تجد في ديوان أبي نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد في أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبي نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتهر بينهما التشابه ، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة في التتبع ، وتعمقاً في البحث الأدبي . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدى ، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم ، وإنما انتهى بهما إلى الخصام ، وإلى التناوب أحياناً ، دون أن يتصل بينهما المصداق ، ودون أن يقع أحدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو من حق وسرعة إلى الغضب ، وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان يلهو ويعبث في غير فلسفة ومذهب . أما أبو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس ، والسخر منهم ، والعبث بهم ، وبما يتصل بحياتهم ، من أصول وعقائد ، ومن نظم وقواعد ، فكان يعبث بالحسين صديقه ، ويسخر منه ، ويغيبه ، لا يخفي ذلك ولا يتكلفه ، وإنما يعلنه إعلاناً ، ويعلنه إلى الحسين نفسه ، وكان الحسين يفتاظ ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس في وجهه أقبح الشتم ، ويتحدث إلى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبجح العبث في الدين والأخلاق والحياة وحدها ، بل كان يستبجح العبث في الأدب والشعر أيضاً ، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء ، وكان يرى أنه شاعر مجيد ، وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر في المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين ، فقد كانت للحسين في الخمر معان وألفاظ جواد ، يتدنى أبو نواس لو ظفر بها ، وسبق إليها ، ولكن الحسين كان هو الظاهر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس ، فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا فاستحسنه ، حسد الحسين عليه ، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين ، وأن هذا الشعر لم يخاق إلا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه

في لفظ ؛ فإذا أظهر الحسين غضباً ضحك أبو نواس ، وقال : « دع عنك هذا ! فو الله لا يُرَوَى لك شيء في الخمر وأنا حي » . وربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة ، فزعم القصيدة برمتها لنفسه ، وصدقته الناس ، وتناقلوا القصيدة على أنها له .

تحدثت الرواة من هذا بالشيء الكثير ، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبي نواس من لين الخلق ، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ، ومن الإخاء في الأدب والاهو ، ولكنه يمثل لنا شيئاً آخر ، هو الذي يعيننا من وجهة البحث الأدبي ، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين وشعرهما ، فقد كان الرجلان مسرفين في الخجون ، متهاككين على الخمر ، مشغوفين بوصفها وذكر آلتها ، وكان مذهبهما في ذلك واحداً أو مقارباً . ولم لا ! ألم يتأثروا جميعاً بأستاذ واحد ، هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعاً على شعر هذا الملك ، الذي ظلم في السياسة وظلم في الأدب أيضاً ! ثم ألم يتأثروا جميعاً بهذه الحياة البغدادية ، وهذا الالهو البغدادى ! ثم ألم يتصلا جميعاً بالأمين وقصور الأمراء والوزراء ! ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر في اللفظ ، وظاهر في المعنى ، وظاهر في الطبع أيضاً . كان أبو نواس كالحسين : ماجناً ، شارباً ، وصافاً للخمر ، محبباً للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهراً مهتاكاً ، يتمدح بالاستهتار والتهتك ، ويتخذهما مذهباً وديناً ، وكان من جهة أخرى ، يحكم هذا الاستهتار والتهتك ، متسفلاً في شعره ، لا يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشرف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيبتها إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأواسط الناس ، ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغلمان الخانات والأديار ، فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء ، وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخراً شديداً السخر ، فكان يعتمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو ، فيحرف عليهم قواعدهم ، ويسخر لهم من أصولهم ، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلاً بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب ، مقصوراً عليهم ، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم ، أو بمحضر منهم ؛ فكان بمعزل عما كان يضطر إليه

إليه أبو نواس ، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس ، وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطراً إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية ، التي تصلح للأرستقراطية ، فقلَّ الفحش جداً في شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه ، وغلبت الجودة على معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ، ولم يكن يعنيه أن يغيب أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيب أئمة اللغة وأصحاب النحو ؛ فكان في شعره هدوء واطمئنان ، خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالاً مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد في شعره هذا الاحتشام المتكلف ، الذي يصطنعه المنافقون من الفساق ، وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرّد فسقه ، ولا يظهره للناس عارياً كأبي نواس ، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه ، فيخلع عليه أثواب الورع والدين . وكذلك كان الحسين ، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهي مفهومة جداً ، كان يعاشر الأمراء والخلفاء ، وكان ينشئ لهم الشعر ، ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك ، حتى أثر في شعره ، وأصبح شعره كله موسيقياً ، وقلَّ أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون ، وقلَّ أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء ، لا الجودة لنظمه ومعناه فحسب ، بل ولهما ولهذا التنسيق الموسيقى الذي لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا أثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية . فانظر إلى هذا البيت ؛ فهو يمثل ما أريد تمثيلاً صحيحاً

قد غابَ لا آبَ من يُراقبنا ونام لا قامَ سامرُ الخَدَمِ

فانظر إلى قوله « قد غاب لا آب » وإلى قوله : « ونام لا قام » تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته ، هذا النغم الموسيقي ، الذي زواج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النجم من الموسيقى كثير في شعر الحسين .

وجملة القول في شخصية هذا الشاعر ، أنه كان كأبي نواس ، ولكنه أتقى من أبي نواس لفظاً ، وأعف منه لساناً ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ، ولم يكن يعدل أبا نواس في خفة الروح ، وحلاوة المحون ، ولم

يكن يبلغ أبا نواس في الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبي نواس حرارة في العاطفة ، وصدقاً في اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشيء من الرجولة والوفاء ، لم يكن لأبي نواس منه حظ عظيم ، وكان يمتاز على أبي نواس بشيء آخر ، وهو أنه لم يكن سريع التنقل في أهوائه ولذاته ، وإنما كان وفياً في حبه ، كما كان وفياً في صداقته ، وكانت قصة الحسين التي استأثرت بحياته الغرامية في شبابه ، إن صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء ، هو «يسر» غلام أبي عيسى بن الرشيد . وكان «يسر» هذا جليلاً خلاباً ، فُتِنَ به صالح بن الرشيد نفسه ، وتلطف له ، واجتهد في اللحظة عنده ، فوجد في ذلك عناء شديداً ، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال ، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين فأحبه الحسين زديم صالح ، كما أحبه صالح نفسه ، وتناقل يسر على الحسين وازدراه ، ولكن الحسين تالطف واحتال ، وبالغ في التلطف والحيلة ، حتى وجد من قلب الغلام مكاناً ، ولعل الذي انتهى به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما هو شعره الجيد الكثير ، الذي قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، وأست أريد أن أروي لك شعره في يسر ، فهذا كثير ، لا تسعه هذه الصحيفة ، وإنما أروي لك من هذا الشعر نموذجاً حسناً ، يمثله تمثيلاً صحيحاً ، وهي هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهُو كانت بينه وبين يسر .

تيسرى للمام من أمم - ولا تُراعى حمامة الحرم
 قد غاب لا أب من يراقبنا - ونام لا قام سامر الخدم
 فاستصحي مسعداً يفاوضنا - إذا خلونا في كل مكتم
 تبدلي بذلة تقر بها العين - ولا تحصرى وتحشمي
 ليت بجوم السماء راكدة - على دجى ليلنا فلم تريم
 ما لسرورى بالشك ممتزج - حتى كأنى أراه في حلم
 فرحت حتى استخفنى فرحى - وشبت عين اليقين بالتهم

أَمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَشْتِمًا نَظَرِي إِخَالِنِي نَائِمًا وَلَمْ أَنْمِ
 سَقِيًّا لِلَّيْلِ أَفْنَيْتُ مُدَّتَهُ بِيَارِدِ الرِّيقِ طِيبِ النَّسَمِ
 أَيْضُ مُرْتَجَّةٌ رَوَادِفُهُ مَا عَيْبَ مِنْ فَرَقِهِ إِلَى الْقَدَمِ
 إِذْ قَصَبَاتُ الْعَرِيشِ تَجْمَعُنَا حَتَّى تَجَلَّتْ أَوْاخِرُ الظُّلَمِ
 وَلَيْلَةٌ بِهَا مَحْمَرَةٌ مَخْفُوفَةٌ بِالظُّنُونِ وَالْتِهَمِ
 سَقِيًّا لِقَيْطُونِهَا وَنُحْدَعِيهَا كَمْ مِنْ لِمَامٍ بِهِ وَمِنْ لَمَمِ
 وَلَيْلَةُ الْفَقْصِ إِنْ سَأَلْتَ بِهَا كَانَتْ شِفَاءً لِعِلَّةِ السَّقَمِ
 بَاتَ أُنَيْسِي صَرِيحَ خَمْرَتِهِ وَتِلْكَ إِحْدَى مَصَارِعِ الْكِرَمِ
 وَبَيْتٌ عَنْ مَوْعِدِ سَبَقَتْ بِهِ أَلَمْ دُرًّا مُفَلِّجًا بِفَمِ
 أَبَاخِي نَفْسَهُ وَوَسَدَنِي يُعْنَى يَدَيْهِ وَبَاتَ مُلْتَزِمِي
 حَتَّى إِذَا اهْتَاجَتِ النَّوَاقِسُ فِي سُحْرَةٍ أَحْوَى أَحَمَّ كَالْحَمِ
 وَقَلْتُ هُبَا يَا صَاحِبِي وَنَبَّهْتُ أَبَانًا فَهَبَّ كَالزَّلَمِ
 فَاسْتَمْتَهَا كَالشَّهَابِ ضَاحِكَةً عَنْ بَارِقِ فِي الْإِنَاءِ مُبْتَسِمِ
 صَفْرَاءُ زَيْتِيَّةٌ مُوشِحَةٌ بِأَرْجُوَانٍ مُلْمَعٍ ضَرِمِ
 أَخَذْتُ رِيحَانَةً أَرَّاحُ لَهَا دَبَّ سُرُورِي بِهَا دَيْبَ دَمِي
 فَرَاجِعِ الْعُدْرَ إِنْ بَدَا لَكَ فِي الْعُدْرِ وَإِنْ عُدْتَ لَا تَأْمَأْ فَلَمْ

فانظر إلى هذه القصيدة على طولها ، كيف جادت ألفاظها ومعانيها !
 وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه ، وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ، ثم
 شكه في هذا الوفاء ، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه ، وإكباره له !
 ثم انظر إليه كيف يأخذ في تفصيل لذته متبسطاً ، وإذا هوا يدنوا من الفحش
 قليلا قليلا ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد أصبع ، انصرف عنه ،
 وقد أتم به إماما ، وخيله إليك تخيلا . فإذا لم يكن بد من التصريح ، ففي

لفظ لا يروع التقي ، ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك .

أترى إلى أبي نواس في مثل هذا الموضع : أكان يعنيتك من تصريح
بشع ! أكان يدخل عليك بلفظ مكروه ! بلى ، لو وقف أبو نواس هذا
الموقف لتعمد الإفحاش والإساءة ؛ لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل
هذا الشعر في الشعر وحده ، وإنما يفكر في خصومه الذين ينكرون عليه لذته ،
فيريد أن يغيظهم ويركبهم ، فيمضى في الفحش إلى غير حد .
وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي تمثل لك رقة الحسين ولطفه
في الغزل :

لَا وَحْبِيكَ لَا أَصَا فِجْهُ بِالذَّمِّعِ مَدْمَعَا
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا حَ وَإِنْ كَانَ مُوجِعَا
كَبِيدِي مِنْ هَوَاكَ أَسْقَمُ مِنْ أَنْ تَقَطَّعَا
لَمْ تَدْعُ سُورَةَ الضَّنَى فِيَّ لِلشُّقْمِ مَوْضِعَا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر . ولشد ما أحببنا
أن نسمع متغنياً يتغنى فيه ، كما تغنى فيه القدماء ببغداد ! ولقد فتن ثعلب
بهذا الشعر ، حتى قال لأصحابه : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا . . .
ولقد أريد أن أمثل لك شيئاً من عبث الحسين ، فهو كثير ، ولكني
متحير ، لا أدري ماذا أختار منه . فلأكتف من هذا بهذه القصة ، التي
لا تمثل الحسين وحده ، وإنما تمثل معه أيضاً علمين من أعلام الحياة السياسية أيام
الوائق . شك الناس في رمضان ، وأمر الواثق بالإفطار ، فكتب الحسن ابن
رجاء إلى الحسين .

هزرتك للصَّبوح وقد نهاني
وعندي من قِيَانِ المِصْرَ عَشْرُ
وَمِنْ أَمْثَالِهَا إِذَا اتَّشِينَا
فَكُنْ أَنْتَ الجَوَابَ فَلَيْسَ شَيْءُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصِّيَامِ
تَطْيِبُ بَهْنٍ عَاتِقَةُ المَدَامِ
تَرَانَا نَجْتَنِى ثَمَرَ الغَرَامِ
أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَذْفِ السَّكَّامِ

قال الحسين : فوردت على رقعة ، وقد سبقه إلى محمد بن الحارث ابن بُسْحُنْرٍ ، ووجهه إلى بِنْغْلَامِ نَظِيفِ الوِجْهِ ، ومعه ثلاثة غِلْمَةٍ أَقْرَانِ حَسَانِ الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها إلى كما تكتب المناشير ، وختمها في أسفلها ، وكتب فيها يقول .

سِرُّ عَلَى اسْمِ اللَّهِ يَا أَشْكَلَ مِنْ غَضَنِ لُجَيْنِ
 فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنِي الرَّؤُومِ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ
 أَشْخِصِ السَّكْهَلَ إِلَى مَوْلَاكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي
 أَرِهِ الْعُنْفَ إِذَا اسْتَعَصَى وَطَالِبُهُ بَدَيْنِ
 وَدَعِ اللَّفْظَ وَخَاطِبُهُ بَعْمَرِ الْحَاجِبِينَ
 وَاحْذَرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْهِكَ فِي خَفِيِّ حُنَيْنِ

قال فضيت معهم ، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جواب رقعة :

دَعَوْتَ إِلَى مُمَاحَكَةِ الصِّيَامِ وَإِعْمَالِ الْمَالِهِ وَالْمَدَامِ
 وَلَوْ سَبَقَ الرَّسُولُ لَكَانَ سَعِي وَإِلَيْكَ يَنْوِبُ عَنْ طَوْلِ الْكَلَامِ
 وَمَا شَوْقِي إِلَيْكَ بَدُونَ شَوْقِي إِلَى زَمَنِ التَّصَابِي وَالْفَرَامِ
 وَلَكِنْ حَلَّ فِي نَفْرِ عَسُوفٍ بِمَنْشُورٍ مَحَلِّ الْمُسْتَهَامِ
 حُسَيْنٍ فَاسْتَبَاحَ لَهُ حَرِيمًا بِظَرْفٍ بَاعَثَ سَبَبَ الْحِمَامِ
 وَأَظْهَرَ نَحْوَةَ وَسْطًا وَأَبْدَى فِظَاطَتَهُ بِتَرْكِ السَّلَامِ
 وَأَزْعَجَنِي بِالْفَظِ غِيْلَاطٍ وَقَدْ أَعْطَيْتَهُ طَرْفِي زِمَامِي
 وَلَوْ خَالَفْتَهُ لَمْ يَخْشَ قَتْلِي وَقَمَعَنِي سَرِيعًا بِالْحُسَامِ

ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ، ولا قصته في أمر مُقْتَدِمِ ، ولا دهائه في أمر الشامي وعشيقته « بَصْبِصْ » ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله وأكثر منه في الأغاني . وأحسب أني قد أسرفت في الإطالة ، فأختم

هذه الصحيفة بهذه الأبيات التي قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ، وكان قد نادى المتوكل ، ثم شقَّت عليه الخدمة فاعتذر ، ووشى به الناس إلى الخليفة ، فكتب إليه هذه الأبيات التي تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء ، فلا تظهر الشعر في هذا السن ضعفاً ولا وهناً ، كما أنها لا تظهر فيه شباباً ولا قوّة :

أما في ثمانين وقيمتها عذيرٌ وإن أنا لم أعتذرُ
فكيف وقد جُرْتُها صاعداً مع الصاعدين بتسعٍ أُخرُ
وقد رفع الله أقلامه عن ابن ثمانين دون البشرِ
سوى من أصرَّ على فتنه وألحد في دينه أو كفرُ
وإني لمن أسراء الإله في الأرض نُصب صُروف القدرِ
فإن يقض لي عملاً صالحاً أُنابُ وإن يقض شرّاً غفرُ
فلا تلح في كبير هدى فلا ذنب لي أن بلغت الكبرُ
هو الشيب حل بعقب الشباب فأعقبني خوراً من أشرُ
وقد بسط الله لي عذره فمن ذا يلوم إذا ما عذرُ
وإني لفي كنف مُعدي وعزّي بنصر أبي المنتصرِ
يبارى الرياح بفضل السما ح حتى تبدد أو تنحيرِ
له أكد الوحي ميراثه ومن ذا يخالف وحي السورِ
وما للحسود وأشياعه ومن كذب الحق إلا الحَجْرُ

بشار بن برد^(١)

ليس وجه بشار بذلك الوجه المشرق الجذاب ، الذي يستميلك ويستهويك ، وإنما هو فيها أعتقد رجل ثقيل الظل ، له من الفن حظه الموفور ، ولكن روحه في حاجة شديدة إلى الخفة ، ولست أدري أشاركني في هذا الرأي أم تخالفني فيه ؛ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتُعجَبَ بهم ، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم ، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب ، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محبباً إلى النفس لأنه مجيد ليس غير ، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجابة خيلاً أخرى ، تدنى منك شخصيته ، وتقارب ما بينهما وبين نفسك ، حتى تحبه وتميل إليه . ولم يرزق الله بشاراً من هذه الخلال شيئاً ، أو لم يكده يرزقه منها شيئاً ، وإنما منحه من القوة الفنية والإجابة في الشعر حظاً موفوراً ، ولكنه إلى التنفير أقرب منه إلى الترغيب وإيجاد العطف . وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التي ابتلى الله بها بشاراً مصدرراً لحب الناس إياه وعطفهم عليه ورفقهم به ، لو أن بشاراً عرف كيف يتلقى هذه الآفة ، وكيف يحتملها ، وكيف يعرف مكانته منها ، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النعمة منهم ، والسخط عليهم ؛ لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس ، أو يضعونه في غير موضعه . فكم سخطت على معدم ، وكان من حقلك أن ترجمه ؛ لأنه لم يعرف كيف يكون معدماً أو فقيراً ، كذلك أصاب الله بشاراً بهذه الآفة ، فسلبه البصر ، وكان إلى ذلك نابعة في الشعر ، يكاد ينعدم نظيره في قوة الذكاء ، وحدة الذهن ، ولكنه أساء احتمال آفته ، كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه ، فأصبح بغيضاً إلى الناس ، مُدَمِّمًا عندهم ، ثقيلاً عليهم ، حتى روى الرواة أن عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته ، واستبشروا به ، كأن الله قد أزاح عنهم ضراً .

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

ربما لم تعرف آداب العرب في إسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة ، فأسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جداً ، لا أقول من الوجهة الأدبية أو الشعرية ، فليس للمقارنة بينهما من سبيل ، وإنما أقول من هذه الوجهة التي تحجب إليك الرجل ، أو تبغضه إليك . كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيء الظن بالناس ، مسرفاً في سوء الظن ؛ لأنه كان مكفوف البصر ، ولكن أحدهما استطاع أن يحمل مصابه راضياً مطمئناً ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خبيراً خفيف الظل ، جذاباً محبباً إلى النفس ، يكاد يكون كله حباً ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ! بل هو لم يحتمل هذا المصاب ، وأكاد أحسب أنه لم يفترضه ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة إلى الفخر والتدح ، وأسرف في ذلك إسرافاً شديداً ، فكان يحمد الله على العمى ، لأنه يحول بينه وبين رؤية الناس ، الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرماً شديداً ، وليس هذا شيئاً ؛ فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله ، والاعتذار عنه ، ولكن بشاراً تجاوز الحد في ذلك ، فلم يكتف بحمد الله على العمى ، بل اتخذ العمى فخراً ، وزعم أن ذكاه النادر ونبوغه الفذ ، إنما هما أثر من آثار هذه الحنة ، وقال في ذلك كلاماً كثيراً . وكان من اليسير أيضاً أن يفهم الناس ذلك ويحتماوه ، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل ، وشدة الذكاء ، وحدة الذهن ، ونفاذ البصيرة ، ومنحه إلى ذلك قوة الجسم ، ودقة الحس ولطفه ، ومنحه إلى هذا وذاك نفساً نائمة مضطربة . شرهة إلى اللذة ، لا تقنع منها بالقليل ، ولا تظفر منها بحظ إلا استزادته ، وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول : ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى ، راضياً بها ، مطمئناً إليها ، وإنما المعقول أن يحدث ذلك في نفسه منطناً شديداً على الحياة والأحياء ، لما يجز عليه ذلك من حرمان . . . أضف إلى هذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ،

ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب ، وإنما كانوا يسخرون من بشار
ويعبثون به ، ويسرفون في ذلك ، حتى يبلغوا إعناته ، ويخرجوا به عن طوره .
فكان هذا كله مصدرأ لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق ، وشدة
البغض للناس ، والواجدة عليهم ، وإضمار الشر لهم ، والإسراف في السخرية
منهم . وماذا تقول في رجل لم يُخلص لإنسان ! وما نحسب أن إنساناً أخلص
له ، وإنما كان سيئ الظن بالناس جميعاً ، منطلق اللسان في الناس جميعاً ،
يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، وربما مدح وهو يضمّر الهجاء ، بل لعله
لم يمدح إلا وهو يزدري ، مدوحه ! وكان مخلصاً إذا هجا ؛ لأنه كان يزدري
الناس ، ويسرف في بغضهم . وقد عظمت في نفسه هذه الخيانة ، حتى
استأثرت به ، وسيطرت عليه ، وأصبحت مقياس حياته ، وقانون ما بينه
وبين الناس من معاملة ، وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويمنحونه
الجوائز ، لا إعجاباً به ، ولا رحمة له ، ولا عطفاً عليه ، بل إشفاقاً منه ،
لأذاه . وعرف هو منهم ذلك ، فنالهم من حيث ينال الضعيف ، ومدحهم
ولم يكره أن يُسندِر وهو يمدح ، وربما أعرض عن المدح ، واكتفى بالإندار ،
وربما أعرض عن المدح والإندار جميعاً ، وسلك أقصر الطرق ، وهجا بالبيت
أو البيتين ، فيشفق المهجو من المزيد ، فينزل عند ما أراد . ثم انتهى به الأمر
إلى أن أصبح يقيناً عنده ، فأصبح بشار من أشد الناس إثارة لنفسه ،
يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه ، وأن الشر يجب أن يعدّوه إلى
غيره . ولم لا ! أليس يرى أنه أذكى الناس ، وأشعر الناس ، وأعلم
الناس ! وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ، ويدعوا لهواه ؛ فإن فعلوا
فذاك ، وإلا ففي لسانه تثقيف لا عوجاجهم ، وإصلاح لما فيهم من فساد .
ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلاً أطول منه لساناً ، ولا أسرع منه إلى
شر ، ولا أشد منه إمعاناً في الفحش إذا هجا ، ولا أقل منه احتفالاً بالعدل
أو الظلم .

وأخرى من خلال هذا الرجل ، هي أنه أسرف في بغض الناس
وازدراءهم ، فأسرف لذلك في إثارة نفسه عليهم ، ومن اتصف بالإيثار فقد

اتصف بالخبين ، لأن الإيثار في حقيقة الأمر شكل من أشكال الخبن ، ولون من ألوانه ، فليس شجاعاً ذلك الرجل الذي يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب ، وإنما الشجاع حقاً هو من بدأ بنفسه ، فأخذها بالخير ، وحال بينها وبين الشر ، حتى إذا فرغ من نفسه عسى بالناس ، وكان بشار من أشد الناس في عصره جبناً وفرقاً ، كان طويل اللسان ، سفيهاً مسرفاً في الهجاء ، إلا أن يبدو له ما يخيفه ، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر . وكان يخاف كل شيء : كان يخاف السيف ، وكان يخاف السوط ، وكان يخاف اللسان ، وكان يخاف غير هذا كله ، وله في ذلك أحاديث . زعموا أنه طلب إلى رجل مصور أن يتخذ له جاماً ، ويرسم فيه طيراً ، ففعل الرجل وأقبل إليه بالجام ، فوصفه له ، فلم يرض ، وقال : كان يجب أن ترسم فيه طيراً جارحاً يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت أني أعمى ، فاستخففت بي ، فلاهجونك . قال صاحبه : لا تفعل ، فأنت نادم إن فعلت ، قال : أتندرنى ؟ قال : نعم ، قال : وبم ؟ قال : أصورك على صورتك ، وأجعل من ورائك قرداً . . . وأضع ذلك على بابي ، ففقهه بشار ، وصدق بيديه ، وقال : قاتله الله ! أمازحه فيأبى إلا الجلد . فانظر إليه أشفق من هذه الصورة ، ولو لم يندره بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طالب إلى صديق له تاجر ثياباً بنسيئة ، فلم يوفق الرجل لما أراد ، فغضب بشار ، وكتب إليه بيتين من أقبح الشعر ، ولم يكن هذا الرجل شاعراً ، ولكنه اغتاظ لهدين البيتين ، فرد عليهما بشر منهما ، فانكسر بشار ، وأقسم لا يهجو مثله من سبلة الناس . قالوا : وهجا بشار رَوْح بن حاتم ، فجاءه منه النذير ، فلم يخفل ، وألح في الهجاء ، فأقسم روح : لئن رأيت لأضربته بالسيف ، ولو كان بين يدي الخليفة . قالوا : فلما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره ، فدخل على المهدي ، وعاذ به فأعاده ، وأرسل في طلب روح ، فكلمه في ذلك ؛ فأبى وقال : إنه أقسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يميني . فأحضر المهدي الفقهاء ، ليتأولوا له مخرجاً ، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض السيف ، وكان بشار وراء ستار ، فأخرج ، واستل رَوْح سيفه ، وضربه بعرضه . قالوا : فلما أحس بشار السيف جزع ، وصاح أَوْهٍ باسم الله ! فتصاحك

المهدى . وأحاديث بشار في الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى .
 وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته ، وهي أنه إذا كان أثراً شديداً
 الإشفاق ؛ فقد كان مسرفاً في النفاق أيضاً ، وليس يمثل إسرافه في النفاق
 أكثر من مكانه من الزنادقة ، ورأيه فيهم . وسيرته معهم . كان من أشد
 الناس إلحاداً في الدين ، وتهالكاً على اللذة ، وربما لم يكن كثيره من الشعراء
 الذين قدمنا الحديث عنهم ، يحب المحجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب
 فلسفي ، وإنما كان رجلاً له رأى وبصيرة : يفكر وينظر ويحاج عن رأيه ،
 وكان صديقاً لواصل بن عطاء ، ونفر من أصحاب الكلام في البصرة ، فكانوا
 يتناظرون في الدين ، ثم افترقوا : فأما واصل ففضى في الاعتزال ، وأما غيره
 فذهبوا مذاهب مختلفة في الكلام ، ومنهم من ألد ولم يخف إلحاده ، وإنما
 ترك البصرة فراراً من أميرها ، وخافة أن يدل عليه أصحابه ومناظروه ، أما بشار فإنه
 لم يعلن شيئاً خاصاً ، وإنما مضى في سيرته ، يخيل للناس أنه يرى رأى الجماعة ،
 ويضمّر الزندقة والإلحاد ، ويزدري رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه
 ذلك ، وكان واصل يعلمه ، وينكره عليه ، ويهتف به ، فهجاه
 بشار ، وأسرف في هجائه ، حتى سكت عنه واصل ، وكذلك كان يفعل مع
 كل من يخشى منه شراً ، ثم لم يكن يكتفى بهذا ، وإنما كان يدفع عن نفسه
 الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأنذال الناس ، فيتهم بها غيره من خصومه ،
 ومن أصدقائه أيضاً ، وقد مر بك في أحاديثنا الماضية شيء من سيرته مع حماد
 عجرد ، فقد أسرف في اتهامه بالزندقة . وما نشك في أن حماداً كان من الإجابة
 بعيداً عن أن يبلغ حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير ، أو قل : كان لزندقته
 وجهان : أحدهما علمي نظري ، فيه ذكر لمذهبه ، ودفع عنه ، وحوار دونه ،
 والآخر عملي أدبي ، يشارك فيه حماداً ومطيعاً وغيرهما من المُجَّان ، فكان بشار
 يدين بالرجعة ، ويكفّر الأمة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ،
 لأنها حادت عن طريق الدين ، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول
 عمرو بن كلثوم :

وما شرتُ الثلاثةَ أمَّ عمِّرٍ بصاحبك الذي لا تصحِّبينا

وكان يؤثر النار على الطين ، ويفضل النور على الظلمة ، فكان من هذه الناحية فارسي الزندقة ، ثم كان في حقيقة الأمر فارسياً في كل شيء ، كان فارسياً في زندقته ، يقدم النار التي يعبدها الفرس ، وكان فارسياً في أهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ، ولا يرتاح إليهم ، وإنما كان يحتملهم احتمالاً ، وكان ينكر الولاء ، ويحث الموالي على أن ينكروه ، وكان يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب ، ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس ، وربما فاخر بنسبه الفارسي ، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدي ، ويقولون إن رجلاً من أشرف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه ، لأنه يفسد الموالي على العرب ، فهجاه ، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه .

كان بشار إذن زنديقاً ، معنأ في الزندقة ، وكان شعوبياً ، متشدداً في الشعوبية ، وكان يحتمى بالنفاق أيضاً ، كما قدمنا ؛ فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشرف الناس أيام بني أمية ، وأيام العباسيين ، يطلب منهم المال ، ويطلب منهم الجاه أيضاً ، ولكنه لم يكن مخلصاً في شيء من ذلك ، وكان المدحون يعرفون منه هذا النفاق ، ويصبرون عليه ، أو يتغاضون عنه ، حلماً مرة ، وعفواً مرة أخرى ، وإشفاقاً في أكثر الأحيان .

فإذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل ، فينبغي أن تضيف إلى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهي أنه كان شديد الوكع بالنساء ، مسرفاً في التشبيب ، مفتتناً فيه فنوناً لم يسبق إليها ، وكأنه لم يسأل فيها أيضاً . كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثاً على الفسوق ، وإفساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف ، وأوفرهن حظاً من الإحصاء ، وقد جزع لذلك الناس في البصرة ، فسعى إليه وعآظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه ، وهتف به خطبائهم ، والمتكلمون فيهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ، ولم يردعه ، بل مضى في نسيبه وتشبيبه ، وفي استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وقتياتها من رواية شعره ، والاستهتار به ، كما أكثرن من الاختلاف إليه ، ومجاذبته

الحديث ، وكانت له معهن سيرة مرذولة ، فشكا الناس إلى المهدي ، فنهاه المهدي ، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشييب ، وفي ذلك يقول :

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْنُهُ
 بَعَثْتُ إِلَى تَسْوَمِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
 وَاللَّهِ رَبُّ مُحَمَّدٍ مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
 أَمَسَكْتُ عَنْكَ وَرُبَّمَا عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا ابْتَغَيْتُهُ
 إِنْ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبِي وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبِيتُهُ
 وَمَخْضَبِ رَخْصِ الْبِنَا نِ بَكِي عَلِيٍّ وَمَا بَكَيْتُهُ
 وَيَشُوقُنِي بَيْتِ الْحَبِيبِ إِذَا أَدَّكَ كَرْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ
 قَامَ الْخَلِيفَةَ دُونَهُ فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ
 وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهَمَامُ عَنْ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ
 لَا ، بَلْ وَفَيْتُ فَلَمْ أُضِعْ عَهْدًا وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ

قالوا : ووفد بشار على المهدي ، فاشترط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة غزلا ، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات ، ثم أنشده مدحاً لا غزل فيه ، فحرمه المهدي ولم يُجِزْهُ ، وقال الناس لبشار : إنما حرمك لأنه لم يستحسن شعرك . فقال - وهذا يمثل إعجابه بنفسه - : لقد مدحته بشعر لو قيل في الدهر لأمن الناس صروفه ، ولكنه كذب أُملي ، لأنني كذبت في القول ، ثم قال هذه الأبيات :

خَلِيلِيَّ إِنْ الْعُسْرَ سَوَّفَ يُفِيْقُ وَإِنْ يَسَارًا فِي غَدِي لَخَلِيْقُ
 وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا صَحَوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ
 أَدَمَاهُ لَا أَسْطِيعُ فِي قِلَّةِ التَّرَى خَزُوزًا وَوَشِيًّا وَالْقَلِيلُ مَحِيْقُ
 خَذِي مِنْ يَدِي مَا قَلَّ إِنْ زَمَانَنَا شَمُوسٌ وَمَعْرُوفُ الرَّجَالِ رَقِيْقُ
 لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدَى مَعِيْشَةٍ وَلَا يَشْتَكِي بِخَلَا عَلَى رَفِيْقُ

خَلِيلِيَّ إِنَّ الْمَالَ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا لَمْ يَنْلَ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقٌ
 وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَحَلَّةٌ تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَيَّ تَضِيقٌ
 وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ لَهُ فِي التَّقَى أَوْ فِي الْمَحَامِدِ سَوْقٌ
 وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ وَلَسَكِنَ أَخْلَاقَ الرَّجَالِ تَضِيقٌ

فإذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أقبح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم
 الجسم ، ضخم الخلق ، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل ، وأنه خلاب
 للنساء ، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدِيَّ جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتِ عَلَيْهِ لَأَنْهَدِمُ

أقول : إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا ، تبينت صورة ليست بعيدة ولا
 كاذبة من هذا الرجل ، الذي لم يكن جذاباً ولا خلاباً ، لا من الوجهة المعنوية ،
 ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعراً مجيداً ، أجمع العلماء والرواة
 في عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر ، وزعم هو لنا ذلك ، فتحدث ذات
 يوم أن له اثني عشر ألف بيت من جيد الشعر ، فلما سئل عن ذلك قال :
 إن له اثني عشر ألف قصيدة ، فويل له إذا لم يكن في كل قصيدة بيت
 جيد . قالوا : ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر ،
 وقد يكون هذا حقاً ، ولكننا في حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار
 الضخم بجزء قليل نتخذه مقياساً لإجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ ألا نظفر
 من شعر بشار بشيء يذكر . ومهما يكن من شيء فأنا أشك في قيمة هذا
 الإجماع ، الذي انعقد على تقديم بشار ، وإيثاره بالإجادة والتفوق ، وأزعم
 أن شيئاً من هذا الإجماع يعود إلى سفة بشار ، فقد كان بشار يخيف العلماء
 ويهجوهم ، هجا سيبويه ، لأنه أنكر عليه كلمات ، فاضطر سيبويه إلى أن
 يستشهد بشعره ، وتعلقه الأخصش لشيء كهذا ، وتعلقه يونس بن حبيب ،
 وكان مع ذلك يكرهه كرهاً شديداً ، ويقال إنه هو الذي وشى به عند
 المهدي ، وآتمه بالزندقة ، وتعلقه الأصمعي من غير شك ، فقد كان بشار
 يهجو باهلة ، والأصمعي باهلي ، وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشاراً كان

إذ جدّ متين اللفظ ، رصين الأسلوب ، مؤثراً لنحو أهل البادية في ألفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ، ولا يعيبه ، وكيف لا يجب علماء اللغة رجلاً يذهب هذا المذهب ! ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن الناس أطبقوا على خوف بشار ، والإشفاق منه ، فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء ، ثم تعلمت عليه طائفة من الشعراء تقدمت في عصرها ، ثم أكثر من الغزل ، ورق فيه ، فأحبه الظرفاء ، وأصحاب الخلاعة ، وتغنّى فيه المغنون ، وتحدثت الرواة أن نساء البصرة كن يلبجان إليه إذا احتجن إلى شعر ينسحن فيه ، فهذا كله مصدر هذا الإجماع ، الذي يقدم بشاراً على غيره من الناس .

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه ، غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكماً صادقاً ، لو أتيج لنا الشرط الأساسي لهذا الحكم ، وهو مقدار ضخم من شعره .
على أني أشارك الرجل الواحد الذي استطاع في ذلك العصر ألا يُمنجَبَ بشعر بشار ، وأن يشدد النكير عليه ، وهو إسحاق الموصلي . أشاركه ، لا في إسرافه ، فقد تعصّب على بشار ، كما تعصّب غيره لبشار ، وأرى بشاراً لم يكن كما ظن القدماء ، ذلك الشاعر الذي لا يُشَقِّق له غبار ، وإنما كان شاعراً كغيره من الشعراء ، له الجيد ، وله الرديء ، وربما قدمت على بشار رجلاً كأبي نواس ، أو كالحسين بن الضحاك . غير أني لو أخذت أفصل هذا الحكم ، وأستدل عليه ، لم أفرغ منه في هذا الفصل ، فالحير أن أرجى ذلك إلى فصل خاص ، في الأسبوع الآتي .

شعر بشار^(١)

قلت في الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجتمعون على تقديمه ، وإيثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفهم في هذا الرأي ، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها ، ثم قلت : إنى أرى في بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء ، الذى استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار ، والإسراف في إيثاره ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار ، غالباً في السخط عليه ، والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يُحاجُّه في ذلك ، فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلى في ما اندفع إليه من غلو وإسراف ، فأنا لا أزعّم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا أزعّم أن الجيد في شعره قليل ، وإنما أزعّم أن بشاراً كان شاعراً موفور الحظ من الإجابة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس ، وهنا أخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلى أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدراؤه لبشار ، كان لا يعتد بأبى نواس ، ولعلنا نتحدث في يوم من الأيام عن إسحاق بن إبراهيم ، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة ، التى كان يراها في بشار وأبى نواس وغيرهما من الشعراء ، ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ، فلنحرص على ألا نتجاوزَه إلى غيره .

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه ، وأن الغث في شعره لا يعدله غث ولا ردىء ، وكان يقول : إن الذى يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد :

إِنَّمَا عَظُمُ سَلِيمِي قَصَبٌ قَصَبُ الشُّكْرِ لَا عَظُمُ الْجَمَلِ

(١) نشرت بالسياسة في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ١٢ أبريل ١٩٢٤ م .

فَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

وفي الحق أن في هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً ، ولكن أين الشاعر الذي يستطيع أن يبرأ من قول فجع ، ولفظ سخيّف ؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر ، لأنه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً ، منه الذي بلغ من الجودة منزلة رفيعة ! فدونك الشاعر وشعره ، فاقراً هذا الشعر وانقده ، واحكم على جيده بالجودة ، وعلى رديئه بالرداءة ، واجتهد في أن تتبين الأسباب التي أناحت للشاعر أن يجيد ، والأسباب التي اضطرتته إلى أن يسف . ولا تقل إن من قال هذا الشعر الرديء لا يستطيع أن يقول جيداً من الشعر . فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر ، وإذا انتهى بكما الحوار إلى هذا الحد ، فلسماً منتهين إلى خير ، ولا بالغين حجة ، وإنما أنما متعصبان ، قد أسرف كل منكما في تعصبه ، حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثاً ، وأصبح من الحق أن تركا وما أنما فيه . . .

نعم ! إسراف أن تحكم على الشاعر بيت أو بيتين ، وإسراف أن تحكم له بيت أو بيتين ، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثّر أو عليه ، بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد ؛ فهي عتيقة معوجة ، لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ، ولا سيما في هذا العصر ، وإنما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته ، وتحكم عليه أو له بما تتبين منهما ، ولست أدري أين قرأت أن رجلاً من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقى ، فاستمع إليه وهو يوقع ، فلما سمعه يوقع ألقائاً مختلفة ، قال : الآن عرفت صوت نفسك ، كذلك يجب أن تتبين أصوات نفوس الشعراء ، لنحكم لهم أو عليهم ، وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرقيق ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، إنما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة ، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب

أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحبه إلينا ولا يعطفنا عليه . فهو ثقيل ، حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة فتضحك ، واكنك لا تضحك ضحكاً صريحاً ، خالياً من كل شائبة ، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم ، محس شيئاً من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد ، أبغض الناس بغضاً شديداً فأصبح إليهم بغيضاً ، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ، ولم يبق بينه وبينهم إلا صلة الخوف والتهيب ، يستغلها هو ، ويتيحون له هم أن يسرف في استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشاراً عند ما ضربه المهدي الضرب الذي أماته ، لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تلتطف له ، وأرسل إليه الهدايا . ثم نقرأ أنه مات وأخرجت جنازته ، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد ، إلا جارية له سوداء ، سنديّة عجماء ، تصيح : واسيداه ! واسيداه ! فأين هؤلاء الأشراف الذين تلتطفوا له ، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حباً ولا عطفاً ، وإنما تلتطفوا له تملقاً وإشفاقاً ، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً ، كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطناً . غير أني أخشى أن أتهم بالإسراف في بغض بشار ، وتشويه شخصيته ، والله يعلم أني ما أحب بشاراً ولا أكرهه ، ولا يعينني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتهم بالإسراف ، فلأجتهد في أن أحملك على أن تشاركني في هذا الرأي الذي أراه ، وعلى أن تحس معي أن بشاراً كان بغيضاً ، حتى حين كان يتندر ، ويريد أن يضحك . قالوا : كان بشار بين يدي المهدي ينشده شعراً . فدخل يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد ، وسأله : ما صناعته ؟ فأجابه بشار : أنقب اللؤلؤ . ولست أشك في أن جواب بشار بديع مضحك ، مفعم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدي أن يمتنع عن الضحك ، ولحني لا أشك في أن هذا الجواب قاس ، يدل على حدة المزاج ، ومرارة الطبع ،

وغضب المهدي ، فشمّ بشاراً ، أو قل لام بشاراً على أن تندر على خاله . فلم
 يكن جواب بشار على اوم المهدي أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد ،
 إذ أجاب : وماذا أصنع به ؟ يرى رجلاً أعمى بين يدي الخليفة ينشده شعراً ،
 فيسأله ما صناعته : . قالوا : وممر بشار بقاضي البصرة ، فسمعه يقول
 في قصصه : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرأ في الجنة ، صحته
 ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته
 ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشار إلى قائده وقال : بنست والله
 الدار هذه في كانون الثاني ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة أنه خلا
 إلى امرأة في عاو بيت ، وبشار تحته ، أو في أسفل البيت ، وبشار فوقه ،
 فنهق حمار في الطريق ، فأجابه حمار في الجيران ، وحمار في الدار ، فارتجت
 الناحية بنهيقها ، وضرب الحمار الذي في الدار الأرض برجله ، وجعل يدقها
 بها دقاً شديداً ، فسمعت بشاراً يقول للمرأة : نُنْفِخْ - يعلم - الله في الصور ، وقامت
 القيامة ، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور ، حتى يخرجوا منها !
 ولم يلبث أن فزعت شاة كانت في السطح ، فقطعت حبلها ، وعدت فألقت
 طبقاً وغضارة إلى الدار ، فانكسرا ، وتطاير حمام ودجاج كان في الدار لصوت
 الغضارة ، وبكى صبي في الدار ، فقال بشار : صح والله الخبر ، ونشر أهل
 القبور من قبورهم ، أزفت - يشهد الله - الآزفة ، وزلزلت الأرض زلزالها ، فقال
 البصري : فعجبت من كلامه ، وغاظني ذلك ، فسألت : من المتكلم ؟ فقيل
 لي بشار ، فقلت : قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . . . وممر بشار
 برجل رحته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكراً . فقال بشار : استزده يزدك . . .
 ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذي مات له ، كان كلما
 أوجعه السوط قال : حسّس ، وهي كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين : انظروا
 إليه لا يقول باسم الله ، فقال بشار : ويلك ! أتريد هو فأنتي عليه !
 ثم زعموا أن قوماً مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال بشار :
 ما لهم مسرعين ! أتراهم سرعوه فهم يخافون أن يلحقوا ، فيؤخذ منهم ! . . .
 قالوا : وتوفى له ابن ، فجزع عليه ، فقيل له : أجر قدمته ، وفرّط افتراطته ،
 وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرتة ،
 والله لئن لم أجزع للتقص ، لا أفرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رزين - وأنا

اعتذر من رواية هذا الحديث ، ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل - قال : أتينا بشاراً ، فأذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه ، فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست ، فكشف عن سواته ، فبال ، ثم حضرت الظهر والعصر ، فلم يصل ، فدنونا منه ، فقلنا : أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال : وما هي ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك ، فلم تدعنا إليه ، فقال : إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال : ثم ماذا ؟ قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبالت ونحن نراك . فقال : أنا مكفوف ، وأنتم بصراء ، وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، ثم قال : ومه ؟ قلنا : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فقال : إن الذي يقبلها تفارق يقبلها جملة . أعتقد أن هذه الأحاديث التي تمثل ابتسام بشار وتندرته ، وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح ، لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ، ولا ذى الروح الخفيف ، وإنما تعطى منه صورة قاسية ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ، ولعله قد كره كل شيء وازدراه ، فهو لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه ، ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء إلا انتهزها ، ولم يكن في سخريته هيناً ولا رقيقاً ، وإنما كان غليظاً فظاً قاسياً . ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك في الفصل الماضي ، من أخبار بشار تمثله منافقاً في سيرته ، يدارى الناس ويتقهم ليعيش ، ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشه ، ثم يسخر منهم متى أتيج له ذلك .

وإذن فهو أقل الناس حظاً من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه شعوره وعواطفه ، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه ، وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر ، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل ، ليس شعره شفافاً كشعر أبي نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع ، وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق ، لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب دائماً ، لا يخفل بالكذب ، ويغضب حين يلفته الناس إليه . إنه كان ضخماً فاحش الضخامة ، قوياً شديد القوة ، ثم لم يستح أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدَى جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّأْتَ عَلَيْهِ لَانْهَدَمَ

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ، ولا حين يتغزل ،

ولا حين يرثي ، ولعله إن صدق إنما يصدق في موضوعين اثنين من شعره :
يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ، ويضع يده على
مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم ، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو ،
لأنه يصف نفسه ، ويمثل سخطه على الناس ، وما يضطره إليه هذا السخط
الشديد من ألوان الإسراف والظلم ، وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر
نفسه وسوء مكانه من الناس ، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم
إياه ، وبخلهم عليه بما كان ينتظر . هوفي هذا الموضوع من شعره صادق ،
وقد يبلغ التأثير أحياناً ، وما أحسب أنك تخالفني في استحسان هذه الأبيات ،
وصدق الشاعر فيها ، وهي التي قالها حين مدح المهدي ، وألح في مدحه ،
فحرمه المهدي ، وألح في حرمانه :

خَلِيلِيَّ إِن الْعُسْرَ سَوْفَ يُفِيقُ وَإِنَّ يَسَاراً فِي غَدِّ خَلِيقِ
وما كنتُ إلا كالزَّمانِ إذا صحا صحوتُ وإن ماقَ الزمانَ أموقُ
أدماء لا أسطيعُ في قِلَّةِ الثَّرَى خُرُوزاً ووَشِيماً والقليلُ مَحِيقُ
خُذِي من يدي ما قلَّ إن زماننا شَموسٌ ومعروفَ الرجالِ رَفِيقُ
لقد كنتُ لأرضي بأدنى معيشةٍ ولا يَشْتَكِي بُخْلاً عَلَيَّ رَفِيقُ
خَلِيلِيَّ إِنَّ الْمَالَ لَيْسَ بِنَافِعٍ إذا لم ينل منه أخٌ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقت عَلَيَّ مَحَلَّةٌ تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مِمَّا عَلَيَّ تَضِيقُ
وما خابَ بينَ اللَّهِ والناسِ عاملٌ له في الثَّقَى أَوْفَى المَحامِدِ سَوْقُ
ولا ضاقَ فضلُ اللَّهِ عن متعَفِّفٍ ولـكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

ألست تحس معي أن الشاعر صادق متأثر ، وأن تأثيره هذا مؤثر أيضاً !
ولا تقل إنه يتكلف الكرم في هذه الأبيات ، فلم يكن بشار بخيلا ، ولا
محبباً للبخلاء ، وإنما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ، ويعطف عليهم
بكرمه وجوده ، بل لأنه يزدري المال ، كما يزدري الناس ، وله أخبار في
الكرم لا بأس بها ، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين ، فكان يبيعهم
ماله ، وكانوا يسرفون في الانتفاع بذلك ، حتى لقد كانوا يعبدون على ثيابه

فيلبسونها ، وكانوا يتعاطون مهناً لا ينظف صاحبها ، فكانوا يتركون في هذه الثياب روائح لا تطيب ، وكان بشار يكره ذلك ، ويتبرم به ، ولكنه لم يزجر لإخوته ، وإنما احتمل منهم ذلك . وزعموا أنه لبس في يوم من الأيام ثوباً من هذه الثياب ، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب ، فأنكر بعض الناس ذلك على بشار ، فقال : إنما ذلك صلة الرحم ! . وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشَّمَقْمَق من صلة ؛ فقد كان بشار عودّه أن يمنحه مقداراً من المال في كل عام ، وطمع أبو الشَّمَقْمَق في ذلك ، حتى عدّه ديناً ، ولعل كرم بشار على أبي الشَّمَقْمَق لم يكن بريئاً ولا خالصاً لوجه الله ، فقد كان بشار جباناً كما قلنا ، وكان أبو الشَّمَقْمَق سيئ الهجاء ، فكان بشار يخافه ويتقيه بالمال ، وله في ذلك نوادر كثيرة . وتحدّث بعض الناس أنه دخل على بشار ، فوجد بين يديه دنائير ، فقال له بشار : خذ منها ما شئت ، وقص عليه قصتها ، وهي أن أبياتاً من شعره أعانت شاباً على حب ، فحمل إليه مئة دينار . لم يكن بشار بخيلاً إذن ، وهو لا يتكاف الكرم في هذه الأبيات التي قدمناها ، وهو صادق حين يشكو ، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة ؛ فقد كان واسع العيش مترفاً ، منعماً في البصرة ، وإنما كان هذا كله يأتيه من الشعر ، ومدحه به أشرف الناس ، وهجائه به أشرف الناس أيضاً ، فليس غريباً أن يسوء حرمان المهدي إياه ، وليس غريباً أن يحزنه هذا الحرمان ، فقد كان بشار لنفسه مكبراً ، ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدي : إنه لم يستحسن ما قلت فيه ، فأجاب : لا ! والله لقد قلت فيه كلاماً لو قيل في الدهر لأمن الناس صرفه ، ولكنه كذب أُملى ، لأنني كذبت القول فيه ؛ فانظر إليه كيف أبي أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدي ، وكيف أكبر نفسه على هذا ، فازدري المهدي ، ولام نفسه ، لأنه مدحه بما ليس فيه ! .

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا ، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ، ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجليد ، الذي يستحق أن يروى ويبقى ، فأما غير

ذلك ، فقد كان يصدر عن بشار في غير تكلف ولا عناء ، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة التي امتلأت بالماء ، كأنها إسفنجة ، يكفي أن تمسها لينبجس منها الماء ، ولكن هذا الماء لم يكن عذبا في كل وقت ؛ فقد كان لا يخلو من مرارة وفجاجة ، وربما لم يخل من نَسْنِ أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة ، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجيد لا يقل عن اثني عشر ألف بيت ، وأنه غير مسرف في ذلك ، لأن له اثني عشر ألف قصيدة ، فيجب أن يكون في كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس ، أو في بلد غير تونس ، وأن من الأدباء من يعمل لنشره^(١) . فإذا كان هذا الخبر صحيحاً فسنستطيع أن ندرس بشاراً ونحكم عليه من كتب ، وأنا لهذا أحتفظ بحكمي عليه ، وأستبجح لنفسي تغيير رأيي فيه ، إذا ظهر هذا الديوان ، وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرني ديوان بشار إلى أن أغير رأيي في بشار وشعره . فليس بين يدي من شعره مقدار عظيم ، ولكن هذا المقدار القليل الذي أدرسه وأنقده ، يكفي لأتمله ، وأحكم عليه ، وسرى يوم يظهر الديوان : أمخطئ أنا أم مصيب .

بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير ، ولكنه ليس بالقليل أيضاً ، وهو سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تهالكاً على اللذة ، وإفحاشاً في هذا التهالك ، وافتناناً فيه أيضاً ، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ، ويكفي أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصرى ومالك بن دينار جميعاً ، قد هتفوا به ، وشكوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ؛ ويمثل رغبة في الفساد وإذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفي بأن يكون من أصحاب اللذة المهالكين عليها ، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب ، وأدناها وأشدّها شيوعاً في النساء وقتيات الهوى ، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات ، وأن يتأثرن به ، والغريب أنك لا تجد بشاراً يسف في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر ،

(١) يطبع الآن في القاهرة وقد طبع منه الجزء الأول .

إلا الغزل والهجاء ، وهذا واضح ، فهو إذا تغزل أراد أن يفهمه النساء ، وأن يكون شعره ذائعاً ، يتناقله الشبان وأهل الخلاعة ، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذى من يهجو ، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مقذعاً ، وكان مع ذلك سهلاً يمكن فهمه وروايته . ولست أشك في أن المهدي لم يكن جائراً ولا مسرفاً حين نهى بشاراً عن الغزل ، وحين أنذره بالموت إن عاد إليه ، ويكنى أن أروى لك هذه القصيدة التي غضب لها المهدي ، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه :

قد لآمتي في خليلتي عمرُ واللوم في غير كنهه ضجّرُ
قال : أبق ، قلت لا ، فقال : بلى قد شاع في الناس منكما الخبرُ
قلت : وإذ شاع ما اعتذارك مما ليس لي فيه عندهم عذرُ
ماذا عليهم ! وما لهم خرّسوا لو أنهم في عيوبهم نظروا
أعشقُ وحدي ويؤخذون به كالترك تغزو فتؤخذ الخزرُ
يا عجباً للخلاف يا عجباً بغير الذي لام في الهوى الحجرُ
حسبي وحسب الذي كلفت به مني ومنه الحديث والنظرُ
أو قبلة في خيال ذلك وما بأس إذا
أو عضة في ذراعها ولها فوق ذراعي من عضها أثرُ
أو لمسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه السترُ
والساق براقسة مخلصها أو مض ريق وقد علا البهرُ
واسترخت الكف للعراك وقا لت : إيه عنى والدمع منحدِرُ
انهض : فما أنت كالذي زعموا أنت وربي مغازل أثيرُ
قد غابت اليوم عنك حاضتي والله لي منك فيك ينتصرُ
يارب خذ لي فقد ترى ضرعي من فاسق جاء ما به سكرُ
أهوى إلى معضدي فرضة ذو قوة ما يطاق مقتدرُ

أَصَقَ بِي إِحْيَاءَ لَهُ حَشْنَتَ ذَاتَ سَوَادٍ كَأَنَّهَا الْإِبْرُ
 أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا تَجُوتَ بِهَا فَادْهَبْ فَأَنْتَ الْمُسَاوِرُ الظُّفْرُ
 كَيْفَ بِأُمِّي إِذَا رَأَتْ شَفَّتِي أَمْ كَيْفَ إِنْ شَاعَ مِنْكَ ذَا الْخَبْرِ
 قَدْ كُنْتُ أَحْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ ، فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ
 قُلْتُ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ : يَا سَكْنِي لَا بَأْسَ ، إِنْ مَجْرَبُ خَيْرُ
 قَوْلِي لَهَا : بَقَّةٌ لَهَا ظْفُرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَا لَهُ ظْفُرٌ

روى شيء من هذه القصيدة لمطيع ، ولكن هذا من خطأ الرواة ،
 وأنت تقرأ هذه القصيدة ، فإذا أولها جيد متين مستقيم ، لا تكبير فيه ، ولكن
 الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصيدة الخليعة ، حتى يُفحش ، لا في اللفظ ،
 فليس في اللفظ فحش كثير ، بل في المعنى ، فالعنى كله فحش . ولست أريد
 أن ألفتك إلا إلى بيتين اثنين من هذه القصيدة ، أحدهما يبين مهارة بشار في
 محاكاة النساء ، أو نوع من النساء حين يتفجعن في تهالك ولذة ، وهي قوله :
 قَدْ كُنْتُ أَحْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ

وانظر إلى قوله (يا عبر) . والآخر يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التي تعبت
 بالناس ، وتسخر منهم في عنف وقسوة ، وأنا أعتقد أن نفس بشار وخلقه وقلبه ،
 كل هذا مختصر في هذا البيت .

قَوْلِي لَهَا بَقَّةٌ لَهَا ظْفُرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَا لَهُ ظْفُرٌ

ولست أروى لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار ، فهي تكفي ، وأظن
 أنها تقوم عذراً للمهدى في نهيها بشاراً عن ذكر النساء ، ولوعاظ وللعلماء في
 سعيهم ببشار إلى السلطان ، ولا سيما أن أمر بشار لم يكن قد وقف عند قول
 هذا الكلام الفاحش وإذاعته ، وإنما كان النساء يترددن إليه ويشاركنه
 في اللهو ، وكان هو يطلب إليهن المواعيد ، فمنهن من كانت تسايه صادقة
 وفيه ، ومنهن من كانت تعبت به عبثاً منكرأ ، وأخبار ذلك في الأغاني كثيرة ،
 وهي لا تشرف بشاراً ، ولا تدل على أنه كان بكرم نفسه ، ويتأدب بالآداب

التي كانت تفرضها عليه آفته ، وأقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً
مفطوراً على الفجور .

هل أحب بشار حبيماً صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن التمس الجواب عليه
في شعر بشار ، فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ؛ فقد قلت لك إن شعره كثيف
صفيق ، لا يدل على عاطفة ، وإن الكذب فيه كثير ، والتكلف فيه لا حد
له ، أريد تكلف المعاني ، وأنا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبدة ، وقال فيها شعراً
كثيراً جداً ، تعنى فيه المغنون ، وأعلم أن عبدة مالت إليه ، وكان بينها وبينه
مودة ، ولكني أقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبدة فلا أجد فيه شيئاً يمثل
الحب الصادق القوي حقاً ، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب بها وتأثر لها
وأحسب الشاعر صادقاً ، ولكني لا ألبث أن أضحك ، لأنني أعلم أن الشاعر
كاذب ، وأن صاحبه تعلم منه هذا الكذب ، وما أشك في أنها كانت تضحك
منه أيضاً ، وتقبله لجودته الفنية ليس غير ، وهذه الأبيات مشهورة يحفظها
الناس جميعاً لبشار وهي :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِ
رَفِيهِ يَا عَبْدَ عَنِّي وَعَلَمِي أَنْسِي يَا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمِ
إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتِ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمِ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمِ

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار ، لخدعنا الرجل عن
نفسه ، فصدقناه ، وخيل إلينا أنه كان يحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا
أنه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذه ، ثم يزعم السهر والأرق ، كما كان يزعم
النحافة والنحول !

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها ، وهي لا تخلو من جودة ،
وأنا أروها ، لأن قصتها لا تخلو من عجب :

أَيُّهَا السَّاقِيَانِ صُبًّا شَرَابِي وَاسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِ بَيْضَاءِ رُودِ
إِنَّ دَائِي الظَّمَا وَإِنَّ دَوَائِي شَرْبَةَ مِنْ رُضَابِ ثَعْرِ بَرُودِ

وَلَهَا مَضْحَكٌ كَغُرِّ الْأَقَاحِي وَحَدِيثٌ كَالْوَشْيِ وَشَيْءٌ الْبُرُودِ
 نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ ، وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمَسْتَزِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ : نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيْالٍ وَاللَّيَالِي يُبْلِغُنَّ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي ، وَعِنْدِي زَفَرَاتٌ يَا كَلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

قالوا : فطرب الوليد وقال : من لى بمزاج كأسى هذه من ريق سلمى ،
 فيروى ظمئى ، وتطفأ غلئتى . ثم بكى حتى مزج كأسه بدمه ، وقال : إن
 فاتنا ذاك فهذا .

في هذا الشعر متانة وجودة ورقة ، ولكنى لا أحب أوله ، وربما استسختته ،
 ولست أدري كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبه ! . . .
 وأحسب أن هذه ليست صناعة السقاة . وإذا كانت هذه القصة
 صحيحة ، فهي إنما تمثل رقة هذا الشاعر ، الذى أحبه وأعطف عليه ،
 وهو الوليد بن يزيد ، الذى فاته ريق سلمى ، فمزج كأسه بالدمع ، يسفحه
 البكاء عليها .

ولنترك غزل بشار ، وننتقل إلى شيء آخر من فنون شعره ، ولكن فى
 إيجاز فقد أطلنا .

لبشار قصيدتان اشهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيماً ، إحداهما ميمية ، قدمها
 أبو عبيدة على ميميّات جرير والفرزدق ، وفُتِنَ بها الأصمعى ، وتناقلها أهل
 بغداد ، وأعجبوا بها إعجاباً عظيماً ، وهذه القصيدة قصة ، تمثل لنا نفس بشار
 أيضاً ، قالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ، ويحرضه فيها على
 المنصور ، ويهجو فيها المنصور . فلما قمعت ثورة إبراهيم وقتل ، خاف بشار ،
 فحوّل القصيدة ، كأنه لم يمدح بها إبراهيم ، ولم يهجو بها المنصور ، وكأنه هجا
 بها أبا مسلم الخرساني ، فوضع أبا مسلم موضع أبي جعفر ، وحذف من أبيات
 القصيدة ما لم يكن سبيل إلى تحويله ، وهى :

أَبَا جَعْفَرٍ مَا طَوَّلُ عَيْشَ بَدَأْمِ وَلَا سَالِمٌ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَالِمِ
 عَلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَقْتَحِمُ الرَّدَى وَيَضْرَعُهُ فِي الْمَأْزِقِ الْمُتَلَاحِمِ

كأنك لم تسمع بقتل مُتَوَجِّحٍ
 تقسم كسرى رهطه بسيو فهم
 وقد كان لا يخشى انقلاب مكيده
 مقيماً على الذات حتى بدت له
 وقد ترد الأيام غراً وربماً
 مروان قد دارت على رأسه الرحى
 فأصبحت تجري سادراً في طريقهم
 تجردت للإسلام تعفو سبيله
 فما زلت حتى استصر الدين أهله
 فرم وزرراً ينجيك يا بن سلامة
 لحي الله قوماً رأسوك عليهم
 أقوم لبسام عليه جلاله
 من الفاطميين الدعاة إلى الهدى
 سراج لعين المستضى وتارة
 إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
 ولا تجعل الشورى عليك غصاصة
 وما خير كف أمسك الغل أختها
 وخل الهوينى للضعيف ولا تكن
 وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه

عظيم ، ولم تسمع بفتك الأعاجم
 وأمسى أبو العباس أحلام نائم
 عليه ، ولا جرى النحوس الأشأم
 وجوه المنايا حاسرات العمائم
 وردد كلوحاً باديات الشكائم
 وكان لما أجمت نزر الجرائم
 ولا تبقى أشباه تلك النقام
 وتعى مطاه ليوث الضراغم
 عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
 فلت بناج من مضم وضائم
 وما زلت مرءوساً خبيث المطاعم
 غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
 جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم
 يكون ظلاماً للعدو المزاحم
 برأى نصيح أو نصيحة حازم
 فريش الخوافي قوة للقوادم
 وما خير سيف لم يؤيد بقائم
 نووماً فإن الحزم ليس بنائم
 سباً الحرب خير من قبول المظالم

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ما قال بشار ، وهو صادق العاطفة
 فيها ، والناس صادقون حين استحسوها ؛ هو صادق لأنه كان يكره بنى
 العباس كرهاً شديداً ، ويؤثر بنى علي إيثراً شديداً ، ولم يكن يكره

بني أمية ، ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجباً أن يفرح لثورة العلويين ،
ويغريهم بالعباسيين في هذه الأبيات المضطربة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء
الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً ، كعمامة أهل العراق ، يظهرون
لبني العباس غير ما يضمرون ، ثم كان الناس جميعاً ينتمون من بني العباس
ظلمةً واستبداداً بالأمر ، وازدراء للزعماء من العرب ، ومن الموالي أيضاً ؛ فليس
عجباً أن يحبوا شعر بشار وأبياته في الشورى ، فهذا الحب وهذا الإعجاب
يمثلان قبل كل شيء ما تضرع الشعوب للملوك المبعّضين إليها . على أن صدق
بشار ليس وحده الذي يحلى هذه القصيدة ، فلفظها متين كما ترى ، ومعانيها
جياذ ، وإن كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة
من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة .

أما القصيدة الأخرى فهي البائية التي مدح بها ابن هبيرة ، وقال فيها :

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نَعَاتُهُ

وفيها هذا البيت المشهور ، الذي أعجب به الناس إعجاباً شديداً واستكثروه
على شاعر ضريب ، وهو :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُهُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وليس البيت كثيراً على بشار ، فبشار نفسه يثبتنا بأنه قلد فيه قول
امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

فأما تشبيه السيوف بالكواكب ، وتشبيه مثار النقع بالليل ، فشيء مألوف
تحدث عنه الشعراء كثيراً ، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية ، التي
لم يبتدعها كلها ، وإنما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى .

وجملة القول في بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جداً ، ولكن الجيد
في هذه المادة لم يكن صادقاً في شعره ولا مخلصاً ، وإنما كان يتكلف المعاني
في أكثر الأوقات ، وكان يتكلف الألفاظ والأوصاف أيضاً ، ولم يكن

محبباً ولا جذاباً ، ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، وإنما كان قوياً جباراً ، مبعضاً إلى الناس ، مبيغضاً لهم . وإذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقاً ، فهو فن الهجاء ، وقد عللنا هذا . وفى الحق أنه قتل الهجاء ، وأن الهجاء قتله أيضاً ، فقد كان فاسقاً ، بل كان زنديقاً ، ولم ينفعه تسره ولا تكتمه ، ولكن الزندقة لم تقتله ، وإنما اتخذت وسيلة إلى قتله . والذى قتله إنما هو هجاؤه للمهدى بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاؤه ليعقوب بن داود وزير المهدي ، ولأخيه صالح بن داود ، قال الرواة : إن بشاراً وجد على المهدي وجداً شديداً حين حرمه ، وأعطى غيره من الشعراء ، فذهب ذات يوم إلى حلقه يونس بن حبيب النحوى ، فسأل هل هنا من يحتشم ؟ فقيل : لا ، فأشدد بيتين شيعيين فى المهدي ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوهما إلى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدي فى تحفظ وتملق وإغراء ، قالوا : فغضب المهدي غضباً شديداً ، وقال له يعقوب إنه زنديق ، قد قامت عندى البينة عليه ، فأمر المهدي أن يضرب التلغ ، فضرب سبعين سوطاً مات لها . قالوا : وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدى أنه لم يكن زنديقاً ولا كافراً ، فندم المهدي لقتله . وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح ، فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار ، يعلن فى الخوامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

والبة بن الحباب^(١)

أبان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في أنه كان أبعد الشعراء
أثراً في عصره ، ولا شك في أنه كان من أنبههم ذكراً ، ولا أشك في أنه
كان من أشدهم إيماناً في الحجون ، وإسرافاً في الفسق والفجور ، وهو والبة
ابن الحباب . ولكني مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيء ذي
غناء ، لأن الله لم يقدر لشعره البقاء ، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة ،
فذهبت حياته كما ذهب أدبه ، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل ، إلا أن
تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار ، فيه طرف
من أخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون إلى أن نُعَرِّضَ عن درسه
الآن ، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين ، الذين
ندرسهم في هذه الفصول . نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر ، لأننا واثقون
بأنه قد كان منهم ، ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في القول
والعمل أيضاً ؛ فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لأبي نواس ، تولى تأديبه
وتعليمه ألوان الشعر والحجون ، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان ، ويظهر
أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة عشرة سنة ، لم يتخرج من روايتها
أبوالفرج ، ولم يتخرج من روايتها أبو نواس نفسه ، ولعل والبة هو الذي مهد
لأبي نواس هذه السبيل المنكرة ، التي سلكها طول حياته ، فجعلته
مبغضاً ، وجعلته محبباً إلى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته ، وجعلته محبباً
لحسن شعره ، وشدة ظرفه ، وتقدمه في الأدب إلى حد لم يبلغه كثير من
معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عريئاً صميمياً ، من بني أسد وكنا نود لهذا
السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره ، لنعرف كيف كان بلاء العرب

(١) نشرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤ م .

الصرىحين في الزندقة والحجون ، وهذا اللون من ألوان العبت . فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن المولى ، أو من يشك في عربيتهم ، أما والبة فلم يكن مولى ، ولم يكن نسبه موضع شك ، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى أن نكتفي بهذه الأخبار القصيرة المبتورة التي نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة . وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من أبي نواس ، ولا من مطيع ، ولا من حماد ، وربما كان أشد منهم صراحة في القول ، وإسرافاً في الفحش ، فالناس يتحدثون أن المهدي أو الرشيد كره لقاءه ومنادمته ، لبيتين قالهما ، فجعل منادمته شراً على كل نديم . أما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه ، لأننا لا نحفظ منه إلا أبياتاً ، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعاً في وصف الخمر وما يتصل من العبت والغزل والحجون . وإذا ذكرنا الغزل ، فإنما نذكر الغزل بالغللمان ، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر ، وأنه حاول أن يهاجى أبا العتاهية ، فلم يستطع أن ينال منه شيئاً ، بل لم يستطع أن يثبت في بغداد ، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هارباً أو كاهارب .

فلندع والبة إذن ، ولننصرف إلى غيره من شراء هذا العصر ، وإلى من ننصرف ؟ ننصرف إلى أبان بن عبد الحميد اللاحتي ، فهو خليق أن نقف عنده حيناً ، لا لأنه يمكن أن يقرب إلى بشار ، أو إلى مطيع ، أو إلى أبي نواس ، فهو أقصر باعاً ، وأضيق ذرعاً من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته ، واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه ، وصدق لهجته ، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الخلال ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى ، ويفوقهم في بعضها ، وله نواح تستحق العناية ، وتدعو إلى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ، ولا محبباً إلى الناس ، وإنما كان فيه شيء من الثقل ينفّر منه ، ويصرف عنه ، وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه ، قلنا: إنه يثبت هؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها ، يثبت لهم في الزندقة ، فلم يكن أقل منهم عبثاً

ولا مجوناً ، أو قتل : لعله كان أقل منهم عبثاً ومجوناً في اللفظ ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم ، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً ، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة ، لاعن شك أو رغبة في اللذة ، والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة ، تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين : أحدهما يكره العرب ودينهم ، ويزدرىهم ويزدرى دينهم ، ويضممر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يُظهر ، الإسلام ويتكلفه ، ويتمدح به ، ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه . من هذه الناحية هو قريب من بشار ، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه ، فكان إلى العبث اللفظي ، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والحدود ، يقومان على عقيدة ثابتة ، وعلى رأى سياسى بعينه .

كان أبان يكره العرب ويزدرىهم ، ولكنه كان في الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم ، ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم ، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسياً قبل كل شيء ، يريد أن يثار للفرس . ويعيد سلطانهم إلى الأرض ، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر ، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور في العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب ، ويقوم مكانه سلطان فارسى ، فلم يكن يطمع في ذلك ، ولا يسمو إليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ في الانتقام للفرس ، ورد السلطان الفعلى إليهم ، إذا أخطأهم السلطان الشرعى واللفظى ، وهو التقرب إلى الخلفاء ، وأخذهم من مواضع الضعف ، والسيطرة عليهم ، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور ، ويعتمدوا عليهم في ذلك ، فيتركوا السلطان الفعلى للفرس ، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة ، واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول في ذلك العصر ، بعد أن أخفقت تجربة أبى مسلم ، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت ، ولا لحزبه إلا الشر كله ، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة ، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فأحسنوا العمل والتدبير ، وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة ، والأمل

البعيد ، يسعى إليه في رفق وثبات ، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الخيلة ، فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم ، وأصابتهم تلك النكبة ، التي كانت أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة ، متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدّها وهزلها ، وصعبها وهينها ، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك ، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء ، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات ، فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضباً أبو نواس ، الذي كان يكره البرامكة كرهاً شديداً ، كما قلت لك ، حينما كنت أدرس أبا نواس ، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ، تستحق أن نقف عندها حيناً ، لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه ، ولا سيما أن أباناً قد عجز عن أن يرد على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس ، فقد هجاه أبو نواس ، فاتهمه بالكفر والزندقة ، اتهاماً صريحاً منكرًا ، لا يخلو من فحش ، ولم يستطع أبان أن يردّ على خصمه من هذه الناحية ، فردّ ردّ الضعفاء ، فشمّ أبو نواس ، وناله في أمه وأبيه . . . ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ، ولا يعفي من إثم ، وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس يهجو بها أبان بن عبد الحميد ، وهي تمثل رأى أبان حقاً .

شهِدْتُ يَوْمًا أَبَانًا لَا دَرَّ دَرُّ أَبَانٍ
وَنَحْنُ حُضْرُ رِوَاقِ الْأَمِيرِ بِالنَّهْرَوَانِ
حَتَّى إِذَا مَا صَلَاةُ الْأُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَكُلَّمَا قَالَ قُلْنَا إِلَى انْقِضَاءِ الْأَدَانِ
فَقَالَ : كَيْفَ شَهِدْتُمُ بَدَا بَغْيِ عِيَانِ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى تَعَايِنَ الْعَيْنَانِ

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ رَبِّي! فقال: سُبْحَانَ مَانِي!
 فَقُلْتُ: عَيْسَى رَسُولٌ فقال: مِنْ شَيْطَانِ
 فَقُلْتُ: مُوسَى نَبِيٌّ أَلِ مُهَيْمِنِ الْمَنَانِ
 فَقَالَ: رَبُّكَ ذُو مُةٍ لَمَةٍ إِذْنَ وَلِسَانِ
 أَنْفُسُهُ خَالَفَتْهُ أَمْ مَنْ؟ فَقَمْتُ مَكَانِي
 وَقُلْتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو غُفْرَانِ
 وَقَمْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي عَنْ هَازِلِ بِالْقُرْآنِ
 عَنْ كَافِرٍ بَيْتَمَرِّي بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ
 يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى بِالْعُصْبَةِ الْمُجَانِ
 بِعَجْرِدٍ وَعُجَادٍ وَالْوَالِي الْهَيْجَانِ
 وَابْنُ الْإِبَاسِ الَّذِي نَا حَ نَخَلْتِي حُلْوَانَ
 وَابْنَ الْخَلِيعِ عَلَى رِيحَانَةِ النَّدْمَانَ
 إِنِّي وَأَنْتَ

فهذه القصيدة تمثل لا رأى أبان وحده ، بل تمثل أيضاً رأى هذه الطائفة من
 الفرس ، الذين أظهروا الإسلام ديناً ، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم ، ورفضوا
 معه المسيحية واليهودية أيضاً ، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي ، لأنهم
 اتخذوا ذلك سياسة ومذهباً في السياسة . ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأى
 أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية ، فهو يكره أن يقترن إلى مطيع ، وحامد ،
 والحسين بن الضحاك الخليع ، ووالبة بن الحباب ، وفي الحقي أنه لا يقترن
 إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا ، ولكنه يفوقهم في الزندقة والإلحاد ،
 لأنه كان يتخذ الكفر رأياً ، لا وسيلة إلى اللذة . ولست أروى لك رد أبان على
 أبي نواس ، فهو فحش كله ، وتستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت ،
 على أنه لا يدفع حجة ، ولا يبرئ من تهمة . وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها

أبو نواس في هجاء أبان ، دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وإنما أراد أن يجزي
شتماً بشتم ، وسباً بسب . ولست أروها كلها ، وإنما أترك منها ما فيه فحش .

صَحَّتْ أَمْكُ إِذْ سَمَّيْتُكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرْتُ بَاءَ مَكَانِ التَّاءِ تَصْحِيفًا عِيَانَا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تَرُدْ إِلَّا أَنَانَا

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التي أعطاهها هو من نفسه
حين أراد أن يتصل بالبرامكة ، فكتب إليهم هذه القصيدة ، وستقرأها
فترى أن الرجل معجب بنفسه ، مُدَلِّجٌ بعلمه وأدبه ، تيساه لا حداً لتيهه
وغروره ، وهي :

أَنَا مِنْ بُغْيَةِ الْأَمِيرِ وَكَكْرٍ مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُو أَرْبَاحِ
كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، خَطِيبٌ، أَدِيبٌ نَاصِحٌ، رَاجِحٌ عَلَى النَّصَاحِ
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَحْفُ مِنَ الرَّيْشَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَبَاحِ
لِي فِي النَّحْوِ فِطْنَةٌ وَاتِّقَادٌ

ثم أروى من ابن سيرين للعالم بقول مُنَوَّرِ الْإِفْصَاحِ
مِمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ لِلشَّعْرِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ
وظَرِيفُ الْحَدِيثِ مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَبَصِيرٌ بِتَرْهَاتِ الْمَلَاحِ
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَأَتْ عِنْدِي حَدِيثًا هُوَ عِنْدَ الْمَلُوكِ كَالْتَفَاحِ
فبِمَثَلِي تَخَلَّوْا الْمَلُوكَ وَتَلَهُوْا وَتَنَاجَى فِي الْمَشْكَلِ الْقَدَاحِ
أَيُّمُنُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدٍ لَعْدُوِّ دُعِيْتُ أَوْ لِرَوَاحِ
أَبْصَرُ النَّاسِ بِالْجَوَارِحِ وَالْخَيْلِ وَبِالْخَرْدِ الْجِسَانَ الصَّبَاحِ
كُلَّ ذَا قَدْ جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْفِي ظَرِيفُ الْمَرَاحِ
لَسْتُ بِالْفَاسِكِ الْمَشْمُورِ ثَوْبِي بِهِ وَلَا الْمَاجِنِ الْخَلِيعِ الْوَقَاحِ

لَوْ رَمَى بِي الْأَمِيرُ - أَصْلَحَهُ اللَّهُ - رِمَاحًا ثَلَمَتْ حَدَّ الرَّمَاحِ
 مَا أَنَا وَاهِنٌ وَلَا مُسْتَكِينٌ لِسَوَى أَمْرِ سَيْدِي ذِي السَّمَّاحِ
 لَسْتُ بِالضَّخْمِ يَا أَمِيرُ وَلَا الْقَزَّ وَلَا بِالْمَجْحَدْرِ الدَّحْدَاحِ
 لِحِيَّةٍ جَعْدَةٌ وَوَجْهٌ صَبِيحٌ وَاتَّقَادُ كَشْعَلَةِ الْمِصْبَاحِ
 إِنْ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَايِنَ مِنِّي شَمْرِيًّا كَالْبَلْبَلِ الصَّيَّاحِ

أزابت شاعراً أشد غروراً وافتناناً بنفسه من هذا الشاعر ! على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بأبي نواس عند البرامكة ، فاغتاظ أبو نواس ، ونقض عليه قصيدته هذه ، فقال :

أَنْتَ أَوْلَى بِقِلَّةِ الْحِظِّ مِنِّي يَا مَسْمَى بِالْبَلْبَلِ الصَّيَّاحِ
 قَدْ رَأَوْا مِنْهُ حِينَ غَنَى لَدَيْهِمْ أَخْرَسَ الصَّوْتِ غَيْرَ ذِي إِفْصَاحِ
 ثُمَّ بِالرَّيْشِ شَبَّهَ النَّفْسَ بِالْخَفِّ قِمَامًا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
 فَإِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيخِ رَضْوَى عِنْدَهُ خِفَّةٌ نَوَى الْمِصْبَاحِ
 لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنْ صِفَاتِكَ شَيْءٌ غَيْرَ خَلْقِي مُجْحَدَرٍ دَحْدَاحِ
 لِحِيَّةٍ نَطَّةٌ وَوَجْهٌ قَبِيحٌ وَانْتِنَاهُ عَنِ النَّهْيِ وَالصَّلَاحِ
 فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمُلُوكَ عَلَى الْخُرِّ قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ
 فِيكَ تَبَهُ وَفِيكَ عَجَبٌ شَدِيدٌ وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كَلَّ طِمَاحِ
 بَارِدُ الظَّرْفِ مُظْلِمُ الكِذْبِ ذُوخَرٌ قِ مُعِيدُ الحَدِيثِ نَزْرُ المَزَاحِ
 فَالَّذِي قُلْتُ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ وَالَّذِي قُلْتُ ذَاهِبٌ فِي الرِّيَّاحِ

كان أبان إذن مسرفاً في حب نفسه ، والإعجاب بها ، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان ، اتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس ، كما اتصل بينه وبين رجل آخر ، كان صديقاً له ، وهو المعتدل ، ولكن هجاءه قبيح ، ليس منه ما يصلح للرواية ، على أن المتانة تنقصه ، وهو من هذا الهجاء الذي تسمعه ، فتتفر من قائله ، لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتوناً بنفسه ،

ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريراً قاسياً ، يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة .
وقد روى له أبو الفرج قصتين ، كلتاها تمثل نصيبه من القسوة وحب
الشر ، كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره ، ومن الحياة في عصره .
قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجل شَقَقِيَّ يقال له محمد بن خالد ، وكان
عدواً لأبان ، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة ، هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
مولاة جنّان ، التي كلف بها أبو نواس ، وأكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة
غنية موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة ، التي
بلغت عمارة ، فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَرْزَ وَالشَّارَهَ	وَالْفَرَشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَهَ
وَاللَّوْزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ	مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَهَ
وَأخْضَرُوا الْمَلْهِينَ لَمْ يَبْرُكُوا	طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَارَهَ
قُلْتُ لِمَاذَا؟ قِيلَ: أَعْجُوبَةٌ	مُحَمَّدُ زَوْجُ عَمَّارَهَ
لَا عَمَرَ اللَّهُ بِهَا بَيْتَهُ	وَلَا رَأَتْهُ مُدْرِكًا ثَارَهَ
مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ	وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَهَ
أَسْوَدُ كَالسَّفُودِ يُنْسَى لَدَى اللَّهِ	نُورِ بَلِّ مِحْرَاكِ قِيَارَهَ
يُجْرِي عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةٌ	أَرْغَفَةٌ كَالرِّيشِ طَيَّارَهَ
وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوْفِهِ	إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَهَ
وَيَحْكُ فِرْيَ وَأَعْصَبِي ذَا بِهِ	فَهَذِهِ أَخْتُكَ فَرَّارَهَ
إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقِظِي	مُمُّ اطْفِرِي إِنَّكَ طَفَّارَهَ

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت ، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه الأبيات :

فَصَعِدَتْ نَائِلَةً سُلْمًا	تَخَافُ أَنْ تَصْعَدَهُ الْفَارَهَ
«سُرُورُ» غَرَّتْهَا فَلَا أَفْلَحَتْ	فَإِنَّمَا لُخْنَاءُ غَرَّارَهَ
أَوْ نَبَلَتْ مَا أَبْعَدَتْ مِنْ رِيْقِيهَا	إِنَّ لَهَا نَفْثَةَ سَخَّارَهَ

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونكراً ، وأقبح منها عاقبة وأثراً ؛
قالوا : كان لأبان جار ، وكان يعاديه ، فاعتلّ علة طويلة ، وأرجف أبان
بموته ، ثم صح من علته ، وخرج ، فجلس على بابه ، فكانت علته من السل ،
وكان يكنى أبا الأطول ، فقال له أبان :

أَبَا الْأَطُولِ طَوَّلْتَ وَمَا يُنْجِيكَ تَطْوِيلُ
بِكَ السُّلِّ وَلَا وَاللَّهِ مَا يَبْرَأُ مَسْئُولُ
فَلَا يَغْرُرُكَ مِنْ ظَنِّكَ لَكَ أَقْوَالُ أَبَاطِيلُ
أَرَى فِيكَ عِلَامَاتٍ وَلِلْأَشْيَاءِ تَأْوِيلُ
هَذَا لَقَدْ بَرَى جِسْمَهُ لَكَ وَالْمَسْئُولُ مَهْزُولُ
وَذِبَانًا حَوَالِيكَ فَمَوْقُودٌ وَمَقْتُولُ
وَحَمَى مِنْكَ فِي الْعِظَمِ فَأَنْتَ الدَّهْرَ مَمْلُولُ
وَأَعْلَامًا سِوَى ذَلِكَ تَوَارِيهَا السَّرَّائِيلُ
وَلَوْ بِالْفَيْلِ مِمَّا لَكَ عُسْرٌ مَا نَجَا الْفَيْلُ
فَمَا هَذَا عَلَيَّ فِيكَ قُلَاعٌ أَوْ دِمَائِيلُ
وَمَا بِالْ مُنَاجِيكَ يُؤَلَّى وَهُوَ مَمْلُولُ
فَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَوْفِ فَقَدْ سَالَ بِكَ النَّيْلُ
وَذَا دَلَالٌ يُرْجِيكَ فَلَا قَالَ وَلَا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ، ودخل منزله ، فما خرج منه بعد
ذلك حتى مات .

قلت : إن أبان بن عبد الحميد لا يشبه للشعراء المعروفين في فنون الشعر ،
التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي
سبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نغنى أنه ابتكر
في الأدب العربي فنّاً لم يتناهه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ،

وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ، ولا سبباً في العصور المتحضرة ، كعصر العباسيين ، وإنما قيمته في تلك العصور التي لاحظنا لها من علم ولا من حضارة ، والتي لا تنتشر فيها الكتابة ، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي وينيد ، لأنه أيسر حفظاً من النثر ، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني « هسيود » ، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح ، ونظم طائفة من القصائد ، فيها جمال شعري لا بأس به ، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة ، مما كان اليونان يروونه علماء في ذلك الوقت . فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة ، التي تعرف بالأعمال والأيام ، والتي بين فيها فصول السنة ، وما يلائمها من ضروب الزراعة ، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك ، مما تجده في هذه القصيدة الحميلة .

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي ، فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة ، من العلم والحكمة والدين ، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف ، واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتاً أربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لي دلتني على كتاب ، أو قطعة من كتاب مخطوط ، توجد في دار الكتب المصرية ، وهو كتاب الأوراق للصولي ، وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلا ودمنة ، ولست أريد أن أروى لك منه إلا شيئاً قليلاً جداً ، فهو لا يستحق الرواية ، ولا العناية في مثل هذا الحديث ، الذي نغني فيه بالأدب والفن ، أكثر مما نغني بالكلام المنظوم ، وهذا أول النظم :

هذا كِتَابُ أَدَبٍ وَرِيحُهُ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَةَ دَمْنَةَ
فِيهِ ضَالَّاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ وَهُوَ كِتَابٌ وَصَعَتَهُ الْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ حِكَايَةً سَنَ الْأَسْنِ الْبِهَائِمِ

فالحكماء يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ وَالسُّخْفَاءُ يَسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْخَفِظِ لَذُّهُ عَلَى اللَّسِيَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ

وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور .

وَإِنَّ مَنْ كَانَ دَنَى النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ الشَّقِيِّ الْبَاسِ يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَاسِ
وَإِنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يُرْضِيهِمْ شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يُغْنِيهِمْ
كَالْأَسَدِ الَّذِي يَصِيدُ الْأَرْنَبَا ثُمَّ يَرَى الْعَيْرَ الْمُجِدَّ هَرَبَا
فَيُرْسِلُ الْأَرْنَبَ مِنْ أَظْفَارِهِ وَيَتَّبِعُ الْعَيْرَ عَلَى أَذْبَارِهِ
وَالْكَلْبُ مِنْ دِقَّتِهِ تَرْضِيهِ بِلُقْمَةٍ تَقْذِفُهَا فِي فِيهِ

وعلى هذا النحو العادى الذى لا جمال فيه ، إلا أنه برىء من الركة ،
يمضى أبان فى نظم كتابه . على أنه فى هذا ناظم لكتاب معروف ، ولكنه
قد تجاوز نظم الكتب المعروفة إلى تأليف كتب منظومة ، فنظم
قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة ، روى منها الصولى طرقاتاً ، وهذا
أولها :

هَذَا كِتَابُ الصَّوْمِ وَهُوَ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزَلِ فِي الْقُرْآنِ فَضْلاً عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانٍ
وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبَعِ الْمَرْضَى
صَلَّى إِلَهُهُ وَعَلَيْهِ سَلَامًا كَمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ وَعَلَمًا
وَبَعْضُهُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ مِنْ أَثَرِ مَاضٍ وَمِنْ قِيَاسِ
وَالْجَامِعُ الَّذِي إِلَيْهِ صَارُوا رَأَى أَبِي يُوسُفَ مِمَّا اخْتَارُوا
قَالَ أَبُو يُوسُفَ : أَمَّا الْمُفْتَرَضُ فَرَمَضَانُ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضَ
وَالصَّوْمُ فِي كَفَّارَةِ الْأَيْمَانِ مِنْ حِنْثِ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ

وَمَعَهُ الْحَجُّ فِي الظَّهَارِ الصَّوْمُ لَا يُدْفَعُ بِالْإِنْكَارِ
 وَخَطَأُ الْقَتْلِ وَحَلْقُ الْمُحْرَمِ لِرَأْسِهِ فِيهِ السِّيَامُ فَافْتَهُمَ
 فَرَمَضانُ شَهْرُهُ مَعْرُوفٌ وَصَوْمُهُ مُفْتَرَضٌ مَوْصُوفٌ
 وَالصَّوْمُ فِي الظَّهَارِ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ مُظَاهِرٌ يَوْمًا عَلَى مُحَرَّرٍ
 وَالْقَتْلُ إِنْ لَمْ يَكُ عَمْدًا قَتْلُهُ فَإِنَّ ذَاكَ فِي الصِّيَامِ مِثْلُهُ
 شَهْرَانِ فِي الْعِدَّةِ كَامِلَانِ مُتَّصِلَانِ لَا مُفْرَقَانِ
 وَالْحِنْتُ فِي رِوَايَةٍ مَقْبُولَةٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامُهَا مَوْصُولَةٌ
 وَمِثْلُهَا فِي الْمِدَّةِ الْأَيَّامِ لِلْمُحْرَمِ الْحَالِقِ فِي الْإِحْرَامِ
 ثَلَاثَةٌ يَصُومُهَا إِنْ حَلَقَا لَا بَأْسَ إِنْ تَابَعَهَا أَوْ فَرَقَا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله ، وأمعنا في الفقه إمعاناً ، وكأنا نروى
 هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا .

ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين ، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم
 قصيدة طويلة سماها ذات الحلل ، تناول فيها تاريخ الخليقة ، وغير ذلك من
 موضوعات العلم ، وانتهى فيها إلى المنطق ، فألم به ، ولم يرو لنا من هذه
 القصيدة شيء .

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن ؛
 فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه
 أن يسهل لهم العلم تسهيلاً . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها
 من البرامكة ، حينما نظم كليله ودمنة ، قد أطمعته ، فنظم القصائد الأخرى ،
 ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال ، يضحى في سبيله بأشياء كثيرة ،
 منها العقيدة والرأى وكان يحسد مروان بن أبي حفصة ، لمكانه من الرشيد ،
 ولظفره بالصلوات الضخمة ، والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر ببني العباس
 مع مروان بن أبي حفصة ، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاض

ذلك أبان بن عبد الحميد ، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة ؟ فعاتب البرامكة ، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتباه به إلى الرشيد ، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان ، فقالوا له : يجب أن تذهب مذهب مروان ، فتدم آل علي ، فقال : والله ما أستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله ، وقال قصيدة طويلة ، آثر بها بني العباس على بني أبي طالب ، وأثبت فيها حق بني العباس في وراثته الخلافة دون بني علي ، ودفعها إلى الفضل ابن يحيى ، فركب بها إلى الرشيد ، فنالته صلواته وجوائزته . وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة . فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أَتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ

وأول القصيدة :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا	أَعْمَ بِمَا قَدِ قَتَلَهُ الْعُجَمَ وَالْعَرَبَ
أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً	لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ ؟	وَمَنْ ذَاكَ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجِبَ ؟
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقَّ بِتِلْكَكُمْ	وَكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى سَبَبِ
فَأَبْنَاهُ عَبَّاسٌ هُمْ يَرْتُونَهُ	كَمَا الْعَمُّ لَابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجِبَ

وهي طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبي ، وقد أجازها الرشيد مع ذلك ، فأحسن جائزتها ، لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة .

وقد انتهى بنا القول في أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبي حفصة الشاعر السياسي لبني العباس خاصة ، والثاني السيد الحميري ، وهو الشاعر السياسي لبني علي خاصة ، وإن كان قد مدح بني العباس ، وظفر بجوائزهم . وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية ، فسنتهي إلى هذه النتيجة : وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً ، وأكثرهم اتجاراً

برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ، ثم طمع في أموال الرشيد ، فأنكر العلويين ، وآثر عليهم بنى العباس ، وهو يُقسم ما يستحل ذلك ! . . . وفي الحق أنه لم يكن يجب آل عليّ ولا بنى العباس ، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس ، الذين يذهبون مذهب البرامكة ، يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، يخفي أطماعه وآربه الفارسية . أما مروان بن أبي حفصة فأسرتة كلها من أتباع بنى أمية وأنصارهم ، والغلاة في مدحهم وتأبيدهم ، ولكن الله أدال من بنى أمية لبني العباس ، فدار مع الأيام ، ووجد في ذلك مغنماً ، فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء . وأما السيد الحميري فعلويّ المذهب ، صادق في علويته ، مسرف فيها إسرافاً لا يعدله إسراف ، ولكن الله أدال من بنى أمية لبني هاشم ، وكان السيد كغيره من الناس ، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين ، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين ، انقسمت شيعة العلويين ، فمنهم من أعلن حقه ويخطه على بنى العباس ، فاشترك في فتن العلويين وثوراتهم ، ومنهم من اتقى ، فحفظ الود لآل علي ، وجامل العباسيين وأخذ أموالهم ، ومن هؤلاء السيد الحميري ، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية ، ونحسب أن الحسير في إرجائه إلى الأسبوع الآتي :

مروان بن أبي حفصة^(١)

السيد الحميري

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد ، في آخر حديث الأربعاء الماضي ، ولم أجمعهما إليه عبثاً ، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة ، تجعل التفكير في أحدهم وسيلة إلى التفكير في الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية ، فهم يتفاوتون في الشعر تفاوتاً شديداً ، لكل منهم فيه مذهبه وسيله كما سئرى . وليست هذه الصلة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، فقد كان أبان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة ، يستر ذلك ويخفيه ، حتى خدع الناس عن نفسه ، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان ، ولم يكن مروان بن أبي حفصة ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً ، وإنما كان أشد الناس انصرافاً عن اللغو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجدل وحسن السيرة ، لأسباب سنينها بعد حين . أما السيد الحميري فلم يكن من المسرفين في الاستهتار والتهاك ، ولا من الذين يتخذون العبث واللغو سيرة وديناً ، وإنما كان رجلاً كغيره من الشعراء الذين عاشوا في العصر الجاهلي والأموي ، يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً في ذلك حدّاً ، ولا مستهتراً فيه ، ولا متحدياً غيره من أهل التقى والدين ، كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والأعشى ، ولكنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبي نواس ، ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها ، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب ، لا من الموالى ، فسئرى في غير هذا الحديث أن هناك فروقاً جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالى ، تفسر لنا هذا المجون الكثير ، الذى نجده في صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، ولا تشابهاً في المذهب الشعرى والأدبى ، وإنما الصلة بينهم سياسية ، الصلة

(١) نشرت بالسياسة في ١ من ذى القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ م .

بينهم هذا المذهب السياسي الذي ذهبه جميعاً ، دون أن يكونوا فيه جميعاً مخلصين ؛ فكلهم مدح بنى العباس ، وتقرب إليهم ، وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بنى العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل .

رأينا في الحديث الماضي أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبني العباس ، واكنه كان مخلصاً لمال بنى العباس ، يشتميه ويحرص عليه ، فعاتب البرامكة ، لأنهم لم يقدموه إلى الرشيد ، فلما قال البرامكة إن الحق عليه في ذلك أن يهجو العلويين ، ويؤثر عليهم بنى العباس ، أظهر تردداً ، وقال إنه لا يستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله كما قلنا ، وأنشأ قصيدته المعروفة ، يثبت فيها أن بنى العباس أحق بوراثه الخلافة من بنى علي ، ولم يكن أبان علويّاً مخلصاً ، وإنما كان قبل كل شيء فارسياً مخلصاً ، وكان كغيره من هؤلاء الفرس ، يتخذ التشيع لعلى وآل بيته لوناً سياسياً ، إذا كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي ، وحريةهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام ، فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد طوال أيام بنى أمية ، فأبده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ؛ لأن ظروفًا سياسية خاصة ، تدرس في التاريخ لا في هذه الصحيفة الأدبية ، دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى علي ؛ فلان الفرس ومرزوا ، وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم في مذهبهم العلوي قوم ، لقوا في سبيل هذا المذهب متايهاهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً . وقد حدث في ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث في فرنسا أيام الثورة التي ظهرت سنة ١٨٣٠ ، فقد قام الجمهوريون بالثورة وهبوا أسبابها ، وانتهوا بها إلى الفوز ، حتى أزالوا سلطان « بوربون » ولكن ظروفًا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل « أورليان » ، فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذي عملوا وضحوا ، وفازوا ، ثم قسم أنصار « أورليان » الذين اجتنوا

ثمار الفوز ، وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختلسوا الجمهورية (Esamoter la Répuqlique) وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فمنهم من مال إلى الدولة الفائزة ، فانصرف من الحكم الجمهورى إلى الحكم الملكى الحر ، ومنهم من تشدد فى مذهبه الجمهورى ، ومضى يأتمر ويدبر الثورات ، حدث هذا أو شئء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان الأموى . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم ، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة ، لم ينتصر العلويون ، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بنى أمية ، واستأثر بالحكم من بنى هاشم آل العباس ، دون آل على ، فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ، ومنهم من أيد العلويين ، فمضى يأتمر ويثور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضاً ، فاطمأن بعضهم إلى السلطان القائم ، وأرجأ الثورة إلى سنوح الفرصة . وأبى بعضهم إلا أن يثور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين فى ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « أورليان » سنة ١٨٣٠

أما الفرس فقد ذهبوا هذا المذهب نفسه ، وانقسموا هذا الانقسام نفسه ، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا فى الحكم ، فأبوا أن يظهروا النصر لبنى العباس ، كما أبوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التى يفيدها مروان بن أبى حنيفة من خلفاء العباسيين ، فطمع وعدل عن مذهبه السياسى . فلم يبق علويّاً معتدلاً ، بل أصبح عباسيّاً متطرفاً ؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد .

أما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويّاً متطرفاً ، وعباسيّاً معتدلاً ، واستطاع ذلك فى وقت واحد ، فكان من أشد الناس إخلاصاً لآل على ، يجهر بذلك ويعلنه ، ولا يتحرج منه . وكان فى الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس ، لا لأنهم فازوا على العلويين ، بل لأنهم يمثلون بنى هاشم ، الذين فازوا على الأمويين كان يجمعه إلى أنصار بنى العباس الفرع بسقوط الأمويين ، وكان يعلن هذا الفرع ، وينتظر أن يأتى يوم آل على ، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً ، وإنما كان يبث الدعوة لآل على ، ويبدل فى ذلك من الجهد والقوة ما استطاع . ثم لم يكن فرحه بسقوط الأمويين وحده هو الذى يدنيه من بنى العباس ، وإنما كان هناك شئء آخر يدنيه منهم ، وهو الرغبة والرغبة ، كان يطمع فى أموال بنى العباس ، ويفيد

منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم ، فيتقيه بالتصيدة يمدح بها آل العباس ، بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل عليّ .

أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، وكان رجلاً يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما إلا في شيء واحد ، هو مدح بني العباس وتأييدهم . كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الأدب والتاريخ متصلة ببني أمية ، محسوبة عليهم ، إن قبلت هذا التعبير ؛ فقد كان أبو حفصة جده الأعلى عبداً فارسياً لمروان بن الحكم ، شهد معه حصار عثمان في داره ، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكرًا في حماية مولاه مروان ، وإنقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قبل خلافته ، ونشأت عن ذلك صلة من صلوات الموالاة القوية المتينة ، بين آل أبي حفصة وآل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل أبي حفصة على العرب ، وعلى أشرف العرب أيضاً ، وحتى لقد أبى خليفة مروان أن يسمع لنفر من أشرف العرب ، أقبلوا يشكون إليه أن رجلاً من آل أبي حفصة قد أصهر إلى العرب ، وخالف الحكم الشرعي ، الذي لا يبيح للموالى تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى ، بل زجر الشاكين زجراً شديداً ، واضطر الحفصي إلى أن يسعى لدى الخليفة في الرفق بهم ، والعطف عليهم ، وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصرُوا الأمويين مناصرة شديدة ، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج ، وزعم في شعر له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج ، فاضطربت أمور العراق ، وظهر فيه الثائرون ، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الأمويين وبين آل أبي حفصة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر ، هو الذي نقصد إليه في هذا الحديث ، وهو ، خلُق مروان بن أبي حفصة .

فما كان الحظ يدبيل من بني أمية لبني العباس ، حتى انتفض مروان بن أبي حفصة ، فإذا هو شاعر بني العباس ، ولسانهم السياسي ، وإذا هو أشد الناس انتصاراً لهم ، وأبلغ الناس دفاعاً عنهم ، وإذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه: إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك ، وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً ، فقال :

أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ

يريد أن العباسيين أحق بوراثته النبي ، لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق بوراثته ابن أخيه من الأسباط ، وذلك بحكم الفقه والميراث . وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة ، فاضطربوا له اضطراباً شديداً ، واشتد سخطهم على مروان ، وأضمرُوا له الشر ، وأظهروا له اللعنة ، وما زالوا به حتى قتلوه ، كما سنرى . أما موقع البيت مع العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه ، حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدي والهادي والرشيدي ، وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة ، ثم كانت له عليهم دالة ، وكانت له عندهم عادات ، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون ألوفاً ، تعدل أبيات قصيدته عدداً فكان إذا بلغ بقصيدته المئة ، بلغت جائزته مئة ألف . وهذا هو الذي غاظ أبان ابن عبد الحميد ، فكان منه ما كان . على أن أبان بن عبد الحميد حين أراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطيع أن يكون شاعراً وإنما كان فقيهاً ، يناضل عن رأى في الفقه ، ففصل النظرية العباسية تفصيلاً ، ودافع عن كلياتها وجزئياتها ، كما يقول أصحاب المنطق ، دفاع الفقيه . فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن ينكر ماضيه وماضى أسرته ، وأن يجحد ولاء الأمويين ، وينتفض فإذا هو عباسي أكثر من العباسيين ؟ ليس الجواب عليه عسيراً ، ولا في حاجة إلى بحث وتدقيق ؛ فقد كان مروان بن أبي حفصة محبباً للمال ، شرهاً إليه ، لا يشبع منه ، ولا يقنعه منه الكثير . كان محبباً للمال ، هذا التعبير ضعيف ، لا يصف مروان ولا خلقه ، وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ، ويقدمه تقديساً ، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الأمويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأنه يفوز بأموال العباسيين ، فلو أدال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ، ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدمه . لم يكن إذن عباسياً مخلصاً ، بل لم يكن شاعراً من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح ، لم يكن من هذه الألسنة السياسية الحزبية ، التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، التي لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس على الموت ، في سبيل الرأى السياسي . لم يكن مروان من هؤلاء ، وإنما كان شاعراً مجيداً ، يستطيع أن يكسب المال بشعره ، وقد رأى فرصة سانحة ، فأحسن انتهازها ، وقدّر له التوفيق ، فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر

من قبله وأمثال مروان بن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي ، وإلجهاد العنيف بين الأحزاب ، تجدهم في كل مكان وفي كل زمان ، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليلون جداً . كان مروان شراً إلى المال ، ولكن الغريب من أمره أنه لم ينتفع بهذا المال ، ولم يستمتع بشيء منه ، وإنما عاش عيشة بؤس وحرمان ، فكان من أبخل الناس ، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر عرفته العرب إلى ذلك الوقت ، وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان ، ويتندرّون به في مجالسهم وأحاديثهم ، فهم يقولون مثلاً إنه كان إذا قدم بغداد ، يمدح خليفة من الخلفاء . ويظفر بجائزته ، لم يأكل إلا الرأس ، يبعث غلامه ، فيشترى له رأساً ، فيعيش عليه حيناً ، وقد كلف في ذلك ، فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيبه ، فهو إذن يكفيه بعض المؤونة ، ثم إنه لا يحتمل زيادة ولا نقصاً ، فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه ، فهو إن أكل أذنناً أو عيناً أو نحو ذلك ، ظهر سيده على ما أكل ، ثم إن له في الرأس مرافق ، فهو يتخذ منه ألواناً مختلفة ، دون أن يتكلف لذلك الأثمان ، التي يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألواناً مختلفة ، فهو يأكل الأذنين لوناً ، والعينين لوناً آخر والمخلصمة لوناً آخر ، وعلى هذا النحو . وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان ، فنزلوا عنده في اليمامة ، فأطعمهم لحماً ، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلساً وآنية ، ليشتري له شيئاً من الزيت يطعم منه ، فذهب الغلام وعاد بالزيت ، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والخيانة ، فجعل الغلام يسأله كيف أحزنك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب : أخذت الفلس ، واستوهبت الزيت . ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال : ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوماً وقد أجازني المهدي بمئة ألف دينار ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشتريت به لحماً . ويقولون : إنه مر بامرأة فأضافته ، فلما أراد الانصراف وعدّها إن بلغت جائزته مئة ألف أن يهب لها درهما ، فلم تبلغ جائزته إلا ستين ألفاً ، وكان يريد مع بن زائدة ، فوهب للمرأة أربعة دوانق ، وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي مئة الألف .

وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة ، روينا لك منها هذا الطرّف ، لنصور لك حبه للمال تصويراً كافياً ، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن نتممه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ، ولها قيمتها ، لأنها تمس شعر مروان ، وهي أنه

مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له ، كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الأموي ، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته ، فاستمع مروان لهذه القصيدة ، فأعجبته ، وكان أولها :

مَرَوَانُ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا بَنُو مَرَوَانَ

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته ، تبعه صاحبنا إلى بيته ، وقال له : إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد ، فقد قتل مروان ، وذهبت دولته ، فبغني هذه القصيدة ، لأنتحلها لنفسى ، وتفوز أنت بشيء من المال ، قال الرجل : قد فعلت . فساومه مروان ، وانتهيا إلى ثلاث مئة درهم ، ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والأيمان المخرجة ألا يذكر هذه القصيدة ولا يرويها ، ولا ينسبها إلى نفسه ، فحلف الرجل ، وانصرف مروان إلى بيته ، فغير القصيدة . وزاد فيها ، ونقص منها ، وحوطها إلى معن بن زائدة ، فقال :

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ

ووفد بها على معن ، فلأ يديه ، وأقام عنده مدة ، حتى أثرى . على أننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبي حفصة ببني العباس ، فبلغ عندهم من الحظوة ما بلغ ، وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال . يظهر أنه في أول أمره لم يكن يفكر في الاتصال بهم ، ولا في الارتقاء إلى هذه المنزلة ، منزلة الشعراء الذين يبلغون قصور الخلفاء ، وينشدونهم فيها الشعر ، وكأنه كان قد ترك ذلك لأهل العراق ، واكتفى بحظه من معن بن زائدة ، وقد كان هذا الحظ عظيمًا موفوراً ، فجود معن معروف ، وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره . لكن معن مات ، فحزن عليه مروان ، ورثاه رثاء كثيراً جيداً ، منه هذان البيتان :

أَقَمْنَا بِالْيَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ مُقَامًا لَا نَرِيدُ بِهِ زَوَالَ
وَقُلْنَا أَيْنَ نَرَحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالَ

ثم بدا له ، فوفد على المهدي فيمن وفد عليه من الشعراء ، وكان اسمه وشعره قد سبقاه إلى المهدي ، كما سبقاه إلى المنصور من قبل ، ولعل اسم معن هو الذي

رفع مروان ، حتى انتهى به إلى قصور الخلفاء .

وفد على المهدي ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله المهدي : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك ، مروان بن أبي حفصة ، قال المهدي ألسن القائل ، وذكر البيتين السابقين ، ثم قال : لقد ذهب النوال فيما زعمت ، فلا نوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله ، حتى أخرج . ومن قبل المهدي وجد المنصور على مروان ، لأنه أحسن مدح معن ، ووجد على معن ، لأنه أكثر العطاء لمروان ، حتى إنه لام معناً في ذلك ، ولكن معناً عرف كيف يخلص من لوم المنصور .

كان المهدي إذن واجداً على مروان ، حاسداً لمعن بن زائدة ، ولهذا حرم مروان وأهانه ، وكان مروان قد فهم هذا ، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه ، فعرف الميول السياسية حول الخليفة ، واستفاد مما عرف ، فأقام عامه في بلده اليمامة ، ثم استأنف الرحلة ، فدخل على المهدي مع الشعراء ، وأنشده ، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين ، وأشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره ، وكان من حقها أن تخلبهم ، فإنها آية من آيات الشعر السياسي ، وآية الجودة في اللفظ والمعنى ، وصفاء الأسلوب ورقته ، في غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ، ومطلعا :

طَرَقْتِكَ زَائِرَةً فَحَيَّ خَيَالَهَا بِيضَاهُ تَحْلِيَطُ بِالْجَمَالِ دَلَالَهَا
قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلَهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالَهَا

فلم يكذب يبدأ في إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم ، فاستمعوا له معجبين ، وبلغ بهم ذلك أنهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر ، حتى إذا هجم على الموضوع السياسي ، وأخذ يحاج العلوين ، ويخاصمهم عن حق بني العباس في وراثة الخلافة ، أخذ المهدي يزحف من صدره مصلاًه ، حتى صار على البساط ، إعجاباً بما يسمع ، وإليك هذه الأبيات التي استخفت المهدي ، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نَجْمَهَا بِأَكْفَكُمُ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةَ عَنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِرَأْسِهِمْ فَأَرَدْتُمُ إِبْطَالَهَا

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدي عن القصيدة كم هي؟ قال مروان: مئة بيت، فأمر له بمئة ألف درهم؛ وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس. قال الفضل بن الربيع، وهو الذي شهد هذه القصة: فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان، فأنشده قصيدة يمدحه فيها، فسأله: ومن أنت؟ قال: شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة، فذكر له ذينك البيتين، اللذين رثا بهما معن بن زائدة، وقال له مثل مقالة المهدي، وأمر به فأخرج، قال الفضل بن الربيع: فلما كانت أيام تَلَطَّف مروان، حتى دخل على الرشيد، فأنشده قصيدته التي أولها:

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخصب

وقد صدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكباً بعد موكب

طرب الرشيد، وسأله عن قصيدته كم هي؟ قال: ستون أو سبعون، فأمر له بعدد أبياتها ألفاً، وكان ذلك رسم مروان في القصر حتى مات. لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان، وأنا أسف الأسف كله، لأننا لا نستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا عن بصيرة، إذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتاً قليلة متفرقة، ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقارباً، إن لم يكن صحيحاً، وأكبر الظن أنه صحيح.

لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعدد منها فناً أو فنين، فلما عرف له غزلاً، إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدعوا به مدائحهم، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون، حين يدافعون عن مذهبهم، ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية، فيبلغ منهم ما يريد، ويهجومهم في حرية، وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً، كان الدين يأباه في ذلك الوقت. وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً؛ فالعلويون من بني هاشم، وهجاؤهم هجاء للعباسيين، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين، الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين، مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة، البريئة من الشتم

والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم . ثم لا نعرف مروان مجونا ولا عبثاً ، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً ، وإنما كان بخيلاً ، والبخل والعبث شيان لا يتفقان ، ومن ضمن على نفسه باللحم وطيبات الطعام ، لم يستبح لنفسه خمرًا ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف مروان فخرًا ، وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر ؛ فقد كان رجلاً عملياً ، يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة ، وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد .

لم يعرض إذَنْ إلا لفنين اثنين : المدح والرثاء ، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء ، وهذا طبيعي ، فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ، ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يجيد ، وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً ، أما في الرثاء فهو لا يرغب ، ولا يطلب مالا ، وإنما يني بعهد ، ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة ، إلا أن يكون حساساً ، دقيق الشعور ، راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء ، وإنما كان ، كما قلت لك ، رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء ، وكذلك رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاءً ؟ هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذكر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه . وفيه المثوبة والعطاء ؛ فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء . أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ، ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح ، وبرع فيه ، بل نحسب أنه تفوق في هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متميزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يَتَمَسَّنُ في وصف معن بالجوهر والكرم والشجاعة والحب ، ثم يفتن في مدح بن شيبان الذين ينتمى إليهم معن ، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سمة الشعراء من قبله ، ولكنه جيد المعاني منتقاها ، حسن الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان ينشده الخلفاء من بني العباس ، وهو مدح إن شئت ، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف ، بما فيه من هذا النضال السياسي ، الذي كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ، ودقة وخفة ، والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون

أن يزدري خصومهم . وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين ، لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصماً قوياً عنيداً ماهراً في الحصام ، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته ، وقوة حجته في الخصومة .

ثم هناك شيثان لا بد من الإشارة إليهما ، ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكماً معيّناً ، إن صح هذا التعبير .

الأول أن مروان لم يكن عراقياً ، ولم يرض الإقامة في العراق ، ولم يُطيل عشرة العراقيين من أهل الحجون والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة ، أقام فيها ، لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة ، فإذا أنشد قصيدته ، وظفر بجائزته ، عاد إلى اليمامة ، وأقام فيها عامه ، ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ؛ فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين ، منه إلى شعر المحدثين ، من شعراء الحضارة العباسية ، تفرّقه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو ، أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، وهو يمثل البادية تمثيلاً صحيحاً . ولهذا أثره في وجهة أخرى . فقد رضى علماء اللغة جميعاً عن مروان ، وأجبهوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نواس ؛ لأنه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنسى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس ، فاضطروا إلى أن يجابوا هذين الشاعرين ويتماقهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار ، وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين ، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة . وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يقاس إلى مروان في هذا أحد من شعراء العراق . أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس ، والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس إلى بشار ، ولا إلى أبي نواس بنوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في فنه ، لا يخاف ولا يهاب ، فصدق نفسه ، وصدق الناس وأثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ؛ وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان ، وأنى أن يدون لأحد من المحدثين بعده ، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان ، وهي :

بنو مَطَرٍ يوم اللقاء كأنهم
 هم يمنعون الجارَ حتى كأنما
 لهميم في الإسلام سادوا ولم يكن
 هم القوم إن قالوا أصابوا ، وإن دُعوا
 ولا يستطيع الفاعلون فعآلهم
 أُسودُّ لها في بطن خَفَانٍ أُشْبِلُ
 لجارهم بين السماكين منزلُ
 كأولهم في الجاهلية أولُ
 أجابوا ، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
 وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابي يقول : لو أن مَعْنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه .

والآخر أن مروان لم يكن سريعاً في الشعر ، ولا متعجلاً ، ولا مسترسلاً مع الطبع ، وإنما كان بطيئاً متمهلاً . كان يجيد الشعر ، لأنه كان يجوده . وكان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها ، في هذه القصائد التي يسمونها الحولييات . كان ينفق أشهراً في إنشاء القصيدة ، وأشهرراً في إصلاحها ، وأشهرراً في عرضها ، حتى إذا استقام له هذا كله ، أنشد قصيدته لممدوحه ، خليفة كان أو وزيراً أو أميراً ، فليس عجباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر ، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً .

ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء ، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار ، فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ، ويسأله رأيه فيها ، فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة مالياً ، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا .. وقد صدق بشار مرتين ، فأظهر له مروان العجب من ذلك ، فقال بشار : ألم أقل لك أني أعلم الغيب ! ولم يكن يعلم الغيب ، وإنما كان يفهم مروان ، ويفهم الخلفاء ، ويفهم الميول السياسية ، التي كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضاً ، ولكنه تناقض مفهوم ، كان شديد الحرص على الإجابة فكان يشك في شعره ، ويستشير فيه الشعراء والنحاة ، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه ، لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . واسمع رأيه فيهم وفي نفسه ، فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول :

ذهب الفرزدقُ بالفَخَّارِ وإنما
 ولقد هجا فأمضَّ أخطلُ تغلِبِ
 وحوى اللهُي بيانه المشهورِ
 وكلُّ الثلاثة قد أجاد فمدحه
 وهجاؤه قد سارَ كل مَسِيرِ
 ولقد جريتُ ففتُّ غيرَ مهالِّ
 بجراء لا قَرَفِ ولا مَبْهُورِ
 إني لآنفُ أن أُحَبَّرَ مِدْحَةَ
 أبداً لغيرِ خليفة ووزيرِ
 ما ضرَّني حسدُ اللثامِ ولم يزلْ
 ذو الفضلِ يحسده ذوو التقصيرِ

أما رأى مروان في النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الأعشى ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر زهير ، ويقول هو أشعر الناس ، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء ، فرآهم جميعاً أشعر الناس ، قال ضاحكاً : الناس أشعر الناس .
 ولست أعرف رأياً كهذا الرأي ، يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

أظن أني قد صورت لك مروان بن أبي حفصة تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً . وكنت أريد أن أتحدث معه عن السيد الحميري ، كما ترى في عنوان هذا الحديث ، ولكنني أظلت فأرجئ السيد إلى الحديث الآتي ، وأختم هذا الفصل بموت مروان يتقصُّه قائله .

روى صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم ، أنه قال :
 لما قال مروان :

أني يكونُ وليسَ ذاكَ بكائِنِ
 لبني البناتِ وِرائةُ الأعمامِ
 لزمته ، وعاهدت الله أن اغتاله ، فأقتله أي وقت أمكنني ، وما زلت ألافه وأبتره ، وأكتب أشعاره ، حتى خُصصت به ، فأنس بي جداً ، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعاً ، فأنسوا بي ، ولم أزل أطلب غرة ، حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه ، وألزمه وألافه ، حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبت عليه ، فأخذت بحلقه ، فما فارقت حتى مات ، فخرجت وتركته ، فخرج إليه أهله بعد ساعة ، فوجدوه ميتاً ، وارتفعت الصيحة ، فحضرت وتباكيت ، وأظهرت الجزع عليه حتى دفن ، وما فظن بما فعلت أحد ، ولا آهمني به .

السيد الحميري (١)

علويون ، وعباسيون

اضطرنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسي في صدر أيام العباسيين ، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه ، ورأينا مذهبه ، وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، كساده البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين ، كساده البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصره شعره السياسي على بني العباس ، فدافع عنهم وناضل ، حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة ، وهو مروان بن أبي حفصة ، الذي كان خليفاً أن يكون أموى التزعة ، ولكن حبه للمال ، وتهاككه عليه ، قطع الصلة بينه وبين قديمه ، وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسياً ثالثاً ، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين ، اللذين رأيناها ؛ فهو لم يكن فارسياً ، ولا ميالا إلى الفرس ، ولا متصلاً بزعمائهم ، ولا متأثراً بحضارتهم تأثراً خاصاً . وإنما هو رجل عربي خالص ، لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وهو إسماعيل ابن محمد ، المعروف بالسيد الحميري .

ليس فارسياً ولا متصلاً بأحد من زعماء الفرس ، وإذن فلم يكن تشيعه طلاء سياسياً كاذباً ، يستر الشعورية وبُغض العرب ؛ ولم يكن أموى التزعة ، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة ، كما كانت الحال بين آل أبي حفصة والمرأوة ، وإنما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى السيد الحميري ؛ فإن جده يزيد بن مُفَرِّغ هجا زياداً وآل زياد ، وعرف سجن عبيد الله بن زياد . وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ، كما كان يكرهان بني هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ، كما كانا يشتمان علياً ، ومع ذلك فقد كان السيد الحميري شيعة لعليٍّ وأبنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤ م .

في حياتهم السياسية كلها ، وقف عليهم عمره وجهده ، وكاد يقف عليهم مدحه
 وثنائه ، مخلصاً في ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص . ولم يكن السيد الحميري
 نفسه يعرف كيف وصل التشيع إليه ، بل كان إذا سئل عن ذلك قال :
 غاصت رحمة الله على غوصاً ، وكان يسمع أبويه يشتمان عليّاً ، ويبالغان في شتمه ،
 فكان يكره ذلك ، ثم صح له مذهبه في التشيع ، وظهر منه أبواه على هذا الرأي ،
 فيقال : إنهما هما بقتله ، فاستجار منهما بعقبة بن سلم ، فأجاره حتى ماتا ، وتم
 له ميراثهما .

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد ، في أنه لم يكن فارسياً ولا ميالا إلى
 الفرس ، ويخالف مروان بن أبي حفصة ، في أنه لم يكن أمويّاً ولا ميالا إلى بني
 أمية ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين ، في أنه لم يعيّف عن أموال بني العباس ، بل
 تقرب إليهم ، وأثنى عليهم ، وأنشدهم شعره ، وأخذ من أموالهم ما استطاع ،
 مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم ، وإنما كان هواه مع قوم آخرين ، هم آل عليّ .

على أن أمر السيد الحميري يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً ، فهو
 فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين ، وظفر بجوائزهم ، وهو لم يقل كما
 قال أبان بن عبد الحميد : لا أستحل ذلك ، ثم استحله ، وإنما كان السيد الحميري
 يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمّر ، وأن يمدح بني العباس
 بلسانه ، ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بما لهم ، ويتقّى شرهم ، كان يستحل ذلك كما
 كانت تستحله عامة الشيعة ، الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة ، ويستبيحون
 لأنفسهم أن يروا في السياسة والدين رأيين ، رأياً تجارياً ، إن صح هذا التعبير ،
 يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ، ليعيشوا ويأمنوا ، ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن ،
 ورأياً آخر يخفونه على الناس جميعاً إلا أنصارهم وأولياءهم ، وهو الرأي الذي يصطنعونه
 فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين ، وعليها
 سارت أيضاً أيام العباسيين ، وهي معقولة ، ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة على
 من الاضطهاد وألوان الخن أيام بني أمية ، ما لم يلقه حزب سياسي آخر ، إذا
 استثنينا الخوارج ، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى
 لها ، وكانت شيعة عليّ من وجوه الناس وأشرفهم ، وذوى الثروة والمكانة فيهم ؛

فلم يكن لهم بُد من أن يداروا الناس ويتقوهم ، ليحتفظوا برأئهم ومكانتهم ، حتى إذا سنحت لهم الفرص أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم ، فطالبوا به ، ودافعوا عنه ، وعلى هذا النحو استطاع الكُسميَّت بن زيد ، وهو الشاعر الذي يمكن أن يوضع مع السيد الحميري ، أن يمدح بني أمية ، ويفيد من أموالهم ، وعلى هذا النحو استطاع « كُشَيْر » أيضاً أن يمدح الأمويين ، ويصيب من جوائزهم ، بل على هذا النحو استطاع « الفرزدق » أن يُضمّر ميله إلى العلويين ، ويكتمه كتاباً ، وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بني أمية .

فليس غريباً أن نرى السيد الحميري يمدح بني العباس ، ويتقرب إليهم ، مع أنه كان من غلاة العلويين ، الذين أسرفوا في علويتهم ، حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميري علويّاً غالباً ، وكان من الرافضة ، وقد جنى عليه غلوّه ورفضه هذان جناية عظيمة ، هي التي تعنينا ، وإن كانت لم تعنه ، ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة ، فلم ينله أذى ، ولم يتعرض لخطر ، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ، ولكن رفضه وغلوّه بغتضا شعره إلى الناس ، وحلامهم على أن يُعرضوا عنه الإعراض كله ، إما لأنهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه ، وإما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء ، فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر ، ولم يتقدمهم في ذلك أحد ، في جاهلية أو إسلام ، وهم بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد . فأما بشار فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حَفِظ له ديوانه ، لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من شتم السلف ، والطعن عليهم ، والإسراف في الزرابة بهم . ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً ، وتحرّج تحرجاً عظيماً ، في رواية ما روى من أخباره وأشعاره القليلة ، ولو استطاع لأعرض عن ذلك إعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره ، ويختلسون الفرص اختلاساً يتلون فيها شيئاً من شعره خفية دون أن يظهر عليهم الناس ، وكان منهم من يأسف ويأسى ؛ لأنه فيما بينه وبين نفسه يُكبر هذا

الشاعر ، ويقدر شعره ، ولكنه لا يستطيع ، لخوف أو لدين ، أن يُنزله منزله الصحيحة من الشعراء ، كان الأصمعي يُقدِّمه على طبقته ، لولا إسرافه في شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة ، وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما. ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم ، الذي كان يشتمل على الناس إذا ذكر السيد الحميري أو شعره ، والذي كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به ، على أن يتناقضوا شعره سرًّا فيما بينهم ، فمصدر هذا الخوف شيثان : أحدهما الدين ، والآخر السياسة . وما رأيك في رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مأثمة من المآثم ، ولا لونا من ألوان العيب ، إلا رمى بها خيرة المسامحين وسلفهم الصالح ، لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا بنى هاشم وشيعتهم ! فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي ، مهاجرين وأنصاراً ، فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أففتظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصور والمهدي ، على قرب عهدهم بالسلف ، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه ، كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه ، دون أن يأخذهم الألم ، وينالهم الاشمئزاز ، ويصيبهم شيء من الحرج في دينهم ، يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً !

أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة ، لأبين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل علي ، أيام السيد الحميري ، وليس أدل على ذلك ، ولا أنطق به ، ولا أبلغ في وصفه ، من هاتين الرسالتين اللتين تبادلتهما المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوي حين خرج بالمدينة . هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولهما ، تصفان لك هذا العداء الشديد ، الذي كان يقسم بنى هاشم قسمين : قسماً يوالى العباسيين ، وقسماً يوالى العلويين ، وهما على هذا تبيين لك شيئاً آخر أشرت إليه في فصل مضى ، وهو النظرية السياسية والدينية التي كان يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم ، والتي دافع عنها مروان بن أبي حفصة ، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التي كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقهم ، والتي قامت عليها الثورات ، وسفكت من أجلها الدماء ، واستغلها الفرس لأهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، كتب إليه المنصور يرغبه ويرهبه ، ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة .

فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله المهدي ، إلى عبد الله بن محمد .
« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم
يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ،
يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنَّ على الذين
استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكنَّ لهم في الأرض ،
ونُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأنا أعرض عليك من الأمان
مثل الذي عرضت عليَّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ،
وخرجتم له بشيئتنا . وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليّاً كان الوصي ، وكان الإمام ،
فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له
مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء الأئمة ولا الطُّرداء ولا
الطلاق ، وليس يمتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة
والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية
وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من
النبیین محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاماً عليّ ، ومن الأزواج
أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلَّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ،
سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدي شباب أهل
الجنة ، وإن هاشما ولد عليّاً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبيل حسن وحسين ، وإني أوسط
بني هاشم نسباً ، وأصرحهم أمّاً وأباً ، لم تُعْرِقْ في العجم ، ولم تتنازع في أمهات
الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار
لي في النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذاباً في النار .
وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير
أهل النار ، ولك الله عليّ إن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي ، أن تؤمنك علي
نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حدثاً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم
أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ،

لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي . فأى الأمانات تعطيتني :
أمان بن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم !

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين
السياسية والدينية ، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي ، لأن أباهم كان وصي النبي ،
ولأن أهمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء ، ثم انظر كيف
افتخر بمكانه من النبي في الإسلام والجاهلية ، وبهذه الكرامة التي خص الله بها
أهل البيت . وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار ، وخير أهل
الجنة ، وخير أهل النار ، يريد أبا طالب ، الذي مات ولم يسلم ، فيروي أنه أقل
أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف ختم كتابه بهذا التعبير ، يصف فيه
المنصور بأنه نقض العهد ، وخان الذمة مع قوم آمنوه ، فقتل منهم من قتل ،
وسجن منهم من سجن .

وكان وقع هذا الكتاب شديداً في قصر المنصور ، فقد انتدب الكتاب والأمراء
للرد عليه ، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه ، فكتب هذا الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ،
فإذا جل فخرك بقرابة النساء ، لتفضل به الجفأة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء
كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به في
كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة
أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله
لخلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً
يرزق الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه
عبد الله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من
يشاء ؛ قال الله عز وجل : « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ،
وهو أعلم بالمهتدين » ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل
الله عز وجل : « وأنذر عشيرتک الأقربين » فأنذرهم ، ودعاهم ، فأجاب اثنان ،

أحدهما أبى ، وأبى اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاّ ولا ذمة ولا ميراثاً .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وسرد فتعلم ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

أما من فخرت به من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلبده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أمماً وأباً ، وأنه لم تلدك العجّمة ، ولم تُعترق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً ، وانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخرأ ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من جدك حسين بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، وهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ! ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهراً ، ومترّضها سرّاً ، ودفعها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجُدّ أباً الأم والخال والخاللة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقتها ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمره غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ، فلا يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها ،

ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مُتَّهِمٌ ،
وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعدُ يبعثه ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ،
ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل
الحكومة ، ثم حكّم حكّمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده ، وميثاقه فاجتمعا على
خلعه . ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بخرق ودرهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم
شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حياؤه .
فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ، وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك حسين بن علي
على ابن مَرْجَانَةَ ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم
على بني أمية فقتلوكم ، وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ،
ونفوكم من البلدان ، حتى قُتِلَ يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا
الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبي المجلوب إلى الشام ، حتى
خرجنا عليهم ، فطلبنا بئاركم ، وأدركننا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ،
وسيننا سلفكم وفضلناهم ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك
وفضلناهم للتقدمة منّا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ،
واكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى
أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعن تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ،
فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنتناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت
أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية ززم ، فصارت للعباس
من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، ففضى لنا عليه عمر ، فما نزل عنها في الجاهلية
والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا
بأبينا ، حتى نعشهم الله ، وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت
أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه
من عموته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده ،
فالسقاية سقايته ، وويراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل
في الجاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت
من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم ،

للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً ، لملت طالب وعقيل
 جوعاً ، وللحقيق جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار
 والسببة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا
 وقد علمناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا
 دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم ، فأدركننا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركونا إلا
 أنفسكم . والسلام عليك ورحمة الله . (الطبرى جزء تاسع) .

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم على
 أنقاضها مفاخر العباسيين . ثم أترى إلى نظرية العباسيين في خلافتهم هذه التي
 تقوم على أن العم أحق بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبي ،
 فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى علي قد نزلوا عن حقهم في الخلافة حين باعها الحسن
 من معاوية بخرق ودرهم ، وهو نفس الكلام الذى كان يردده مروان بن أبى حفصة
 وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهما من الشعراء السياسيين لبني العباس ، فالمنصور هو
 الذى وضع هذه النظرية ، واحتج لها بالفقه والسنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينياً
 ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر إليه كيف عبر العلويين نكرانهم للجميل ، وكفرهم للنعمة ؛ فقد
 نهض بنو العباس يثأرون لهم ، ويطلبون بدمائهم ، حتى أدركوا الثأر ، ومحو العار ،
 وأذلوا دولة بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

واسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين في هذه القضية ؛ فذلك شيء
 لا يعنيننا الآن ، وإنما نريد أن نمثل العداة الذى كان بين هاتين الأسرتين ،
 ونحسب أن هذين الكتابين يمثلانه تمثيلاً قوياً ، وأنت تعلم أن الحرب اتصلت بين
 المنصور ومحمد هذا ، حتى قتل محمد في المدينة ، وقتل أخوه إبراهيم في البصرة ،
 وكل هذا يبين لك إلى أى أحد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذى يدافع
 عن العلويين ، ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة في ظل رجل قوى كالمنصور .

على أن شاعرنا السيد الحميرى ، لم يكن من أنصار الحسن والحسين ، أو
 بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وإنما كان من الكيسانية ،
 الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علي ، محمد بن خولة الحنفية ، والذين

كانوا يدينون بأنه لم يمّت ، وإنما تغيب عن الناس ، واحتجب عنهم حيناً ، وسيعود فيملاً الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميرى بأس أن يمدح بنى العباس ، ويتقرب منهم ، ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد .

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصّلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم ، وهى أنه كان سخيلاً ضعيف العقل ، شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب ، كما أسرف فى مدح العلويين ، والإيمان بهم ، حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يقبل ؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان يكفى أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير ، يروى كرامة من الكرامات ، يضيفها إلى أحد العلويين ، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف ، والنعمى عليه .

ونخصلة أخرى تقر به من الزنادقة الذين عاصروه ، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية فى الوقت نفسه ، وهى أنه كان يستبيح ضرورياً من اللهو المنكر ، ويسرف فى شرب الخمر ، وغير ذلك من ألوان العبث ، لا لأنه كان يجحد الدين أوبزدرية ، بل لأنه كان يُدلّ على صاحب الدين . كان يحب النبي وآله ، ويمنحهم مودته ونصره ، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك ، وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه ، لما قدّم بين يديه من مدح العلويين ، ونصرهم على خصومهم ، وكان بنو هاشم وبنو على خاصة يُطمعون فى ذلك ، ويعترفون له به ، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر ، قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أذصار أهل البيت ! بل قال أحدهم إن من أحب آل على لم تترل له قدم إلا ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميرى يلهو آمناً فى دينه ودنياه ، يعتمد فى دينه على العلويين ، ويعتمد فى دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ، ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ، ويمتته كل المقت ، ويضمّر للسيد عداً وحقداً

لا يعدلها عداء ولا حقد . ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبري ، قاضي البصرة للمنصور ، فقد كان العداة بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى باليد عند المنصور غير مرة ، وكان السيد قد هجاه ، فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فنهاه عنه ، وأمره أن يذهب إلى القاضي ، فيعتذر إليه ، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة ، فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً على السيد بالسرقة ، ليقطع يده فعلم السيد ذلك ، فجزع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات ، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوار في الأغاني ، فهو كثير ، لا أروى منه شيئاً ، لأنى قد أطلت ، بل لست أروى من شعر السيد إلا أبياتاً تمثل لك مذهبه الشعري . على أنى أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشئين اثنين : أحدهما الإكثار الذى لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة أن قصائده فى آل على كادت تبلغ الثلاثة الآلاف .

والآخر أنه كان سهلاً مطبوعاً ، شديد النفرة من الغريب ، وقد سئل عن ذلك ، فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس ، على أن يقول كلاماً يُعجَبُ به الرواة . وهذا طبيعى بالقياس إلى شاعر سياسى ، يدافع عن حزب مضطهد ، كالسيد الحميرى ، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، الذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أمرُّ على جدِّ الحسينِ قفل لأعظمه الزكيَّة
 أعظماً لا زلت من وطفاء ساكية رويَّة
 وإذا مرت بقبره فأطِّل به ووقف المطيَّة
 وابكِ المطهر للمطهر والمطهرة النَّقيَّة
 كُبكاء مُعولة أتت يوماً لواحدِها المنية

وانظر إلى هذه الأبيات ، التي بعث بها إلى المهدي ، يسأله ألا يعطى آل
أبي بكر وعمر من مال الدولة :

قل لابن عباس سمي محمد	لا تعطين بني عدي درهما
أحرم بني تيم بن مرة إنهم	شر البرية آخراً ومقدماً
إن أعطهم لم يشكروا لك نعمة	ويكافئون بأن تدم وتشتما
وإن ائتمنتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مفعنا
ولئن منعتهم لقد بدوكم	بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلمنا
مدعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريمنا
وتأمروا من غير أن يستخلفوا	وكفي بما فعلوا هنا لك مائنا
لم يشكروا لمحمد إناعمه	أفيشكرون لغيره أن أنعمنا
والله من عليهم بمحمد	وهداهم وكسا الجنوب وأطعمنا
ثم انبروا لوصيه وولييه	بالمُنكرات فجرعوه الملقمنا

وانظر إلى هذه الأبيات ينهى بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا من عهدنا الدارِسا
دونكموها لاعلا كعب من	كان عليكم ملكها نافِسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابسنا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسنا
قد سامها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابسنا

والآن وقد فرغنا من شعراء الحجون والسياسة في هذا العصر ، فسنحدثك عن
شعراء آخرين لم يسلكوا في شعرهم مجوناً ولا سياسة ، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم
من الشعراء .

القديم والجديد (١)

تقرأ في الرسائل الفارسية «لمتسكيو» رسالة لا تخاو من فكاهاة ولذة . تناول فيها بالعبث والمزاح خصوصة الأدباء ، الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد ، وحول القدماء والمحدثين . نجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ، ويكاتفون بها . قد ظهر حبهم إياها ، وكلفهم بها ، حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ، ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون بالشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كئوس القهوة في أثناء القراءة واللعب . ومن بين هذه الأندية ناد خاص ، يظهر أن للقهوة فيه فضلاً على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل ، وينبه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توفيقاً ، والألسنة انطلاقاً ، فالذين يختلفون إلى هذا النادي ، ويتناولون القهوة التي تقدم فيه ، أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدال ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشائمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشائمون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة ، تقع وقّع الصواعق ، وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة ، وكل هذا العنف ، وكل هذا الجدال ، إنما يدور حول شاعر يوناني ، عاش أو لم يعيش منذ ألفي سنة ، يكبیره بعضهم ، حتى يبلغ به منزلة لاتعد لها منزلة ، ويحقره بعضهم ، حتى يبلغ به من الحسة دركاً ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابدون ويقتتلون ، دفاعاً عن هذا الشاعر ، أو هجومياً عليه . ويغضب الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر ، ويحسد الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر ، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته ، أولنالته بشر من الموت ، إن كان هناك شر من الموت .

(١) نشرت بالسياسة في ١ رجب سنة ١٣٤٢ هـ - ٦ فبراير سنة ١٩٢٤ .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين ، الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والحدثين ، ويظهر أن عبث « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ، ولم يلهيهم عن القديم والحديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر ، كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر ، وكما اختصموا من قبل ذلك ، وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الحديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الحديد على ذلك القديم .

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً في كل لغة ، وفي كل جيل ، وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والحيل الذي يتصرف فيهما حظ من الحياة ؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والحديد أشكالاً مختلفة ، وصوراً متباينة ، تمثل العصر الذي تنشأ فيه ، والظروف التي تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها ، وتتباين صورها ، وهما تختلف العصور التي تنشأ فيها ، والظروف التي تحيط بها ، خصومة بين القديم والحديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة ، ولا منصرف عنها ، لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل في مجلة « الهلال » ، التي صدرت أول هذا الشهر ، وكاتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب ، لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى ، كتب في مجلة « الهلال » ، التي صدرت في الشهر الماضي فصلاً عن الأستاذ الرافعي ، هاجم فيه المذهب القديم في لأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى الرافعي زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بُدُّ للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً ، ولم يكن بدُّ لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم يسأل : فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم ، أو في الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » ، وأن أبطال هذه

الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي ، وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بُعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة ، إنما هي صحيفة الأدب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له ، بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان : « أسلوب في العتب » ، وذهب فيها مذهب المتكلمين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب ، وكاقت حول هذا الإنكار خصومة طويلة ، انتهت إلى الشتم والتناوب ، ثم لم تكف تنهت السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكتاب أديب من كتاب فلسطين ، هو الأستاذ خليل السكاكيني ، رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد ، وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من كتاب سورية ، هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين ، حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة « الملأل » ، فعدّه مع الأمير شكيب أرسلان ، من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني ، على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الأدب ، ويخطئ من يظن أن هذه الخصومة ستنتهي غداً أو بعد غد ، ويخطئ من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة ، وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الأدب العربي ، كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجت في كل زمان ، وفي كل مكان ، فينتصر قديم على جديد ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً ، وتكون الخصومة حواره وحول جديد آخر ، ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربي باعاً من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية

المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكننا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم ، في رفق ولين أن يتفصوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ، حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا ، فقد ظهر لنا إلى الآن ، أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي ، فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » ؟ وما « المذهب القديم » ؟ ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ، وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الأديبين خليل السكاكيني ، وشكيب أرسلان : فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، قد عمد إليها أكبر الكتاب ، وأرفعهم قدراً ، منذ كان النثر العربي إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه ، فلا ينبغي أن يعمد إليه الكاتب ، ولا سيما في هذا العصر . إلا بمقدار ، وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق ، دون أن يحددوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو ؟ وما حده ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل أن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعرف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضاً من أن نظهر عليه ، وانظر إلى ما يقول في الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . . نعرف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ! ذلك أن الجملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن فليس شيئين

ولنما هما شيء واحد ، هو الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكمم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة . نعرف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ، ولم نذوقها ، وإذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها ، ولا نحكم فيها ؛ لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً . وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور . فما زال الأستاذ الراجعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ، ونحسبه يحتاج في توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أنه يخيل إلينا أن الذوق شيء ، والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الراجعي ، دون أن نذوقه أن أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا ، فزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها ، وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ، يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى ، فيطربون ويتأثرون ، وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حيناً تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتُعجب بهما ، وحيناً تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حيناً تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكلمين ، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلمين ، فتفهم النظم ، وتفهم النثر ، ولكنك تكرههما ، وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحيناً تسمع قطعة من الموسيقى ، فتعجب وتطرب ، دون أن تفهم ما أراد الموسيقي . وللأستاذ الراجعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي ، محتاجة إلى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديدي في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي ، وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ، وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديدي ، إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب ، وضعفهم في اللغة العربية وآدابها ،

مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ، ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صحّت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد ، وهو إنما أخطأ الفهم ، لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق ، لأنه أخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم ، أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، حتى تتعبا ، فتسقطا معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ، فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم ، دون أن يفهم ويدوق ، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً ، فتخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذن فانتصار هؤلاء للمذهب الجديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق ، أو ذوق هو الفهم ، أو فهم ليس ذوقاً ، أو ذوق ليس فهماً ، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أن نستطيع أن نفهم الأدب العربي ، وأن نفهم الأدب الفرنسي وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي ، وأنصار المذهب الجديد ، ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون للمذهب الجديد ، وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ، تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ في هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد ، وهم يجهلون اللغات الأجنبية ، ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه ؛ فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي ، وأحسن روايته وفهمه وتقليده ، وأسرف في

هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ، فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة ، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكره . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه ، واختصموا فيه ، كما يختصم فيه الأستاذ الرافعي وأصحابه الآن . وقد كتبنا في هذا المكان من « السياسة » فصلاً طويلاً في العام الماضي ، فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بني العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » ، فليس ذلك دليلاً على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ، ولم يذكرهما ، ولم يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتّاب والشعراء قوم غابوا فيه ، فرضى عنهم قوم ، وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعاً ، وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الجديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتدروا لأنفسهم عن هذا الضعف ، بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس ، وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام ، وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي ، وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد ، كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما ، كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم

من يؤثر مذهب الخدّثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله ، قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يَحْيَوْنَ ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ، وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الراجعي يحسن أن نناقشه ولو قليلاً ؛ فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد ، وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الموفور ، فيسلوكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة مورثة ، وهي ملك الملايين من الأعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها ، دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعرف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عمماً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ، ونتخذها أداة للفهم والإفهام ، حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ، ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة ، التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلاً من أصول اللغة ، أو يخرجها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها ، يضيفون إليها ، ويدخلون فيها ، لما نمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها التي تتجدد وتتغير بتجدد الأزمنة ، وتبدل الظروف ، والكتابات والشعراء في كل عصر وفي كل مكان ، يضيفون إلى لغاتهم ، ويدخلون فيها ، ويجددونها ، فمنهم من يسعد الحظ ، فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ، ويتهاكون عليها ، حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ ، فلا يحفل الناس بما أدخل ، ولا بما أضاف .

ومما يحسن أن ينسب إليه الأستاذ الرافعي ، في رفق ولين أيضاً ، أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا ، وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها ، فهو يخطئ في الحكم على أوروبا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفّل الشهوات مذهباً ، ومن البخون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف في ذلك ، فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ، ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد ، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ، ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ، ومنذ فكر . ويسوءنا أن نقول : إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ، ومنذ فكر أيضاً ، فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات ، وإنما الإنسان إنسان ، فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها ، وفيه التحرّج الشديد .

والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم ، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام ، أن يصيبهما من المذهب الجديد شر ، أو ينالهما منه ضيم ، ونظن من السخف والإطالة التي لا تجدى ، أن نهوّن على الأستاذ ، ونهدئ من روعه ، فليس ما يدعوا إلى الإشفاق ، ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد ، المتشددين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه ، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به ، فهو من أنصار المذهب الجديد ، رضى بذلك أو أنكره .

فهرست الموضوعات

صفحة		صفحة	
٨٣	الخمير عند أبي نواس	٣	القدماء والمحدثون :
٩٣	الخمير عند أبي نواس		الجهاد بين القديم والحديد
١٠٣	الغزل في شعر أبي نواس	١٤	القدماء والمحدثون :
١٠٩	الغزل عند أبي نواس		الشعراء في العصر الأموي
١١٨	جد أبي نواس	٢٠	القدماء والمحدثون :
١٢٨	خاتمة القول في أبي نواس		الشعر في العصر العباسي
١٣٩	الوليد بن يزيد	٢٧	القدماء والمحدثون :
١٤٨	مطيع بن إياس		الأندية الأدبية
١٦٠	حماد عجرد	٣٤	القدماء والمحدثون :
١٧٣	الحسين بن الضحاك		الأندية الأدبية
١٨٨	بشار بن برد	٤١	القدماء والمحدثون :
١٩٧	شعر بشار		أبو نواس
٢١٢	والبة بن الحباب — أبان ابن عبد الحميد	٥١	القدماء والمحدثون :
٢٢٦	مروان بن أبي حفصة — السيد الحميري		تمثيل أبي نواس لعصره
٢٣٩	السيد الحميري	٥٨	إلى الأستاذ طه حسين
	علويون ، وعباسيون	٦٣	رد على نقد
٢٥١	القديم والحديد	٧١	كيف نفهم التاريخ
			الخمير قبل أبي نواس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

